

ترجمة: سوزان خليل

كتاب العالم الثالث



الكسندر بينينجسن

شانتال لومير سييه. كيلكجي



سُلطان غالييف

أبو الثورة في العالم الثالث

سُلطان غالييف
أبو الثورة في العالم الثالث

سُلطان غاليف
أبو الثورة فى العالم الثالث
الطبعة العربية الأولى
١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار العالم الثالث
ت: ٣٩٢٢٨٨٠ / ٣٥٥٥٥٠٢
فاكس: ٣٥٥٠٨٧١

هذه ترجمة لكتاب:
SULTAN GALIEV
Le père de la révolution
tiers- mondiste

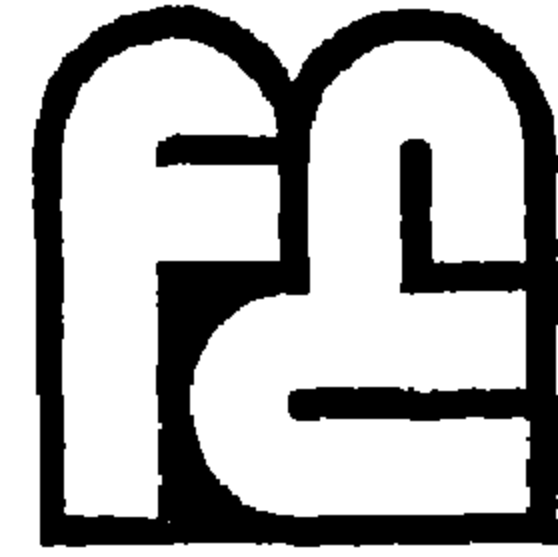
تأليف:

Alexander Bennigsen
Chantal Lemercier - Quelque lquejay

الناشر:

Édition FAYARD, 1986

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة



الجمع: بوحدة الماكنتوش

بدار العالم الثالث

صف: ماجدة حنفى

الكسندر بينينجسن
شانقتال لوميرسييه - كيلجى

سلطان غالييف
أبو الثورة فى العالم الثالث

ترجمة: سوزان خليل

دارالعالم الثالث

«مجهولون فى ذاكرة التاريخ»

مجموعة من تأليف «جان مونتالبيتى»

أولئك الذين أغفلهم التاريخ .. من يكونون؟ إنهم ليسوا أبطاله الذين ذاع صيتهم وجاوزت شهرتهم الآفاق حتى أصبحوا كأبطال الأساطير. وإنما هم من كانوا مصدرا للإبداع، بل تجسيدا حيا لأحد التيارات الفكرية، أو الإكتشافات العلمية، أو التحولات الإجتماعية، أو الأحداث السياسية. لقد تجاوزوا حدودهم الذاتية ليصبحوا شهودا على العصر، فقدموا للمؤرخين المعاصرين نهجا جديدا لدراسة التاريخ.

لقد كانت البداية الأولى لهذه المجموعة المبتكرة من أعمال «جان مونتالبيتى» والتي تحمل عنوان «مجهولون فى ذاكرة التاريخ» على موجات إذاعة فرنسا بإعتبارها الجهة المنتجة لهذه الحلقات : حيث أذيعت مائة وثلاث وعشرون حلقة بإذاعة (فرانس كلتور)، فى الفترة ما بين شهرى أكتوبر ١٩٨١ وإبريل ١٩٨٤. وقد طلبنا من مجموعة من خيرة المؤرخين المعاصرين متابعة سيرة أولئك «المجهولين فى ذاكرة التاريخ» فمن خلال السرد الأخاذ للتجارب الفردية يكون هؤلاء الشهود هم الأداة المثلى التى لا تنتج التعرف على العصر الذى عاشوا فيه فحسب، بل وكذلك فهم الحاضر بصورة أفضل على ضوء الماضى المتجدد دوماً.

صدر فى هذه المجموعة

- * جورج ديبى، المارشال جييوم، أو خيرة فرسان العالم.
- * هنرى هـ. مولاريه وجلاكين بروسوليه، ألكسندر يرسين، أوقاهر الشر.
- * جان ميترون، بول ديليسال، فوضى من العصر الذهبى.
- * جان تولار، جوزيف فيفيه، المستشار السرى لثابليون.
- * جاك جودشو، الكونت دانتريج، جاسوس فى المهجر الأوروبى.

مقدمة

أصبح اسم مير - سيد سلطان غالييف فى الاتحاد السوفياتى مرادفا للقب كبير الخونة، أو البورجوازي المناهض للثورة، أو عميل الامبريالية، بعد نجاحه من خلال مناورات ماكيافيللية فى دخول الحزب الشيوعى البلشفيكى حيث أرسى قواعد حركة منشقة تحمل اسمه: «الحركة الغالييفية» («سلطان غالييفشينا»). غير أن هذا الرجل الذى اتهمه القادة السوفيات منذ أكثر من نصف قرن بأنه مثال «للمسلم الثروتسكوى»، يكتنفه الكثير من الغموض، فلا أحد يعرف شيئا عن حياته الخاصة، بل إننا نجهل حتى اسم والديه، أو ما إذا كان قد تزوج من عدمه، وهل أنجب أطفالا أم لا، وماذا كانت ميوله ... كما أننا لا نعرف شيئا عن تاريخ وفاته أو الظروف التى أحاطت بذلك. هل لقي حتفه رميا بالرصاص فى غياهب أحد السجون، أم قضى نحبه من جراء سوء الأحوال بأحد معسكرات الإبادة فى متاهات شمال سيبيريا؟ لا أحد يعلم على وجه التحديد.

ومع كونه من أوائل الذين تصدوا لمعارضة ستالين علانية ووضع نظريات جريئة وتنبؤية تحظى باهتمام متزايد فى الوقت الحالى داخل بلدان العالم الثالث قاطبة، إلا أن سلطان غالييف لا يزال فى الواقع «مجهولا فى ذاكرة التاريخ». ومن ثم، فإن هذه الدراسة لسيرته الذاتية تفتقر الى الكمال بدرجة كبيرة، ولن يتسنى سد هذه الثغرات العديدة إلا إذا جاء ذلك اليوم الذى تفتح فيه أجهزة المخابرات السوفياتية وثائقها لتكون تحت تصرف الباحثين، وهو يوم جد بعيد ولا ريب.

وليس بوسعنا فى الوقت الراهن أن نصور حياة تلك الشخصية ومعتقداتها فيما يتعلق بالدور التاريخى الحتمى إلا من «الظاهر»، وإلى حد ما على غرار مؤرخى العصر القديم قبل شامبوليون الذين طالبوا بإعادة كتابة تاريخ مصر الفرعونية استنادا إلى نصوص التوراة وكتابات هيروdot دون سواها.

الفصل الأول

المجتمع التتري عشية الثورة

الفصل الأول

المجتمع التتري عشية الثورة

سلطان غاليف ... تلك الشخصية متعددة الأبعاد. كان مسلماً ولا ريب، داعياً إلى القومية، ثورياً، ماركسياً بلشغياً، ثائراً على الامبريالية الروسية والبيروقراطية السوفياتية، تنبأ بانتفاضة البلدان المستعمرة للشأ من الغرب، غير أنه كان تترباً في المقام الأول. عاش حياته بين كازان وموسكو. إلا أنه حتى يتسنى لنا فهم هذه الشخصية، علينا أن نضعه في إطاره الوطني.

لنلق الضوء إذن على الأوضاع السائدة في ذلك المجتمع التتري في مطلع القرن العشرين. هم طائفة من المسلمين تعرضوا للغزو والاستعمار على يد الروس منذ عام ١٥٥٢، وكانوا أول من بادر، قبل سائر بلدان العالم الإسلامي بنصف قرن، إلى وضع نظريات سياسية تنبئ بانتقام العالم الثالث من مستعمره.

وُلد مير سيد سلطان غاليف عام ١٨٨٠ على وجه التقريب في إحدى القرى التترية الصغيرة النائية التي تقع وسط ملتقى قمم جبال أورال، في الإقليم الذي يعرف حالياً باسم جمهورية بشكير. بلدة غريبة يقطنها رجال غرباء الأطوار هي تلك المستعمرة القديمة حيث تجاور المستعمرون المسيحيون جنباً إلى جنب مع المستعمرين المسلمين منذ أكثر من ثلاثة قرون دون أي تجانس فيما بينهم، يتجاهل كل طرف الآخر في احتقار متبادل وكراهية واسعة وإن كانت مكظومة، تغذيها تراكمات من العنف والمجازر والقمع على مدى أجيال بأكملها. ولنقل إنها الأندلس ولم يتخل عنها المغاربة، أو الجزائر وقد تعرضت للغزو في القرن السادس عشر ووُضعت تحت الإدارة الفرنسية منذ عهد فرانسوا الأول ...

والواقع أن الجيوش الموسكوية التابعة للقيصر إيفان الرهيب قد قامت عام ١٥٥٢، الذي شهد في كافة أرجاء أوروبا الوسطى وآسيا وأفريقيا السوداء اندحار «الكفرة» في مواجهة تيار الفتح الإسلامي، باقتحام قازان، ذلك المنافس العتيد لموسكو منذ أكثر من قرن ونصف القرن والذي قُدّرت له الغلبة في كثير من الأحيان، عاصمة خان التتر، وورث عشيرة الذهب. وكان

هذا السقوط إيذاناً ببدء التوسع الروسى فى آسيا. ومنذ ذلك الحين، شرع الروس، تحركهم النزعة الانتقامية من ساداتهم القدماء، فى السيطرة على الأتراك المسلمين. كانت قازان مدينة زاهرة ومركزاً ثقافياً على جانب من الأهمية. إلا أن التراث الذى تجمع هناك عبر القرون اندثر بالكامل؛ ولم يقتصر ذلك على الثروة المادية فحسب، بل امتد ليشمل جانباً كبيراً من التراث الروحى. فقد اختفت الثروات ومعها الرجال بعد أن أبادتهم المجازر.

واستتبع الغزو احتلال منظم. فباستثناء أولئك الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية فى جيوش القيصر والذين كان بوسعهم الإقامة فى «الضاحية التترية» بقازان [Tatarskaia sloboda]، تم ترحيل المسلمين من المدينة وحُظر عليهم الإقامة على بعد ثلاثين فرستاً^(*) حول العاصمة القديمة. أما الأراضى المميزة - الواقعة فى وديان الأنهار، على طول الطرق الرئيسية للمواصلات وحول المدن - فقد صودرت من الإقطاعيين ومن الفلاحين التتار ثم أعيد توزيعها على ملاك الأراضى من النبلاء الروس، وعلى دور العبادة العديدة وأبرشية قازان التى أنشئت عام ١٥٥٥ وكانت تمتلك وحدها أكثر من أربعمئة قرية.

وفى أعقاب هذه الموجة الأولى التى استمرت طوال القرن السابع عشر تتابع الفلاحون الروس، واستقروا فى الأراضى الأكثر خصوبة، لا سيما فى وديان الفولجا والكاما. وأخيراً، وحتى يتسنى الحفاظ على النظام الداخلى وصدهجمات خانات كرميه، الذين ادعوا حق السيادة على قازان، فضلا عن التصدى لغارات البدو فى الفياقى - النوغاى أو الكازاخستانيين - تمت تغطية بلاد التتر بشبكة من القلاع التى أعدت لإقامة التجار وأرباب الحرف الذين اقتيدوا عنوة من المدن التى رفعت راية العصيان على السلطة فى موسكو. وبفضل هذه الجهود المبذولة منذ نهاية القرن السادس عشر، أى فى أقل من نصف قرن، تميز الإقليم بالتنوع السكانى حيث لم تتجاوز نسبة المواطنين المسلمين أو الوثنيين نصف هذا العدد. واستؤنف الاستعمار الروسى، الذى توقف خلال ما يعرف باسم «حقبة الاضطرابات» فى مستهل القرن السابع عشر، فى عهد الرعيل الأول من أسرة رومانوف، بل ونشطت هذه الحركة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر، فى عهد الملك بيير الأول. واستقر المهاجرون الجدد فى الأراضى التى هجرها الفلاحون التتار الأحرار الذين فروا جماعات فى اتجاه الأورال وسيبيريا وتركستان والقوقاز.

(*) مقياس روسى للطول يساوى ١٠٦٧ متراً (المترجمة).

وفى نهاية القرن الثامن عشر، كانت الغالبية العظمى من سكان الأراضى التتارية من الروس. وعندما ولد سلطان غالييف عام ١٨٨٠، لم يكن السكان الأصليون من المسلمين يشكلون سوى أقلية قوامها نحو ٤٠٪ من السكان.

وكان لهذا الوضع الديموغرافى أثره الحاسم على مصير التتر. ففى منتصف القرن التاسع عشر، كان أكثر من نصف هذا الشعب يعيش خارج إقليم قازان. فضلاً عن ذلك، فإن النزعة القومية التتارية كانت لتسعى دوماً إلى تجاوز الإطار الضيق لفولجا الوسطى، الوطن الأم. فهذه النزعة قد اتسمت دائماً بطابع «الجامعة الإسلامية» أو «الجامعة التركية»، مع إيلاء الاهتمام بدرجة أكبر لشعوب روسيا من المسلمين والأتراك على وجه الإجمال، بل وحتى مجموع الأتراك فى أنحاء العالم، من البلقان إلى الصين، لا مجرد الأمة التتارية بالمعنى الضيق للكلمة.

ولم يكن إيفان الرهيب والرعييل الأول من أسرة رومانوف ينتهجون «سياسة وطنية» محددة، فضلاً عن عدم اهتمامهم بإقامة الصلات اللاتقة مع الشعوب المحتلة. وبعد إدماج الخان التترى مع المملكة الموسكوية، أضاف قيصر موسكو إلى ذلك اللقب لقب «قيصر قازان»، ثم أعقبه بعد ذلك بوقت قصير بلقب «قيصر أستراخان» عام ١٥٥٦، ولقب «قيصر سيبيريا» عام ١٥٨٥. وكان السكان الخاضعون يعاملون معاملة الرعايا الروس فى الواقع، ولكن من الدرجة الثانية، إذ لم تكن لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها المسيحيون. وفيما يتعلق بالمبادئ المنظمة للسياسة الروسية تجاه المسلمين، فكانت مبادئ محددة بدقة.

كان على النبلاء المسلمين الاختيار: إما التعاون، مع اعتناق المسيحية أو بغير ذلك، وإما الهلاك، أو التصفية الجسدية، أو الهجرة الجماعية. غير أن أقرب البلدان الإسلامية كانت جد بعيدة... فبخلاف المغاربة بالأندلس الذين لم يكن عليهم سوى عبور مضيق جبل طارق، كان قدر التتر، كما حدث للفرنسيين فى كندا، هو البقاء والاستمرار.

إلا أن الدين الإسلامى واجه حملة شرسة، حيث دُمّرت المساجد، وطُرد الملات خارج المدن؛ وكان الخطر الذى يتهدد الإسلام هو أن يتحول إلى دين للفلاحين.

كما خضعت جموع المسلمين ذاتها لعملية دمج دينى لا وطنى. إلا أنه بدءاً من عام ١٩٥٥، تم انتهاج سياسة تحولات نشطة وفريدة من نوعها. وتمتع المعتنقون المحدثون للمسيحية بنفس مركز باقى رعايا القيصر المسيحيين، دون أن يتحولوا إلى روس؛ فقد احتفظوا بهويتهم التتارية واستخدامهم للفتهم الخاصة. كما تُرجمت الطقوس الأرثوذكسية إلى اللغة

التتريّة لأغراض الاستخدام. وأثارت السياسة الروسية - التي كانت تسعى إلى حل هذه المشكلة الوطنية الأولى التي اعترضت طريقها - ردود فعل متباينة بين المسلمين.

وقد قبلت أسر تترية من النبلاء عملية الاندماج. وبلغ عدد هذه الأسر حداً أمكن معه تقدير نسبة النبلاء الموسكويين من أصل تتري بنحو الثلث، كما تنم عن ذلك أسماء مثل تورغينييف، وأكساكوف، وكارامزان، ويوسوبوف، غودونوف، وسوفوروف، وفيليامينوف (من وإلى أمين) الخ. إلا أن البعض الآخر، إزاء ما تعرضوا له من إبادة وحرمان من الحقوق، رفضوا أن يصبحوا روساً بدافع الثأر لأنفسهم. ومنذ نهاية القرن السادس عشر، بدأ تحول طبقة النبلاء التتر من ملاك الأراضي إلى طبقة جديدة هي «النبلاء التجار»، وهي التي تحولت في القرن التالي إلى طبقة البورجوازية التجارية. ونشأ عن سكان الحضر والريف التتر، المطرودين من مدنهم ومن وديان الأنهار الخصيبة، شتات يضم عدة تجمعات انتشرت في جميع أنحاء آسيا، لا سيما في الأورال، وفي فيافي كازاخستان وتركستان. وفضلاً عن ذلك، فقد أثارت حالات اعتناق المسيحية، وكانت عديدة للغاية، شعوراً قوياً بالحق والكراهية لروسيا والروس لدى أولئك الذين استمروا على عقيدتهم الإسلامية. أما «رجال الدين» المسلمون، أو الملات الذين أجبروا على مغادرة المدن، فقد اندمجوا في الأوساط الريفية، وتوطدت أواصرهم داخل تجمعات الفلاحين ومستعمرات التجار.

وطوال القرن السابع عشر، ازدادت سياسة التنصير المتبعة حدة، حيث وُضعت الأجهزة الإدارية والشرطية التابعة للامبراطورية الروسية منذ ذلك الوقت تحت تصرف السلطات الكنسية المكلفة بتحويل المسلمين عن دينهم. وتُعتبر فترة حكم الامبراطورة آنا، منذ عام ١٧٣٨ وحتى عام ١٧٥٥، من أكثر العهود فظاعة بالنسبة للمسلمين. فقد أُغلقت جميع المساجد التتريّة الواقعة في فولجا الوسطى، كما تم تحويل ممتلكات الأوقاف (الأموال المرصودة التي تخصص عائداً لها للأعمال الخيرية ولأغراض التعليم) إلى ممتلكات مدنية ونُقلت إلى الدولة. ولأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي، انهارت دعائم رجال الدين حتى شُلت أيديهم. وهنا ظهر تطور غريب. فبعد انتفاء دور الملات التتر كعناصر محافظة، أصبحوا مهيبين لتزعيم الحركات الإصلاحية المختلفة. وهكذا ظهر هؤلاء في مستهل القرن العشرين في جميع التجمعات الثورية، بل وحتى وسط البلاشفة.

إلا أن حملة الإدماج التي كانت تستهدف إيجاد حل دائم لمشكلة المسلمين في روسيا كان

لها تأثير مغاير تماماً. فقد أثارت هذه الحملة سلسلة من الثورات بين التتر والبشكيرين، تجمعت رغم كثرة عددها لتلتقى في تمرد بوجاتشيف الدموي الذي اجتاحت أرجاء القولجا في عهد الامبراطورة كاترين الثانية.

وكانت حقبة الاضطهاد أحد الآثار الثانوية الأخرى. إذ اختلط مفهوم الإسلام لدى تتر القولجا في القرن الثامن عشر مع فكرة قوميتهم الخاصة أو ما يسمى بالملة. وأصبح الذود عن العقيدة مرادفاً لبقاء وحدتهم الوطنية، وظل الحال على ذلك حتى نشوب ثورة عام ١٩١٧.

وحققت التوسعات الروسية في عهد الامبراطورة كاترين الثانية أعلى معدلات لها في البقاع الإسلامية. إذ وصل الروس إلى فيافي البحر الأسود، من دنييستر إلى كوبان، واستقروا بها. كما دُمّر خان كريميه عام ١٧٨٣ وضُمَّت أراضيها إلى الامبراطورية، كما أخذت الجيوش الروسية تتغلغل في جبال القوقاز للمرة الأولى. غير أن الامبراطورة كاترين الكبرى كانت تنظر إلى الإسلام بعين الاحترام، حيثُ اعتبرته «ديناً حكيماً»، يفوق المسيحية الأرثوذكسية في قدرته على «الارتقاء» بآسيا. فقد كانت تميل إلى رعاياها التتر. واليون شاسع بينهم وبين رعاياها الروس. لما يتمتعون به من دأب في العمل. وقناعة، وفطنة، وقدرة على المبادرة. وإزاء ما اتسمت به هذه الطائفة من أهمية، فقد كانت الأولى، بل الوحيدة، بين الحكام الروس من حيث انتهاج سياسة إسلامية حقيقية. كما دأبت، خلافاً لأسلافها، على كسب ود رعاياها المسلمين في الأقاليم التترية بالقولجا. فقد أوقفت عمليات التنصير القسرية تماماً، وأغلقت المدارس الخاصة بأبناء المرتدين، كما صارت حرية العبادة مكفولة لجميع المسلمين من أبناء الامبراطورية. بل وسُمح للتتر بتشيد المساجد ومدارس تحفيظ القرآن في مدينة قازان وغيرها من مدن روسيا الشرقية.

وفي عام ١٧٨٢، قامت الامبراطورة كاترين الثانية بإنشاء المجلس الروحي الإسلامي في أورنبورج، والذي انتقل في وقت لاحق إلى أوميا. وكانت جميع المستعمرات الإسلامية التترية والبشكيرية في روسيا الأوروبية وسيبيريا تخضع لاختصاص المفتي، وهو رئيس هذه الجمعية المعينة من قبل وزير الداخلية، باستثناء إقليم خان كريميه القديم وفيافي كازاخستان. إلا أن إنشاء إدارة مركزية جاء ليضع نهاية للسلطة الروحية التي كان يمارسها السلطان. خليفة اسطنبول على المسلمين من أبناء الامبراطورية الروسية. وكان ذلك إيذاناً ببدء النهضة الدينية والفكرية لتتر القولجا، فضلاً عما أتاحه ذلك لحكومة سان بطر سبورج من أداة فعالة للسيطرة

على حياة رعاياها المسلمين. وكان لتلك السياسة نتائجها البارزة فيما يتعلق بطبقة التجار التتر. فقد حذت الامبراطورة حذو سلفها الامبراطور بينير الأكبر من حيث تقدير أهمية العامل الاقتصادي، فبادرت إلى رفع جميع القيود المفروضة على التجارة. ومن ثم، فقد أصبح بوسع تتر الفولجا مزاولة التجارة في بشكيريا وسيبيريا وفيافي كازاخستان بحرية تامة. كما شهد الشتات التتري في عهدها ازدهاراً اقتصادياً غير مسبوق، وظهر التتر، الخاضعون للسلطات الروسية، في آسيا الوسطى باعتبارهم الوسطاء، أو بالأحرى من يعزى إليهم فضل «إدخال» الرأسمالية الروسية الناشئة إلى تركستان وسينكيانج، تلك الأقاليم الإسلامية التي كانت لا تزال تتمتع بالاستقلال. غير أن التجار التتر كانوا يتصرفون كمبشرين بالإسلام حيثما حلوا. فقد قاموا، من خلال المساعدات المقدمة من الدولة الروسية وبلاستعانة بأموالها، ببناء المساجد ومدارس تحفيظ القرآن. وعلى ذلك، فقد أصبح تتر الفولجا في عهد الامبراطورة كاترين الثانية، بزعامة طبقة التجار والملاط منهم، هم رواد الإسلام في روسيا دون منازع، حيث اتخذ منذ ذلك العهد شكل ما أصبح يعرف بالقطع، بعد انقضاء قرن، باسم «الملة»، أي الأمة الإسلامية التركية - التتري.

وقد استمرت فترة ازدهار التعاون بين الدولة الروسية والبورجوازية التتري على هذا النحو من القوة قرابة قرن، حتى حوالي عام ١٨٧٦، عندما أكملت الجيوش الروسية غزو تركستان، التي كانت محظورة فيما مضى على «الكفرة» وحكراً خاصاً للتجار التتر. وترتب على غزو آسيا الوسطى وانفتاح ذلك الإقليم الشاسع أمام الرأسمالية الروسية تغيير جذري في العلاقات بين الروس والمسلمين. إذ لم تعد الرأسمالية الروسية بحاجة إلى وسطاء من التتر في تركستان بعد أن عاد إليها السلام. وأصبحت الطبقتان البورجوازيتان، الروسية والتتري، بعد أن كانت حليفتين وشريكتين فيما مضى، في وضع خصمين متنافسين بل وظهرت الطبقة الثانية، وهي الأضعف، وقد اتجهت إليها أصابع الاتهام إن أجلاً أو عاجلاً كما أخذ التهديد الاقتصادي يزداد خطورة إلى الحد الذي استوجب تقديم المساعدات آنذاك في داخل بلاد التتر ذاتها، امتداداً لسياسة الدمج الديني والثقافي التي بدت أكثر مرونة وفعالية من ذي قبل، إلى السكان الأصليين الذين جرى استقطابهم إلى المسيحية من خلال جرعة دعائية وتعليمية مكثفة. وكانت السياسة الجديدة تستهدف خلق طبقة من المثقفين يدينون بالديانة الأرثوذكسية مع الانتماء إلى الثقافة التتري. إلا أن أولئك الذين ظلوا على اعتناقهم للإسلام

من التتر كانوا على وعى تام بالمخاطر التي تنطوي عليها عملية الدمج الدينى. وهكذا فقد جند الصفوة من هؤلاء أنفسهم فى مواجهة روسيا لدرء خطر الدمج الجاثم على المجتمع التترى بأبعاده الثلاثة: لغوياً واقتصادياً ودينياً، كما دعوا إلى تنظيم حركة إصلاحية كبرى تحت رعاية البورجوازية التجارية.

كان للمجتمع التترى خصائصه المميزة فى نهاية القرن التاسع عشر، تلك السمات التي جعلت منه حالة فريدة فى العالم الإسلامى. أول هذه الخصائص أنه كان الوحيد بين الشعوب الإسلامية من حيث العيش فى الشتات. إذ عاش أكثر من نصف هذا الشعب خارج مسقط رأسه فى فولجا الوسطى. كما وجدت مستعمرات تترية فى فيافى كازاخستان، وفى تركستان، وسيبيريا، ومنشوريا، والقوقاز، بل وكذلك فى أوكرانيا، وفى عموم أوروبا الوسطى والغربية، بل وحتى فى أمريكا، حيث احتكر التتر تجارة الفراء فى نيويورك فى بداية القرن العشرين. وقد استند هذا الطابع المميز لذلك «الشعب المهاجر»، كما هو الحال بالنسبة للأرمن واليونانيين وأبناء الطائفة الاسماعيلية، إلى دينامية فريدة من نوعها، وهو ما يمكن أن يفسر ميلهم إلى «الجامعة الإسلامية». كما أدرك التتر أنه حتى يمكنهم مواجهة الضغوط الاقتصادية والثقافية من جانب الروس، تلزمهم مؤازرة جميع شعوب الامبراطورية من الأتراك والمسلمين، وأن بقاؤهم رهن بفرض هيمنتهم الاقتصادية والثقافية على عموم شعوب روسيا الإسلامية، وحمل لواء الإسلام فى روسيا، مع الإفادة من وشائج اللغة والوحدة الدينية من أجل نشر الأفكار الموالية للجامعتين التركية والإسلامية على نطاق واسع. وهكذا اكتسب التجار التتر بعد استقرارهم بين الكازاخستانيين أو البشكيرين صفاتهم المزدوجة كمعلمين وملاّك. وبينما تغفل التتر فى الأورال، وفى فيافى كازاخستان، وسيبيريا، ووسط الشعوب الفنلندية فى الفولجا، فإنهم لم يحملوا فى الوقت ذاته إلى الشعوب الداعية أو شبه الداعية للثورة، مجرد منتجاتهم فحسب بل الديانة والحضارة الإسلامية كذلك. ولعله من المفارقات الغريبة أن امتداد الإدارة الروسية تجاه الشرق والجنوب الشرقى لم يصحبه ترويس هذه المناطق، وإنما أدى إلى اكتساب الشعوب الدخيلة للطابعين الإسلامى و «التترى».

وثمة خاصية ثانية ميزت تتر الفولجا. فقد نجحت طبقة البورجوازية منذ القرن التاسع عشر فى تجاوز حدود الطبقة الأرستقراطية المالكة لأرض لكى تصبح هى الطبقة الحاكمة للأمة، طبقة مزدهرة، ديناميكية وعدوانية، مهيأة تماماً للتصدى للخصم الروسى المتنافس، وذات عقلية

متفتحة تماماً لاستيعاب الأفكار والبرامج السياسية والأساليب الواردة من الخارج. ومن ثم فإن « النهضة التترية » التي شهدناها أواخر القرن التاسع عشر كانت نتاجاً للبورجوازية. وقد اتسمت هذه النهضة في البداية بطابع اقتصادي إزاء ما تميزت به من البحث عن أسواق جديدة، واستحداث مناهج تجارية حديثة، وزيادة الاهتمام بالصناعة. كانت حقبة حافلة بالتحويلات الاجتماعية والاقتصادية، أو لعلها فترة تحول. فقد كان تتر كازان هم أول من بادروا في العالم الإسلامي إلى الانضمام لركب الرأسمالية منذ القرن التاسع عشر. وكان المنطق يقضي بأن يستتبع إحلال طبقة البورجوازية الرأسمالية محل الإقطاعيين ملاك الأرض باعتبارها الطبقة الحاكمة، « تحرير »، الأيديولوجية الدينية القديمة. إلا أن سيطرة البورجوازية التترية واكبتها نهضة شهدها الإسلام في أكثر صوره نزوعاً إلى التقليدية والمحافظة.

وثمة أسباب عديدة تُعزى إليها تلك الظاهرة التي شهدتها بلدان أخرى مستعمرة. إذ ليس من المستغرب، إزاء الشعور بالكراهية تجاه كل ما هو روسي، والذكريات الأليمة لعمليات الاضطهاد الديني في بداية القرن الثامن عشر، ورد الفعل الدفاعي الطبيعي في مواجهة سيل الأفكار المسيحية والليبرالية، أن نشهد تلك العودة إلى نزعة المحافظة الدينية، وهو ما يمكن تفسيره كذلك على ضوء اتجاهات التجارة التترية. والواقع أنه، في الوقت الذي أصدرت فيه الامبراطورة كاترين الثانية أوامرها بنشر المرسوم الذي يقضي بالحرية الدينية كانت المنشآت المدرسية القليلة في قازان تشهد حالة من التأخر التام، كما اعتادت الطبقات التترية ميسورة الحال إيفاد أبنائها لاستكمال دراساتهم بمدارس بخارى، ذلك المركز التعليمي الإسلامي الشهير، وإن كان قد نزل من عليائه ليصبح، خلال القرن التاسع عشر، ملاذاً للإسلام بعد أن اعتراه الوهن والجمود والتمسك بالشكليات. وهكذا لم يعد بوسع التجار التتر أن يطمحوا إلى الحفاظ على نفوذهم، لاسيما في آسيا الوسطى، إلا إذا ما توافرت لهم حضارة ترقى إلى نفس مستوى الحضارة السائدة هناك، مع الإحاطة بلغة وعادات أهل كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان. إذ كان من غير المنطقي أن يعتمد رجال التجارة أو الصناعة التتر الذين يصدرون إلى آسيا الوسطى الأزياء الإسلامية، بالإضافة إلى مئات الآلاف من نسخ القرآن الكريم، وكتب الصلاة، والكتيبات الدراسية الخاصة بالمدارس، ودواوين الشعر الصوفي، إلى تشجيع مذاهب وعادات في داخل قازان تخالف ما يدين به عملاؤهم.

تعاظم النفوذ الروحي والثقافي لآسيا الوسطى على قازان طوال القرن التاسع عشر؛

واتضح ذلك من استحداث الأزياء ذات الطراز التركستاني، وارتداء السيدات للحجاب، مع قرار الزوجات في بيوتهن، والالتزام الصارم بأداء الشعائر الدينية. أما في حقل التعليم، فقد أدى ذلك النفوذ إلى فتح عدد كبير من المدارس الإسلامية ذات الطابع الأكثر نزوعاً إلى المحافظة، وهي الكتاتيب المستوحاة من النموذج البخاري، وكان القائمون بالتدريس في هذه المدارس غالباً من التركستانيين الذين يقدمون خدماتهم التعليمية بصورة تقليدية تجمدت عند القرون الوسطى، فعمّزت عن مواكبة احتياجات الطبقة البورجوازية الناشئة.

وكان للنزعة الشرقية المحافظة أثرها الدائم على التتر الذين ظلوا، حتى اندلاع الثورة، متمسكين بالإسلام في أكثر صوره نزوعاً إلى التقليدية. فرغم الانتصار الذي أحرزته الحركة الإصلاحية في نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن دعاة التحديث الأكثر إقداماً بل وحتى الثوريين منهم ظلوا دائماً مسلمين مؤمنين وملتزمين بأداء واجباتهم الدينية. وربما كان هؤلاء، بعد عام ١٩١٧ وإلى اليوم، من أكثر شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تمسكاً بالدين.

أما السمة الأخيرة للتتر فهي أنهم: «شعب منسى»؛ أغفلته الإدارة الروسية: فلم تشر إليه من قريب أو بعيد منذ ثوراته العظمى خلال القرن الثامن عشر. غير أن التجاهل قد جاءهم على وجه الخصوص من سائر العالم الإسلامي. وحتى يتسنى لنا فهم هذه المفارقة، ينبغي الإشارة إلى المفهوم القانوني الإسلامي القديم المعروف باسم «دار الحرب»: ومؤداه أنه عند سقوط إقليم ما تحت سيطرة «الكفرة»، يتعين على المسلمين القاطنين فيه مغادرته على الفور للاعتصام بأحد الأقاليم المكونة لما يعرف بدار الإسلام. وهكذا كان الحال مع مغاربة الأندلس الذين لجأوا إلى شمال أفريقيا. أما التتر فإنهم قد لبثوا في أماكنهم لم يبرحوها، إما لبعده المسافات، أو لجهل مجتمعات الفلاحين بأحكام الشريعة. ولم يعد المجتمع الإسلامي يلقي بالأمر لمصير هؤلاء. بل إن مشكلة بقائهم أصبحت، منذ عام ١٥٥٢، مسألة تنحصر مسؤولية تسويتها بينهم وبين ساداتهم الروس.

شهدت الامبراطورية الروسية، في عهد القيصر راند الإصلاح ومحرر العبيد ألكسندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١)، تحولاً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً عميقاً قادها أخيراً إلى اعتاب القرن التاسع عشر الغربي. وأعقبت امبراطورية نيقولاس الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥) ذات الطابع البيروقراطي والعسكري والأرستقراطي، والتي كان لا يزال يحكمها الألمان من بلاد البلطيق. وكانوا تابعين مخلصين للقيصر رغم عدم مبالاتهم بالشعب الروسي فضلاً عن كونهم

من الأرثوذكس المتعصبين - امبراطورية بيروقراطية بنفس الدرجة، وإن كان حكامها من الروس، قُدر للبورجوازية الرأسمالية الناشئة أن تلعب فيها دوراً متزايد الأهمية. ولم تأخذ تلك الملكية المطلقة ذات الحق الإلهي، من وجهة النظر الأوروبية، طريقها إلى التطور في اتجاه ليبرالي قط، لا سيما منذ تولى الامبراطور الكسندر الثالث عام ١٨٨١، ولكن الاختلاف كان واضحاً بصورة جلية أمام الشعوب الدخيلة على الامبراطورية، بين روسيا العسكريين والموظفين في عصر نيقولاس الأول، وروسيا الرأسماليين وأرباب الصناعة في عهد الكسندر الثالث. إلا أن التغيير لم يكن في صالحهم، فقد أضيف إلى عنصر الولاء تجاه الحاكم، أحد الأسس الجوهرية التي قامت عليها الامبراطورية، عامل كان مجهولاً فيما مضى: وهو النزعة القومية الروسية، بقاعدتها المزدوجة: العرقية («الشعب الروسى») ، والدينية («العقيدة الأرثوذكسية»). ومنذ ذلك الحين، أصبح غير السلاف أو غير الأرثوذكس، - من البولونيين أو الليتوانيين الكاثوليك، والبلطيق اللوثريين، واليهود، والمسلمين بصفة خاصة - ليسوا مواطنين يُشتبه في أمرهم فحسب، وإنما رعايا من الدرجة الثانية. ومن ثم، فقد أدرك الحكام الجدد أن سياسة الدمج هي أحد الشروط الجوهرية لترابط الامبراطورية وقدرتها على البقاء.

وكانت المحاولة المنظمة الأخيرة لدمج الدخلاء المسلمين في عهد الكسندر الثانى، زهاء عام ١٨٦٠، عندما عادت السلطات إلى انتهاج سياسة التنصير التي أحجمت عنها كاترين الثانية، ولكن باستخدام أساليب أكثر مرونة وفعالية من خلال السعى إلى اجتذاب التتر وغيرهم من الدخلاء - من المسلمين أو الدعاة - لاعتناق المسيحية بالوسائل التعليمية والدعائية. وقام نيقولاس إيلمينسكى، المستشرق الشهير والأستاذ بأكاديمية قازان للعلوم الدينية، باستحداث سياسة دراسية جديدة، حيث أسس عام ١٨٠٣ دار المعلمين المركزية للتتر المرتدين في قازان Tsentralnaïa Krechtcheno-Tatarskaïa outchitelskaïa chkola وأعقبها مباشرة إنشاء عدة مدارس أخرى تترية وفنلندية وتشوفاشية. وكان التدريس يتم في هذه المدارس باللغات القومية الى وضع لها إيلمينسكى أبجديات تستند إلى أشكال الخط السيريلي^(*). وقد استهدف نظام إيلمينسكى، الذى اعتمد رسمياً بصدور «لائحة تعليم المسيحيين الأجانب» عام ١٨٧٠، تحقيق غرض مزدوج. من جهة، تكوين طبقة من الإنتلجنتسيا الأهلية المثقفة على الطراز الأوروبى وإن كان تتألف من المرتدين وحدهم، إذ كان المحرك الأول لهذه الطبقة يرى أنه «ليس ثمة من هو أكثر خطورة على روسيا من مسلم مثقف».

(*) سيريلي (ذو علاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال إن مخترعها القديس سيريل) (الترجمة).

وكان على تلك الإنتلجنسيا الأهلية - رغم اعتناقها للمسيحية - الاضطلاع بالعمل التبشيري تجاه إخوانهم الذين ظلوا على دين الإسلام. كما اقتضى الأمر كذلك استحداث لغات أدبية لاستخدامات الشعوب الإسلامية أو شبه الإسلامية الأخرى (وكان إيلمينسكى يقصد الكازاخستانيين بصفة خاصة)، تستند إلى أشكال الخط السيريلي، بغية انتزاعهم من قبضة النفوذ الثقافى للتتر وإبعادهم عن التقاليد الإسلامية.

وفى الوقت ذاته، عاودت السلطات الأرثوذكسية فى قازان الهجوم على الدين الإسلامى. وعُهد بذلك إلى إدارة الإرساليات بأبرشية قازان، وكانت تتبع السلطتين الكنسية والمدنية فى آن واحد. حيث كُلفت تلك الإدارة بالتصدى للإسلام وتحويل الأجانب عن دينهم، كما هو الحال فى عدة جمعيات، مثل جمعية إخوة القديس جورى فى قازان، المنشأة عام ١٨٦٧، أو جمعية القديس ميشيل الطهور فى أورونبورج، وكانت مهمتها بصفة خاصة تثبيت العقيدة لدى أولئك الذين اعتنقوا الديانة حديثاً من خلال نشر النصوص الأرثوذكسية باللغات الوطنية.

وقد أحرزت تلك السياسة نجاحاً باهراً حتى عام ١٩٠٣. فقد تحول زهاء ٢٠٠.٠٠٠ تترى إلى الدين المسيحى خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، بينهم ١٣٠.٠٠٠ من «حكومة» قازان وحدها. وشكلت عمليات التحول الجماعية هذه خطراً داهماً على وجود المجتمع التترى الإسلامى ذاته، إذ نشأت هوة عميقة، يتعذر تخطيها على ما يبدو، بين التتر المسلمين والمسيحيين، إلى الحد الذى انتهى الأمر معه بأولئك المسيحيين إلى تكوين قومية حقيقية لهم تميزهم عن سائر الشعب التترى.

وعندما تضائل نشاط الإرساليات الأرثوذكسية بشكل ملحوظ بعد عام ١٩٠٥، أدى ذلك إلى عودة التتر المسيحيين إلى الإسلام. وكان لابد لتلك الظاهرة، التى أشار إليها جميع الكتاب فى فترة ما قبل الثورة بما فيهم السوفييات، أن تنتهى باستيعاب الأمة التترية للطائفة المسيحية بعد عام ١٩٢٦. ومن ثم فإن التعداد السوفياتى للسكان الذى أجري عام ١٩٣٩ لم يميز بين هؤلاء وسائر التتر. إلا أن سياسة الدمج الدينى والثقافى المنتهجة فى الفترة من عام ١٨٦٠ وحتى عام ١٩٠٥ كان لها أثرها العميق على العلاقات بين الروس والمسلمين. فقد بدا التهديد بالترويس خطراً داهماً يحدق بالأمة التترية ويفوق فى خطورته المنافسة الاقتصادية، مما أثار النخبة المسلمة ضد روسيا. ويعرض غاليمجان إبراهيموف، وهو مؤرخ سوفياتى تترى، عواقب ذلك بإيجاز بقوله: «إن سياسة الحكم المطلق القيصرى قد أدت إلى نتائج تتعارض

تماماً مع ما كان متوقعاً منها على كافة الأصعدة. وبدلاً من أن تنجح تلك السياسة في دمج التتر، أثارت في نفوس هؤلاء شعوراً عميقاً بالكراهية تجاه كل ما هو روسي.»

ولم يلبث رد الفعل من جانب البورجوازية التترية، المهددة في وجودها ذاته، طويلاً حتى بدأ يأخذ طريقه إلى حيز الوجود. إذ ظهرت، منذ شهر أغسطس عام ١٨٨٣، الحركة الإصلاحية الإسلامية التي تحمل اسم «حركة التجديد». وكان ذلك بعد مولد سلطان غالييف بثلاثة أعوام. والواقع أنه في الوقت الذي كان يُحتفل فيه في روسيا بالذكرى المئوية لفتح خان كريميه، في الأول من أغسطس عام ١٨٨٣، قام أحد المفكرين التتر الشبان من كريميه، ويدعى اسماعيل بك جاسبرينسكى، بإصدار العدد الأول من صحيفة (الترجمان) في باغتشيساراي، العاصمة القديمة للخان. وقد لعب جاسبرينسكى، رغم أن حياته لم تحظ باهتمام حقيقي من جانب معاصريه، روساً كانوا أم غربيين، دوراً تاريخياً عظيم الشأن. فهو لم «ينبه» المجتمع الإسلامي في روسيا من غفلته بالمعنى الحرفي للكلمة فحسب، بل أعاد الصلات الفكرية والسياسية بين التتر وسائر العالم الإسلامي، وهي الصلات التي انقطعت أواصرها عام ١٥٥٢ بعد سقوط قازان. وقد اختيرت لحظة صدور (الترجمان) بعناية فائقة، غداة الحرب الروسية - التركية عامي ١٨٧٧ - ١٨٧٨. وكانت الامبراطورية العثمانية قد شهدت بالفعل حتى ذلك الوقت، ولا ريب، بعض الانتكاسات، إلا أن التقهقر البطيء لجيوشها، والذي بدأ أمام فيينا في القرن السابع عشر، لم يصل إلى الأراضي الإسلامية في الامبراطورية. إذ كان الاعتقاد لا يزال سائداً حول المنعة التي تتمتع بها الجيوش الإسلامية والطابع الراسخ المميز للخلافة. إلا أن الروس الظافرين تقدموا، عام ١٨٧٨، حتى بلغوا إرزوروم، في قلب الأناضول ذاتها، وضربت طلائعهم الخيام في سان ستيفانو بالقرب من بيشيل - كوي الحالية، في مواجهة أسوار اسطنبول. وذاع صيت العثمانيين المدوي باعتبارهم جيشاً لا يقهر، في حين انكشف ضعف الإسلام للعيان في مواجهة الغرب «الكافر».

أثارت مرارة الهزيمة صحة داخل العالم الإسلامي. فمشاكل الإصلاح تتضاءل أهميتها بالطبع أمام استمرار الجيوش العثمانية في السيطرة على ميادين القتال. وعلى ذلك فقد أيقن المسلمون، أتراك تركيا وأتراك روسيا، من البسفور وحتى حدود الصين، بعد عام ١٨٧٨، أنه لا أمل في العالم الإسلامي في مجموعه دون تحول جذري في المجتمع، يواكبه انقلاب شامل في العقلية. فقد نشر جاسبرينسكى في أحد الأعداد الأولى من صحيفة (الترجمان) رسماً

كاريكاتورياً ساخرًا يمثل مقبرة ضخمة تحمل فيها شواهد القبور أسماء الدول الإسلامية وتاريخ غزوها أو ضمها على يد إحدى القوى الكافرة: بخارى، وداغستان، وشيرفان، والجزائر، وتونس، ومصر، وحيفا، وليبيا، والهند، وجاوة... وكانت الشواهد الخاصة بالامبراطورية العثمانية وإيران، وهى القوى «شبه المستعمرة»، محجوبة حتى المنتصف؛ ومن قبيل السخرية التاريخية اللاذعة، ظهرت أفغانستان بوصفها أحدث البلدان الإسلامية المستقلة.

كان اسماعيل بك جاسبرينسكى (جاسبرالى باللغة التترية) من النبلاء، تأثر فى رؤيته العالمية(*) Weltanschauung بنشأته الريفية، وتعليمه الدينى بإحدى مدارس تحفيظ القرآن فى كريميه، والتدريب العسكرى الذى تلقاه بإحدى الكليات البحرية فى موسكو، كما تأثر كذلك برحلاته إلى الخارج، فى كل من تركيا وفرنسا: حيث أمضى عامين فى باريس، فأجاد اللغة الفرنسية التى كان يتحدثها بطلاقة. كان من كبار السادة الإقطاعيين المؤيدين للملكية، وأحد رعايا رومانوف المخلصين، ورغم اتجاهاته الليبرالية والمعتدلة فى مجال السياسة، واقتناعه بالحركة التجديدية، إلا أنه كان من المؤمنين الصادقين. كما نظر بعين الاهتمام إلى المشاكل التى أرقت مضجع المسلمين آنذاك ولا تزال ماثراً لقلقهم فى وقتنا الحالى. خاض جاسبرينسكى طوال حياته ككاتب، ومؤرخ، وصحفى، وعالم فى أصول السلالات البشرية، وتربوى، ورجل سياسة فى آن واحد، كفاحاً متقدماً من أجل نهضة الإسلام وإحياء الحركة التركية. والواقع أنه هو الذى أسس كريميه، وهى من البلدان التى تتمتع بمناخ قريب من مناخ البحر المتوسط، أو هى «كوت دازور روسيا» التى استعمرها الروس بصورة مكثفة. وقد تضائل عدد المواطنين المسلمين فيها، منذ نهاية القرن الثامن عشر، حتى صاروا مجرد أقلية ضئيلة معزولة وسط الروس، لا تتجاوز نسبتها ٢٥٪ من العدد الإجمالى للسكان، ولا أمل لها فى البقاء إلا من خلال الارتباط الوثيق بالجماعات التركية الأخرى فى الامبراطورية. وقد بدا جاسبرينسكى، بنقله مذاهب السلافوفيل إلى الإطار الإسلامى، داعياً مخلصاً إلى الجامعة التركية، يهتم بمسلمى روسيا فى مجموعهم أكثر من اهتمامه بالتر مواطنى كريميه على وجه الخصوص. فعلى مدى خمسة وعشرين عاماً، كان يعرض فى صحيفته (الترجمان) لمذهب يلخص شعاره: (وحدة اللغة والفكر والعمل - Dilde, Fikirde, iste bir-lik)، وينادى بوحدة جميع الشعوب التركية فى روسيا تحت ظل الرعاية الروحية لتركيا، تجمعها

(*) رؤية عالمية (نظرة ميتافيزيقية للعالم مرتبطة بمفهوم الحياة، وقد اشتهر بها الفلاسفة الألمان الرومانسيون). (المترجمة).

لغة مشتركة (اللغة التترية المستخدمة في كرميه بعد إدخال التعديلات الضرورية عليها)، وثقافة إسلامية مجددة من خلال اتصالها بالغرب. عبر النموذج التركي لا الروسى. وقد أدرك جاسبرينسكى استحالة قيام نهضة قومية دون إصلاح جذرى للنظام التعليمى، لا سيما استحداث نظام صوتى للقراءة وتدریس المواد العلمانية. وتركزت جهوده الأساسية على إنشاء مدارس جديدة، وإعادة تنظيم المنشآت القديمة. وكانت تلك النظريات الخاصة بالجامعة التركية تتفق إلى حد كبير مع تطلعات البورجوازية التجارية فى قازان، حيث قدمت لها الأساس الأيديولوجى الذى تستند إليه فى تصديها للمنافسة الروسية. ومن هنا كان حماسها لتبنى ذلك البرنامج الذى وضعه لإصلاح النظام التعليمى والذى أحرز نجاحاً تاماً.

وهكذا أصبح هناك فى روسيا، عام ١٩١٦، أكثر من ٥٠٠٠ مدرسة جديدة معدلة، بخلاف المنشآت ذات الطابع التقليدى (القديمة). وكان فى قازان وحدها عشر مدارس ثانوية، بالإضافة إلى أحد عشر كُتّاباً أو مدرسة ابتدائية، وأربع عشرة مدرسة روسية-تترية. واشتهرت بعض المدارس الجديدة مثل المدرسة «الحسينية» فى قازان، و «المحمدية» فى أوروبورج، و «العلية» فى أوفاء، و «الرسولية» فى ترويتسك، بما تقدمه من تعليم «علمانى»، باعتبارها من أفضل المنشآت التعليمية فى العالم الإسلامى. وأدت هذه الجهود غير العادية، التى شاركت فيها بفعالية الغالبية العظمى من الطبقة البورجوازية ورجال الدين، إلى الارتقاء بالمستوى الثقافى للشعب التترى بشكل ملحوظ. ففى عام ١٨٩٧، بلغت النسبة المئوية للتتر الملمين بالقراءة والكتابة فى «حكومة» قازان ٢٠,٤ ٪، فى مقابل ١٨,٣ ٪ فقط عند الروس. وفضلاً عن ذلك، فقد أصبحت قازان بعد عام ١٩٠٥، ورغم تضائل دورها الاقتصادى، عاصمة الفكر الحقيقية للإسلام فى روسيا، لتنافس بذلك اسطنبول والقاهرة وبيروت؛ وامتد إشعاعها الثقافى خارج حدود بلاد التتر ليصل إلى الأقاليم الإسلامية فى الامبراطورية قاطبة.

وسرعان ما تجاوزت حركة الإصلاح التعليمى الإطار الضيق للعملية التعليمية لتحديث أثرها العميق على جميع مناحى الحياة: حيث شملت الدين، والعادات والتقاليد، وتحرير المرأة، والأدب. وعلى الرغم من الموقف العدائى الذى اتخذته السلطات الروسية فى بلاد التتر، والمقاومة الضارية من جانب المحافظين، إلا أن النصر كان حليف التجديد. إذ لم يعد دعاة التمسك بالتقديم يمثلون أية قوة سياسية عشية ثورة فبراير ١٩١٧. بيد أن حركة الإصلاح لم تكن سوى الجانب الدفاعى لرد الفعل الإسلامى فى مواجهة الضغوط الروسية. وأدركت

البورجوازية التتيرية أن نجاحها في المقاومة يقتضى منها مواجهة «الامبريالية» الروسية بنوع آخر من «الامبريالية». وكان عليها أن تتجاوز حدود بلاد التتر لتبسط نفوذها على جميع الشعوب التركية في روسيا من خلال الاستحواذ على الأسواق الإسلامية. والواقع أنها لم تكن تملك، في مواجهة منافسيها الروس، سوى وسيلة واحدة، هي وشائج اللغة ووحدة العقيدة. ولعل هذا هو السبب الذي يعزى إليه اهتمامها البالغ أكثر من أى وقت مضى، بدءاً من عام ١٨٨٠ وما بعده، بنشر أيديولوجية الجامعة التركية بين المسلمين في روسيا، وتشجيع النهضة الإسلامية الشاملة. ولم يحدث تعارض بين التيارين، الجامعة التركية والجامعة الإسلامية، على نحو ما حدث في تركيا، نظراً لما يربطهما من صلات وثيقة.

والى جانب إصلاح النظام التعليمى، تصدى دعاة التجديد للهجوم على مصدرين آخرين لتخلف الإسلام، وهما المدارس الفلسفية الشهيرة التى انتهجت نهج العصور الوسطى فى التدريس، وكانت تفرض على المؤمنين الطاعة العمياء لسلطة الأكبر سناً، والطابع القديم المهجور للغات الأدبية التركية التى لا يمكن سوى للمثقفين الذين يجيدون اللغتين العربية والفارسية سبر أغوارها. كما سعى الإصلاح الدينى، فى مرحلته الثانية، إلى مقاطعة الحركة التقليدية المحافظة وإلى إكساب الإسلام القدرة على البقاء فى عالم تسيطر عليه التقنية الحديثة. وقد عكف رواد هذا الإصلاح، علماء اللاهوت التتر شهاب الدين مرجانى ١٨١٨-١٨٩٩، وعبد القيوم ناصرى (١٨٢٥-١٩٠٢)، وموسى جبار الله بيجى (١٨٧٥-١٩٤٩)، على مشكلة التخلف الفكرى للإسلام، وسعوا إلى علاج ذلك بالعودة إلى الليبرالية الفكرية. واستندت جهودهم بصفة رئيسية إلى دحض مذهب اليقينية^(*) والنزعة الظلامية،^(**) والتنديد بالانتقياد الأعمى للسلطات التقليدية. وكانوا من بين المفكرين المسلمين الأوائل الذين نادوا بحق كل مؤمن فى البحث فى القرآن والأحاديث عن إجابة لما يدور فى ذهنه من أسئلة فى المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية. كما أثروا تأثيراً بالغاً على تطوير الحركة الوطنية. إذ يعزى إلى هذه الحركة، غير المعروفة فى الغرب والتى يجهلها المؤرخون المسلمون أنفسهم، الفضل فى أن الحركة العلمية الإسلامية لم تعد تشكل عقبة تعترض طريق التقدم، بل أصبح الطريق ممهداً أمام الإصلاحات فى ميادين أخرى، مثل اللغة والثقافة

(*) يقينية (مذهب فلسفى قائل بأن قوى الإنسان العقلية قادرة على بلوغ الحقيقة إذا اعتمد على هذه القوى بطريقة منهجية) (الترجمة).

(**) ظلامية (نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة) (الترجمة).

والتعليم، والتنظيم السياسى فيما بعد.

وجر الإصلاح السياسى وراء حملات جدلية عنيفة، كما أدى فى بداية القرن العشرين، إلى إحداث انشقاق عميق فى المجتمع الإسلامى، وسرعان ما تحول ذلك الانشقاق، الذى اقتصر فى البداية على الجانب الروحى وحده، إلى صدع سياسى قسّم رجال الدين المسلمين إلى معسكرين معادين، الجناح الليبرالى من جهة، وهو الجناح التجديدى المحبذ لإجراء إصلاحات والذى ضم فيما بعد تكتلات سياسية تقدمية أو ثورية، والتقليديون القدماء الذين رفعوا راية الجهاد فى منظمات اليمين المحافظة من جهة أخرى.

وكانت المرحلة الثالثة التى تحققت بفضل الإصلاح الدينى محاولة لإحداث تحول جذرى فى الثقافة الإسلامية التقليدية. وقد بدأت بإصلاح اللغات الأدبية المستخدمة من قبل المسلمين فى الامبراطورية الروسية. فحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان هؤلاء يستخدمون اللغة العربية والفارسية، إلى جانب لغة معقدة ومصطنعة، هى خليط من التشاغاتاى واللغة التترية لأهل قازان؛ لم يكن يجيدها سوى نخبة من المثقفين. ومن ثم، فإن قوام الإصلاح كان جعل الثقافة فى متناول عامة الشعب عن طريق استحداث لغات أدبية حديثة تستند إلى لهجات حية. فقد ظهرت، حوالى عام ١٨٧٥ وفى وقت متزامن تقريباً، اللغات الأدبية التترية والأذرية والكازاخستانية بفضل جهود كوكبة من علماء اللغة والمهتمين بالأدب، مثل عبد القيوم ناصرى فى بلاد التتر، وحسن ما ليكوف زريادى فى أذربيجان، وإبرائى التنصارين وأبى كنعانبىيف فى فيا فى كازاخستان. وكان الإنجاز الذى تحقق عظيماً، فقد شهدت الأعوام الأولى من القرن العشرين ظهور أدب إسلامى حديث يختلف عن الأدب التقليدى، أطلق عليه اسم «الأزاهير والبلابل»، استُخدم بلا تردد وجاء تلبية لرغبات واحتياجات الإنتلجنسيا الناشئة الجديدة، التى كانت تناضل من أجل الحرية الدينية، والإصلاحات الاجتماعية، والمساواة مع الروس فى الحقوق وتحرير المرأة المسلمة، ثم الحكم الذاتى أو الاستقلال السياسى اعتباراً من عام ١٩٠٥.

أما المرحلة الرابعة للمذهب للإصلاحى الجديد، وهى أقلها حظاً من حيث النجاح، فقد كانت محاولة لإصلاح السياسى. إذ نشأت النزعة القومية السياسية، فى روسيا كما فى غيرها من بلدان العالم الإسلامى، عن الرغبة فى استرداد السلطة المفقودة، وتحقيق المساواة مع الأوروبيين فى الحقوق الفردية، تمهيداً للحصول على الحكم الذاتى أو الاستقلال فى نهاية المطاف.

وكانت الأمة الإسلامية في روسيا تستند إلى أساس مزدوج: ديني عرقي - وإسلامي تركي. وخلافاً للأوضاع السائدة آنذاك في تركيا والبلدان العربية، لم يكن ثمة صراع قائم بين الجانبين الديني والقومي. فقد ضمت «الأمة الإسلامية» جميع الأتراك المسلمين جنباً إلى جنب مع المسلمين غير الأتراك، وإن كان تأثيرهم عميقاً بالثقافة واللغات التركية، مثل أهل طاجيكستان في آسيا الوسطى، أو الداغستانيون في شمال القوقاز. إلا أنه قد استثنى من ذلك الأتراك غير المسلمين، مثل التشوقاشيين أو الياقوتيين.

كانت البورجوازية التتارية في القولجا هي أول من بادر إلى إنشاء حركة سياسية؛ غير أن التتر قد اهتموا، من منطلق سعيهم إلى توحيد المجتمع الإسلامي داخل امبراطورية القيصرية كأمة واحدة، بإضفاء صبغة الجامعة الإسلامية على هذه الحركة. وفي حين كانت الأيديولوجية الدافعة لتلك الحركة ذات طابع ليبرالي، فإن أهدافها ومناهجها قد اتسمت بالاعتدال. وكان التتر يدركون أن الإسلام أضعف من أن يمكنه الوقوف أمام امبراطورية القيصرية في مواجهة سافرة. ومن ثم فقد أظهر زعماء الحركة، وهم إسماعيل جاسبرينسكى من كريميه، وزملاؤه التتر صدرى مقصودى، ويوسف أكتشوراوغلو، وعبد الرشيد إبراهيموف، وماردان تويتشيباشى من أوزير، حتى عام ١٩٠٥ على الأقل، الاعتدال والولاء تجاه الدولة الروسية. وكان الأمل يراودهم في حل جميع مشاكلهم في إطار النظام الملكى بالتعاون مع الإدارة القيصريّة تارة، ومع الأحزاب السياسية الروسية التي تميل إلى الاعتدال تارة أخرى. ولم تتجاوز مطالبهم السياسية المساواة مع الروس في الحقوق الشخصية، ومع اعتقادهم بأن مقاطعة امبراطورية القيصرية لن تؤدي إلا إلى الإضرار بالمسلمين، فإنهم كانوا يؤمنون في المقابل بأن التعاون الصادق والدائم بين روسيا والعالم الإسلامي من شأنه أن يحقق صالح الإسلام.

إلا أن الموقف قد تبدل تماماً بهزيمة روسيا عام ١٩٠٥. فقد أحدث انتصار اليابان، وهي قوة آسيوية، هزة نفسية عنيفة في أرجاء الامبراطورية، حيث أثبت أن روسيا ليست بالدولة التي لا تقهر. ومن ثم فقد هبت الشعوب الخاضعة للامبراطورية، بما فيها الشعوب الإسلامية، يحدوها الأمل في الثأر والتحرر. وهكذا فقد شهد ذلك العام، عام ١٩٠٥، البداية الحقيقية للحياة السياسية لدى المسلمين في روسيا، كما ظهرت فيه للمرة الأولى المطالب الوطنية على نطاق جماعى، وإن كانت لم تزل متواضعة بعد، وتعاقت المؤتمرات الواحد تلو الآخر. فقد انعقد سراً في نيجنى - نوفجورود في شهر أغسطس من ذلك العام المؤتمر الأول للمسلمين، وشارك فيه

بضع مئات من المندوبين التتر. وناقش المؤتمر مطالب تتعلق بالحقوق المدنية الفردية، والمساواة المدنية مع الروس، إلى جانب عرض بالتعاون مع الأحزاب الليبرالية الروسية، المعروفة باسم أنصار أكتوبر. وقد قرر المؤتمر عقد «اتفاق إسلامي»، يُفتح باب الانضمام إليه أمام المسلمين من جميع أنحاء الامبراطورية. وفي ١٣ يناير ١٩٠٦، انعقد مؤتمر إسلامي ثانٍ، في إطار من السرية كذلك، في مدينة سان بيترسبورج، حضره نحو مائة من ممثلي التتر وأهالي كريميه والقوقاز وكازاخستان. وتقرر في ذلك المؤتمر التعاون في المجال السياسي مع حزب الدستوريين الديمقراطيين، وكان أكثر ميلاً نحو اليسار إلى حد ما من حزب أنصار أكتوبر المؤلف من ممثلي البورجوازية الروسية الراقية. وفي أغسطس من عام ١٩٠٦، جرى تنظيم مؤتمر ثالث، رسمي هذه المرة، في نيجنى-نوفجورود. واشترك في هذا المؤتمر مائتان من المندوبين. وقد ناقش المؤتمر مطالب تتعلق بالحرية الدينية وحرية التعليم. كما تقرر كذلك تحويل الاتفاق الإسلامي إلى حزب سياسي. إلا أن وحدة الأمة قد تزعزعت أركانها بظهور اليسار الإسلامي.

كان إنشاء الاتفاق الإسلامي هو المحاولة الوحيدة لتوحيد الشعوب الإسلامية في روسيا تحت لواء التتر. واستند نجاح ذلك الاتفاق إلى التعاون بين البورجوازية الإسلامية والبورجوازية الليبرالية الروسية ممثلة في حزب الدستوريين الديمقراطيين. إلا أن المؤسف أن الإدارة القيصرية، وكذلك الليبراليين الروس، لم تحاول الاستجابة للطلبات المقدمة من جانب المسلمين، ومن هنا كان الانهيار المأساوي السريع للاتفاق. إذ لم يؤخذ أى من الطلبات المقدمة من مندوبيه في الدوما^(*) بعين الاعتبار، وفي عام ١٩٠٨، قررت اللجنة المركزية للاتفاق حل الحزب. وتخلّى المعتدلون بدورهم، من منطلق اقتناعهم باستحالة تحقيق أية إصلاحات بالوسائل القانونية في إطار النظام القيصرى، عن كل أمل في الاتفاق مع الجناح الليبرالى الروسى. ومن ثم فقد هاجروا بأعداد كبيرة إلى تركيا. وفي روسيا ذاتها، انتقلت إدارة التكتلات السياسية إلى أيدي عناصر شابة، أكثر عداءً لروسيا وللروس، وتنادى بالشعارات الاشتراكية. إلا أنه لم يتم التخلّى تماماً عن حلم إنشاء حركة موحدة للجامعتين الإسلامية والتركية. إذ ظهر ذلك الحلم من جديد، عام ١٩١٧ في أعقاب سقوط النظام الملكى، في البرامج الخاصة بواضعى نظرية الشيوعية الوطنية الإسلامية.

لم يكن المذهب الإصلاحى المعتدل الجديد، ولعله كان أشهر ردود الفعل من جانب الصفوة

(*) دوما (جمعية وطنية في عهد القيصر نقولا الثانى) (المترجمة).

الإسلامية الليبرالية في مواجهة سيطرة الغرب ممثلة في روسيا، هو الوحيد من نوعه. فقد ظهرت مذاهب أخرى إلى حيز الوجود، انبثقت من المحافظين والأصوليين، ويتعميم أكبر من جميع أولئك الذين أدركوا أن التواطؤ مع سلطة «الكفرة» أياً كانوا، لا يمكن أن يؤدي، في نهاية المطاف، إلا إلى القضاء على الإسلام. ويمكن القول إن روح الله خوميني كان له في القوقاز وفي تركستان آباء رويون لم يكونوا لينكروا عليه ثورته.

بدأت المقاومة المسلحة للغزاة الروس باسم الدفاع عن العقيدة منذ عهد قديم. وتعددت محاولات المسلمين في بلاد التتر وشكيريا وكازاخستان لرفع راية التمرد. ولم تلق الثورات التي تزعمها قادة تقليديون، - كانوا في كثير من الأحيان ينحدرون من الملوك التشانجيسيد الذين سلبوا ملكهم وكانوا يسعون إلى استرداد نفوذهم الشخصي - تأييداً شعبياً، بل تعرضت للقمع بعنف وشدة لا مثيل لهما.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، واجه الروس شكلاً جديداً تماماً من أشكال المقاومة، في صورة حركة شعبية تزعمتها الطرق الصوفية التي كانت تناضل لإرساء دعائم ملك الله على الأرض. وتمثلت المرحلة الأولى من هذه الحركة في الجهاد المقدس، أو الغزوات التي أعدت في مواجهة سيطرة «الكفار» وضعاف النفوس من المسلمين الذين سولت لهم أنفسهم التواطؤ معهم. وكانت الطرق الصوفية التي ظهرت في العصور الوسطى (ولا تزال حتى وقتنا هذا) مجتمعات مغلقة، شبه سرية، تقوم على مبدأ المسارة^(*)، ويستند هيكلها إلى تنظيم دقيق، يقضى بالخضوع والإذعان التام من جانب المريدين تجاه معلمهم من الشيوخ أو المرشدين. واتسمت الحرب التي خاضوها ضد الغرباء، أي الانجليز في شمال الهند، والفرنسيين في الجزائر، والهولنديين في جاوة، والصينيين في سنكيانغ، والروس في القوقاز، بروح شعبية صارمة، ومناهضة للإقطاع في كثير من الأحيان طالما نجح الغزاة الأوربيون في اختيار طبقة النبلاء من ملاك الأراضي الوطنيين. وكانت تلك الحرب أكثر تنظيماً إلى حد كبير من الثورات الفوضوية للسادة الإقطاعيين في القرون الماضية.

وفي القوقاز، نشأ تقليد الحرب المقدسة في بلاد تشيتشان منذ نهاية القرن الثامن عشر وامتد دونما توقف تقريباً حتى سقوط نظام حكم آل رومانوف، على يد طريقتين هما الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية، وكانتا تناضلان، في ذات الوقت، ضد الصينيين، والانجليز في

(*) المسارة (احتفالات كانت تقام لإيقاظ عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة) (الترجمة).

الهند والهولنديين فى جاوة. وكان أول شيوخ الصوفية الذين نادوا بالجهاد ضد الروس من النقشبنديين فى تشيتشان، وهو الإمام منصور عشرةمة. إذ نجح المقاتلون من أتباعه، عام ١٧٨٥، فى تطويق لواء روسى وإبادته بالكامل فى مضائق نهر سونجا، فألحقوا بجيوش الامبراطورة كاترين الثانية التى كانت لا تقهر حتى ذلك الوقت أسوأ هزيمة عرفتتها فى تاريخها. وسرعان ما اجتاحت الحرب المقدسة التى أعلنتها الإمام منصور جميع أنحاء شمال القوقاز، واستغرق إخمادها ستة أعوام. إلا أن الروس نجحوا أخيراً فى أسره عام ١٧٩١ بميناء «عنابة» العثمانى، على نهر «الكوبان». وقضى نحبه فى العام التالى، بعد أن أدين بتهمة التمرد والخيانة وحُكم عليه بالسجن المؤبد، فى سرداب بحصن «شلوسبورج». أما فى شمال القوقاز، التى كانت واقعة تحت السيطرة الروسية آنذاك، فقد تعرضت الطرق الصوفية لحملة قمع شرسة، اختفت على أثرها الطريقة النقشبندية من خريطة القوقاز على مدى ثلاثين عاماً. وكانت هذه هى نهاية تلك الحرب المقدسة الأولى ضد الامبراطورية الروسية.

إلا أن الجهاد المقدس استثنى مرة أخرى عام ١٨٢٤ على يد الطريقة النقشبندية. فقد امتد ليشمل أنحاء شمال القوقاز واستمر حتى عام ١٨٥٩، عندما اضطر الشيخ شامل، ثالث الأئمة النقشبنديين، إلى الاستسلام فى نهاية الأمر مع آخر مجموعة من مريديه البالغ عددهم مائتين. وكانت هذه هى أطول مقاومة يبديها المسلمون فى مواجهة الغزاة الروس، كما مثل فتح ذلك الإقليم المحدود نسبياً عبثاً لا قبل لامبراطورية القيصرية به، فقد ألحق الدمار بالبلاد اقتصادياً وكان بمثابة الضربة القاضية التى قضت على هيبة النظام. كما كان الجهاد الذى اجتاحت منطقة القوقاز دليلاً أثبت لجميع مسلمى الامبراطورية وللشعوب الأخرى التابعة لها - من بولندا وفنلندا بل وحتى أوكرانيا - إمكانية المقاومة المسلحة لسلطة تلك الامبراطورية الضخمة التى كان الاعتقاد السائد حتى ذلك الوقت هو أنها لا تقهر. وفى أعقاب الهزيمة التى منى بها الشيخ شامل، احتل الروس شمال القوقاز بأكمله، ودخل النقشبنديون فى حالة بيات شتوى. فقد تم ترحيل بعض شيوخهم إلى سيبيريا، وهاجر البعض الآخر إلى الامبراطورية العثمانية، بينما احتفى آخرون بالجبال حيث أصبحوا من الأبارك أو اللصوص الشرفاء، فى نقطة وسط بين روين هود وقطاع الطرق، يسطون على «الكفرة»، ويناوشون وبيتزون «المسلمين المنافقين» الذين سلموا بالنظام الجديد للإدارة الروسية. وبنهاية ذلك القرن، أصبحت ظاهرة الأبارك هذه وياًً حقيقياً استشرى فى القوقاز.

إلا أنه ثمة طريقة صوفية أخرى، وهى القادرية، ضربت بجذورها فى بلاد تشيبتشان بوسط القوقاز، بعد أن لحقت الهزيمة بالشيخ شامل ودانت السيطرة «للكفرة» الروس. وبدأ القادريون، على أية حال، أكثر زهداً فى متاع الدنيا من النقشبنديين وأكثر اهتماماً بالسعى على طريق الصوفية حباً فى الله من اهتمامهم بإقامة دولة ثيوقراطية أو بالجهاد المقدس، إلا أنه سرعان ما أجبرتهم الإدارة الروسية، بكل ما شأبها من تشدد وفساد واستبداد، على تبنى نهج أكثر تطرفاً. وبعد الاعلان عن هذه الطريقة باعتبارها من الطرق غير المشروعة عام ١٨٦٠ تم إلقاء القبض على زعيمها كونتا الحاج كيتشيف وإيداعه إحدى المصححات النفسية (ويا للعجب!)، تحولت الطريقة إلى منظمة سرية حيث أصبح التأمل الصوفى مرادفاً غريباً، وإن كان منطقياً، للإرهاب الفردى. وفى عامى ١٨٧٧-١٨٧٨، وحد أتباع الطريقتين صنفهم من خلال دورهم الفعال فى الثورة الكبرى التى نشبت فى داغستان. ومرة أخرى، كما فى عامى ١٧٩١ و١٨٥٩، اشتد القمع ضراوة على نحو غير مسبوق واكتظت السجون فى سيبيريا بالشيخ والمريدين الصوفيين. ولم يقدر للبعض منهم، مثل الشيخ النقشبندى أذن حاج، الخروج منها إلا عام ١٩١٧ حيث بدأوا من جديد «الجولة الثالثة» من الجهاد المقدس ضد الروس، فى مواجهة متزامنة مع جيوش «دينيكين» البيضاء والجيش الأحمر. ولم ينجح البلاشفة فى إغراق تلك الثورة الأخيرة فى حمامات الدم إلا عام ١٩٢٣.

وفى آسيا الوسطى، تصدت الطرق الصوفية للغزو الروسى، فكانت هذه هى المقاومة الوحيدة التى واجهتها جيوش القيصر ألكسندر الثانى فى طريقها. وتزعم ثورة المسلمين فى وادى «تشيرتشيك» عام ١٨٧١ أحد الشيوخ النقشبنديين، وهو الخوجة إيشان من كولكارا؛ فى حين كان على رأس المقاومة التى أظهرتها القبائل التركمانية حول جوك - تيب فيما بين عامى ١٨٧٩-١٨٨١ أحد الشيوخ النقشبنديين، وهو كريان مورات، وفى عام ١٨٩٦، كان زعيم الثورة فى أنديجان بوادى الفرغانة، وهو الإيشان محمد على من مينتوب الذى شنقه الروس، من الشيوخ النقشبنديين كذلك.

إلا أنه عشية انهيار الملكية الروسية، كانت الثورة التى انضوت تحت لواء الجهاد قد باءت جميعها بالفشل. وهكذا انتهى الحل الذى وضعه الأصوليون، وهو انتزاع الاستقلال بالقوة المسلحة، إلى فشل ذريع، وإن كان وقتياً فحسب، حيث استؤنف من جديد غداة انتصار البلاشفة فى القوقاز وفى تركستان.

غير أن روسيا الامبريالية كانت، عشية الثورة، أقوى كثيراً من أن يتم مهاجمتها وجهاً لوجه. وفي الوقت ذاته، أي عام ١٩١٤، وإزاء مشاعر الاستخفاف العدائي من جانب الروس، تخلت البورجوازية الليبرالية الإسلامية عن آمالها في التوصل إلى تسوية، على أساس تقاسم السلطة إما مع الإدارة أو مع أحزاب المعارضة الروسية المعتدلة. ولم يعد أمام أولئك المسلمين الذين يفكرون في البقاء الجماعي لأمتهم سوى الحل الثالث، أي الثورة.

كان المسلمون في روسيا هم أول من بادر إلى اكتشاف الماركسية وإلى التحمس لها، قبل الأتراك والإيرانيين والعرب بأعوام طويلة. وكان التتر في القوقاز والأذربيون هم الذين أرشدوهم إلى الطريق. غير أن تاريخ الجماعات الماركسية الإسلامية لا يزال فيه الكثير مما يتعين كتابته. ومن شأن ذلك أن يثير اهتماماً بالغاً، إذ أن زعماء تلك الجماعات قد سعوا، منذ البداية، إلى غرس الأفكار والبرامج الماركسية الأوروبية - سواء كانت فرنسية أو ألمانية - في مجتمعهم بدلاً من نظيرتها الروسية. ولعل في ذلك ما يفسر لنا بسهولة لماذا تحاشى المؤرخون السوفييات دائماً الإشارة من قريب أو بعيد لتلك الجماعات.

تأسست أول جماعة ماركسية إسلامية في «باكو» عام ١٩٠٤، حيث قام بعض المشتغلين الشبان من أصل أرستقراطي أو من المنتمين للطبقة البورجوازية الراقية، في وقت سابق على ظهور البورجوازية الوطنية المعتدلة، بإنشاء حلقة للدراسات السياسية. وكان من بين هؤلاء محمد أمين رسول زاد الذي انشق في وقت لاحق على الاشتراكية وأصبح، عام ١٩١٩ - ١٩٢٠، رئيساً لجمهورية أذربيجان المستقلة؛ وناريمان بك ناريمانوف، الذي أصبح فيما بعد الأمين الأول للحزب الشيوعي في أذربيجان وتوفي على فراشه بهدوء عام ١٩٣٢، رغم وصفه بلقب «عدو الشعب» بعد وفاته؛ ومشادي عزيز بكوف، الذي مات رمياً بالرصاص على يد الانجليز عام ١٩١٨؛ والسلطان مجيد أفنديف وداداش بنية زاد، اللذان تعرضا للتصفية الجسدية في عهد ستالين عام ١٩٣٨، وآخرون غيرهم. وكانت هذه الجماعة تتبع تنظيم «باكو» التابع بدوره لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي المعروف باتجاهه البلشفي. وإبان ثورة عام ١٩٠٥، تحولت تلك الحلقة الدراسية إلى حزب سياسي، وهو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الإسلامي المعروف باسم «الهمة» والذي كان يضم بين صفوفه بعض العمال الشرفاء. وظل حزب «الهمة» حتى عام ١٩١٢، وهو التاريخ الذي أوقف فيه عن ممارسة نشاطه بقرار من الشرطة، يحتل مكانة هامة في حياة المجتمع الإسلامي فيما وراء القوقاز، بما كان ينظمه من إضرابات وما كان

يصدره من صحف عديدة، تنشر أفكاراً ثورية تدعو إلى الماركسية بدرجة أو بأخرى، إما وسط التجمعات العمالية في مجال الصناعات البترولية، أو بين أوساط المثقفين على أقل تقدير. كما لعب المجاهدون من هذا الحزب دوراً لا يستهان به في ثورة عام ١٩٠٨-١٩١١ التي فجرت حمامات الدماء في تبريز، عاصمة أذربيجان الإيرانية.

يُعتبر حزب «الهمة»، الذي كانت عضويته قاصرة على المسلمين وحدهم، أحد الاستثناءات بل والمفارقات في تاريخ الحركة الاشتراكية في روسيا. إذ كان التصريح بإنشائه من جانب البلاشفة الروس يعنى، للمرة الأولى بل وربما الأخيرة، التسليم بوجود تنظيم ماركسي يستند إلى أساس وطني بل وحتى ديني. إذ لم يسمح هؤلاء بعد ذلك مطلقاً بإقامة مثل هذه التنظيمات التي يتعارض وجودها ذاته مع جميع مبادئ الحركة الدولية البروليتارية، تلك المبادئ ذات القدسية الخاصة. فعندما تقدم الماركسيون اليهود في «بوند» بطلب مماثل، أي إنشاء حزب ماركسي تقتصر عضويته على اليهود وحدهم، رفض لينين، يؤيده في ذلك جميع رفاقه، تلك المزاعم وقابلها بسخط شديد. إذ لم يُسمح بظهور حزب «الهمة» إلى حيز الوجود إلا بسبب الهيمنة التامة للأرمن على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي فيما وراء القوقاز. وإزاء العداء التقليدي بين المسلمين الأتراك والأرمن، كان المسلمون الأتراك يميلون إلى الخلط. أياً كانت الأسباب الداعية إلى ذلك. بين الاشتراكية الماركسية من جانب والنزعة القومية الأرمنية من جانب آخر. ومن هنا فإن المبرر الوحيد لوجود حزب «الهمة» كان اجتذاب المسلمين إلى المذهب الاشتراكي. ورغم اضطلاع الحزب بدوره على هذا النحو، إلا أن النجاح الذي أحرزه ذلك الحزب الاشتراكي الإسلامي الأول من نوعه قد أثار الشكوك من حوله، رغم ما كان يتسم به برنامجه وأساليب عمله من التزام رسمي صارم بالماركسية. إذ كان السواد الأعظم من زعمائه ومجاهديه من أصل غير بروليتاري بل بورجوازي أو أرستقراطي، هذا من جانب، والأهم من ذلك هو أنهم كانوا يسلكون دائماً مسلك الجناح اليساري الماركسي المتطرف من الحركة القومية الأذرية، وليس باعتبارهم طليعة للماركسية الدولانية(*) في المعسكر الوطني.

ومنذ عام ١٩٠٥، شهدنا في «ياكو» تلك المعضلة التي لم تجد لها حلاً، والتي تمزق أوصال الحركة الشيوعية الدولية منذ ستين عاماً، وهي التساؤل المطروح: عندما تتحالف الماركسية والقومية: «من يدخل في عباءة الآخر؟»، أو «من يهيمن على الآخر؟» أو بالأحرى

(*) دولاني (نصير الدولانية وهي مذهب يسمو إلى تجاوز حدود الدول وإقامة اتحاد بين الشعوب والأمم) (المترجمة).

« من هو المستفيد، في المقام الأخير، من هذا التحالف المخالف للطبيعة؟ ». لقد نجح حزب «الهمة» في نشر الأفكار اللينينية داخل الأوساط الراديكالية في «باكو»، كما أتاح «إصابة» الثوريين المسلمين بعدوى الأفكار القومية الداعية إلى الجامعة التركية. فضلاً عن ذلك، فإنه على الرغم من هجوم أعضاء حزب «الهمة» على رجال الدين الشيعة وعلى «الرجعيين الكهنوتيين»، إلا أنهم لم يستبيحوا لأنفسهم على الإطلاق التهجم على الإسلام بأي شكل من الأشكال، فضلاً عن رفضهم الانفصال التام عن الحركة القومية.

ولعل الطابع المتقلب الذي كان يتسم به حزب «الهمة» يفسر لنا ما تعرض له جميع الزعماء الذين أرسوا، في عام ١٩٢٠، دعامة الحزب الشيوعي في أذربيجان، بإستثناء واحد وهو «ناريمان ناريمانوف»، من تصفية جسدية على يد ستالين خلال حملات التطهير الدامية في أعوام الثلاثينات باعتبارهم «قوميين بورجوازيين».

والأعجب من ذلك هو انتشار الأفكار الاشتراكية في إقليم فولجا الوسطى التتري. فقد تخرج من المدارس الثانوية الجديدة، ومن مدرسة المعلمين التتريّة، المعروفة باسم Tatarskaia outchitel'skaia chkola، التي أنشئت في كازان عام ١٨٧٦، وكانت مراكز للحياة السياسية الإسلامية، جميع رؤساء الأحزاب السياسية الوطنية تقريباً، سواء كانت ليبرالية أو اشتراكية. وقد جمعت الدائرة السياسية التتريّة الأولى، التي تألفت زهاء عام ١٨٨٥ على يد طلبة مدرسة المعلمين، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من الزعماء الليبراليين أو المثقفين الشبان الثوريين من أصل بورجوازي، مثل صدرى مقصودى، والاشتراكيين الثوريين فؤاد توكتار، وآياز إسحاقى، وش. محمد ياروف، وأ. دافلتشان وأ. فاهرتدان، والاشتراكيين الديمقراطيين ياما شيف وكولاهميتوف، وكلاهما بلشفى، وتيريجولوف، وهو من المناشقة. وقد قام هذا الأخير خلال بضعة أعوام بإصدار صحيفه سرية تحمل عنوان (الترقى)، وكانت تنشر الأوامر الصادرة عن الحركة القومية المتطرفة والراديكالية الثورية. وتحولت هذه الدائرة، في عام ١٩٠١، إلى تجمع يعمل من أجل إصلاح المدارس، وهو الذى انطلقت منه الحركة الإصلاحية بما خلفته من بصمات ثابتة على تطور الفكر السياسى والثقافى التتري بأكمله.

نشأت الحركة الإصلاحية (التي تستمد اسمها من اللفظ عربى الأصل «الإصلاح») عام ١٩٠٤ بين طلبة المدرسة «المحمدية» في قازان، وانتشرت في معظم المدارس الأخرى في قازان وأورونبورج وترويتسك وأوفا. والشبه كبير إلى حد العجب بين حركة الإصلاح و«ثورة»

الحى اللاتينى التى نشبت فى مايو ١٩٦٨. فقد بدأت هذه الحركة بطلبات متواضعة ومعقولة نسبياً تدعو إلى مراجعة المناهج الدراسية، وانتهت بندايات متفرقة ومطلقة العنان من أجل تغيير المجتمع الإسلامى واتخاذ إجراء مباشر ضد الإدارة القيصرية، والمسلمين المتحفظين، بل وحتى الإصلاحيين الذين رفضوا أن يكونوا من أتباعهم. وكان الكفاح من أجل تحقيق الإصلاحات الثقافية، من وجهة نظر الطلبة الإصلاحيين، جزءاً لا يتجزأ من النضال لنيل الحريات السياسية، وسرعان ما تحولت دعاواهم إلى حركة قومية واشتراكية، مناهضة بشدة لكل ما هو روسى ومتحفظ، وكانت هذه، على حد قول المؤرخ التترى «إبراجيموف»، «أكثر مظاهر الحركة الإصلاحية راديكالية وثورية». وواقع الأمر أن «الإصلاحيين» كانوا هم الورثة الشرعيين لدعاة التجديد الذين ظهروا فى منتصف القرن التاسع عشر، إذ لم يكن عليهم سوى تطوير تلك النظريات بنقلها إلى المجال السياسى. وعلى ذلك، فإنهم لم يرتبطوا عضواً بأى من الحركات الثورية الروسية، وإنما استلهموا منها على الصعيد التكتيكى. إلا أنهم لما لم يجدوا فى كتابات من سبقوهم من المجددين حججاً ثورية تبرر ما كانوا يطمحون إليه من إحداث انقلاب شامل فى المجتمع، اتجهوا إلى الماركسيين الروس والأجانب. وهكذا كانوا أول من بادر من المسلمين إلى نشر الأفكار الاشتراكية بين التجمعات التترية، وإلى محاولة القيام بعمل ثورى حقيقى يدعو إلى الإضراب، والتظاهر الجماعى، بل وحتى الإرهاب. وعندما لم تتحقق لهم النتائج المرجوة على نحو ملموس، تقوضت أركان حركتهم بعد عام ١٩٠٨ وبدأت تفقد طابعها السياسى بالتدريج. إلا أن هذه المحاولة لتحقيق صيغة مركبة تجمع بين التجديد والاشتراكية قد تركت آثاراً غائرة على الحركة القومية التترية. فقد كانت مصدراً مباشراً استلهمت منه التجمعات الاشتراكية الإسلامية غير الماركسية الأولى، مثل «بيريك» أو «تالنجتشى»، على نحو مباشر بدرجة أو بأخرى، وهى التجمعات التى ظهرت عام ١٩٠٦ وكانت ذات اتجاه اشتراكى ثورى وفوضوى. والأهم من ذلك أخيراً هو أن الغالبية العظمى من رؤساء اللجنة الاشتراكية فى قازان التى تأسست بعد فبراير عام ١٩١٧ - والتى أصبحت لجنة الحزب الشيوعى التترى فيما بعد - كانوا من المجاهدين الإصلاحيين القدامى. وعلى ذلك، فإن تأثيرهم بالأيديولوجية القومية فاق أى تأثير للماركسية الاشتراكية الديمقراطية الروسية.

كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى الماركسى الأرثوذكسى آخر الأحزاب التى ظهرت عند التتر. وشاب تطوره شىء من البطء، إذ اصطدم بسلبية البروليتاريا المحلية من جانب، ومناقسة

المذاهب الثورية التي بدا تأثيرها طاغياً في البداية على الإنتلجننتسيا الناشئة من جانب آخر. وخلافاً لما يؤكد بعض المؤرخين السوفييات، فإن الدور الذي لعبته البروليتاريا الثورية في قازان في الحركة الثورية الاشتراكية الديمقراطية كان متواضعاً إلى حد كبير. إذ لم تضطلع هذه البروليتاريا إلا بدور طفيف في الاضطرابات العمالية التي نشبت فيما بين أعوام ١٩٠٥-١٩٠٧، باستثناء مصانع «ألفوزوف» للمنسوجات التي كانت تضم آنذاك عدداً من العمال الأجانب على قدر من الأهمية النسبية. ولما كان العمال التتر لم ينجحوا في إنشاء تنظيم مهني مستقل، فإن تمثيلهم في الحركة النقابية التي بدأت في الانتشار في قازان بعد عام ١٨٩٨ قد جاء ضعيفاً، إن لم يحدث ذلك على الإطلاق، اللهم إلا في الجماعات السياسية اليسارية، رغم الجهود المبذولة من جانب تنظيم قازان التابع للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي والذي اهتم، منذ عام ١٩٠٢، ببث الدعاية الثورية في أوساط المسلمين.

إلا أن أول من يادر من التتر إلى الانضمام لصفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان من العمال، وهو «ظريف غالييف»، عضو بإحدى الدوائر الماركسية الروسية في مصنع «ألفوزوف» في الفترة من عام ١٨٩٣ وحتى ١٨٩٥. بيد أن أحداً لم يحذ حذو ذلك الرائد. إذ استغرق الأمر حتى عام ١٩٠٣ قبل أن تنشأ دائرة ماركسية بين عمال الطبع التتر في قازان، وطال بنا الانتظار إلى عام ١٩٠٥ حتى تشكلت خلية تترية خالصة تتبع حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي البلشفي في مصنع «ألفوزوف». كما اشترك عدد ضئيل من العمال التتر في نشاط الخلايا الاشتراكية الديمقراطية الروسية داخل بعض المصانع في قازان، إلا أن دورهم قد انطمس كذلك. وكان المشتغلون بالتجارة هم وحدهم من تمكنوا، عام ١٩٠٥، من إنشاء تنظيم مهني محلي، وهو التنظيم المعروف باسم «رابطة المشتغلين بالتجارة»، وكان سريراً في البداية، ثم اعترف به رسمياً في ١٨ نوفمبر ١٩٠٦؛ وقد أسهم إسهاماً فعالاً، بما أضافه من شعارات ذات طابع سياسي إلى قائمة مطالبه المهنية، في الحركة الثورية التي ظهرت في الأعوام ١٩٠٥-١٩٠٧. إلا أنه على الرغم مما بذله الاشتراكيون الديمقراطيون البلاشفة من محاولات للسيطرة على مقاليد القيادة فيه، ظلت سلطاته في يد الاشتراكيين المعتدلين. وبدأ من عام ١٩٠٧، تقوضت أركان تلك الحركة حتى اختفت تماماً قرابة عام ١٩١٤.

جاء التحام الإنتلجننتسيا الإسلامية بالاشتراكية الديمقراطية متأخراً إلى حد كبير. إذ لم ينضم المثقفون التتر إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلا بعد إنشاء لجنة قازان التابعة للحزب

العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في ديسمبر عام ١٩٠٢. وكان أول هؤلاء أحد الطلبة القدامى بمدارس قازان، اضطلع بتنظيم الدعاية داخل أوساط المسلمين، وهو «إبراهيم أهتموف»، الذي تحول، عام ١٩٠٥، ليصبح منشقياً ثم «مناهضاً للثورة» بعد أكتوبر ١٩١٧. وقد أدخل «أهتموف» في التنظيم صديقه «حسين ياما شيف»، سليل أسرة من التجار الأثرياء في قازان وخريج المدرسة المحمدية ومدرسة المعلمين الثورية. وكان «ياما شيف» أكثر رواد الماركسية الثورية نشاطاً وأجدرهم بالاهتمام، بل كان الوحيد الذي اضطلع داخل الحزب بدور تنظيمي، حيث عهد إليه على وجه الخصوص، بعد رحيل «أهتموف»، بمهمة الدعاية، والترجمة إلى اللغة الثورية ونشر الأدب الماركسي، وأخيراً تنظيم الخلايا العمالية الإسلامية.

كان التنظيم الاشتراكي الديمقراطي في قازان في أوج عنفوانه عام ١٩٠٥ يضم ٢٥٠ من الأعضاء منهم بضعة عشرات فقط من التتر الذين ينتمى معظمهم إلى أوساط المثقفين من أصل بورجوازي، ظلوا جنوداً مجهولين على مدى تاريخ الحركة الثورية. ويشير جميع المؤلفين الذين تناولوا بالدراسة أصول الشيوعية لدى المسلمين في روسيا إلى أنه ثمة عقبات عديدة أعاقَت تطور هذه الحركة حتى عام ١٩١٧. إذ أدى ضعف البروليتاريا بوجه عام والبروليتاريا الثورية على وجه الخصوص، فضلاً عن صعوبات الاتصال، إلى عرقلة عمل الحزب البلشفي. وعلى الرغم من أن بعض الأفراد المنعزلين، داخل أوساط العمال والانتلجنسيا الثورية، كانوا يعدون أنفسهم للعمل الثوري، إلا أن هذه النواة من البلاشفة المسلمين القدامى لم يتجاوز عددهم ستة أشخاص. وفي ديسمبر ١٩٠٥، بعد إسقاط التنظيم الاشتراكي الديمقراطي في قازان على يد الشرطة، تفرقت تلك القلة النادرة من الماركسيين التتر. وهكذا تلاشت كل الجهود المبذولة من جانب الحزب الروسي بغية بسط نفوذه على التجمعات الإسلامية.

بيد أنه كانت هناك محاولة أخيرة، عام ١٩٠٧، لإنشاء تنظيم ماركسي تترى. فقد أسس «ياما شيف» ومعه بعض زملائه، ومن بينهم «ج. سيف الدينوف»، مجموعة اشتراكية ديمقراطية شرعية، عرفت باسم «أورال تشيلار»، وكانت تضم البلاشفة والمناشفة على حد سواء. إلا أن الشرطة قامت بمصادرة الجريدة التي كانت تصدرها المجموعة باللغة الثورية تحت اسم «أورال» (صدر العدد الأول منها في ٤ يناير ١٩٠٧)، في شهر أبريل من نفس العام بعد صدور ثلاثين عدداً منها. وتفرق العاملون بالجريدة بين موسكو والدونيتز وياكو. وبعد وفاة «ياما شيف» عام ١٩١٢، لم يكن التنظيم البلشفي في قازان يضم، لحظة اندلاع ثورة فبراير

١٩١٧، يضم إلا الروس، باستثناء بعض القائمين بأدوار هامشية. وكان لذلك أهميته فى تاريخ الشيوعية الإسلامية بعد عام ١٩١٧. ولم يكن لزعمائه، سلطان «غالييف»، و «ملا نور فاهيتوف»، ورفاقهم، رغم كونه من التنظيمات الماركسية، صلات تنظيمية بالبلاشفة الروس، بل بالحركات الثورية القومية التترية وحدها. فقد أصبحوا الورثة الشرعيين للحركة الإصلاحية الجديدة، ولم تفلح الماركسية اللينينية الروسية التى اعتنقوها عام ١٩١٧ فى محو ذكريات القومية التركية من نفوسهم.

وهكذا لم يكن هناك، عشية الثورة البلشفية، فى الامبراطورية بأكملها سوى بضعة عشرات من المسلمين المقيدين بانتظام فى الحزب البلشفى. وظلت هذه الشخصيات ضعيفة باهته دون تأثير يُذكر على مدى الأعوام الحاسمة التى حددت مصير شعوبهم. ولم يظهر أى من الذين صاروا فيما بعد زعماء للأحزاب الشيوعية الإسلامية، لا سلطان غالييف ولا رفاقه، بين مجموعة البلاشفة القدامى.

ورغم قلة عدد المسلمين الماركسيين، إلا أن الأفكار الاشتراكية انتشرت انتشاراً كبيراً لتتغلغل فى جميع أوساط الإسلام الروسى. فقد أقبل الجميع، بما فى ذلك المحافظون المتشددون، على استخدام مصطلحات ثورية، والحديث عن «الصراع الطبقي» و «ديكتاتورية البروليتاريا»، بل والرغبة فى اعتناق الماركسية دون الاهتمام كثيراً بالمعنى الحقيقى للكلمة، ودونما معرفة بذلك الرجل الأسطورى رغم ذبوع شهرته، كارل ماركس (أو كاريل ماركيس كما تُنطق باللغة التترية).

وفضلاً عن ذلك، فقد كان البحث بين المسلمين فى روسيا عن ماركسيين ملتزمين بحق أمراً عديم الجدوى، لما كان يتسم به كفاحهم من طابع وطنى بحث بعيداً عن الجوانب الاجتماعية. إذ كان الهدف الذى يسعون إليه هو التحرر من سيطرة إحدى القوى الأجنبية - أى الروس -، لا محاربة عدو ينتمى إلى إحدى الطبقات الوطنية - أى التتر. فقد كان ذلك، بالنسبة للصفوة الإسلامية التقدمية التى كانت على استعداد، منذ تلك الفترة، لتقبل الاشتراكية، نموذجاً من نماذج التنظيم قبل أى شىء آخر، وليس مجموعة من النظريات القادرة على إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لمبادئ الدولانية البروليتارية. إلا أنه ثمة جوانب عديدة للماركسية بدت لهم ذات جاذبية خاصة.

الجانب الأول هو استخدام «التحرك المباشر» وأسلوب العمل التأمري السرى. فبحلول

عام ١٩١٧، كانت الحركات الاشتراكية الروسية قد أثبتت فعاليتها التنظيمية بالفعل. وقد بدا التحرك المباشر والعمل التأمري، بالنسبة للتجمعات الإسلامية الثورية ذات الاتجاهات التي قيل إلى الفوضوية أكثر من الماركسية، أدوات رئيسية في سبيل الاشتراكية، رغم لجوئها جميعاً إلى استخدام تلك الوسائل من قبيل الحفاظ على الهيبة والاحترام. إذ لم يكن هناك من مذهب سياسى آخر في هذه الفترة يمكنه منافسة الماركسية في ذلك الميدان. فقد أغفل الثوريون المسلمون ببساطة أن فعالية الجماعات الماركسية الروسية مردها ليس إلى أسلوب الإرهاب الذي أدانه البلاشفة باعتباره من الأساليب غير المجدية والتي تشكل خطورة، وإنما هي تعزى إلى النظام الحديدي والصرامة المذهبية التي لا تلين على نحو ما أثبتته تلك الجماعات. ومن ثم، فقد ظلت تنظيماتهم، حتى أكثرها راديكالية، تجمعات تفتقر إلى التجانس، ولا يحكمها تنظيم قوى، بل ويعوزها الحد الأدنى من النظام، ولا تسير وفقاً لبرنامج سياسى محدد؛ وإنما تم إستبدال ذلك أو الاستعاضة عنه بإثارة المشاعر بأساليب خطابية غنيقة. لكم كانت الشقة بعيدة بينهم وبين الخلايا الشيوعية الأولى، روسية كانت أم ألمانية أم بولندية ولعل في ذلك تفسيراً لما كان الزعماء الماركسيون الأوروبيون يكتونه تجاه تلك الاشتراكية الآسيوية التي كانت لاتزال بعد وليدة من مشاعر الشك والنفور. وليس ثمة ما هو أفضل في توضيح افتقار الاشتراكية الإسلامية فيما قبل عام ١٩١٧ للنضج تنظيمياً وأيديولوجياً من ذلك التنقل المستمر من جانب الزعماء الاشتراكيين والقوميين من معسكر إلى آخر. فقد كانوا ينتمون جميعاً إلى نفس الطبقة الاجتماعية، طبقة البورجوازية والأرستقراطية الراقية، فضلاً عن معرفتهم الوثيقة بعضهم البعض، وما كان يربط بينهم بوجه عام من وشائج وصلات قرابة.

ورغم عيوب تلك الحركة وما شابهها من ثغرات، إلا أن زعماءها ومجاهديها قد استطاعوا، على مدى اثني عشر عاماً من النشاط، فيما بين الأعوام ١٩٠٥ و ١٩١٧، اكتساب خبرة معينة - دراية تقنية كما نطلق عليها في عصرنا الحالى - متعمقة وإن كانت ظاهرية، بآلية الثورة الاشتراكية. وهكذا لم يكن من المستغرب عند اندلاع ثورة أكتوبر أن نجد أولئك البارزين من الزعماء الاشتراكيين المسلمين، مثل محمد أمين رسول زاد، أو فؤاد توكتار، أو آياز إسحاقى، وقد التقوا ليس إلى جانب لينين وأتباعه من البلاشفة، وإنما داخل المعسكر المناوىء للثورة في واقع الأمر. فقد استشعروا أكثر من غيرهم أن «الدولانية البروليتارية» التي اعتنقها البلاشفة سرعان ما ستتحول إلى حركة وطنية جديدة تحتاج أنحاء روسيا بأكملها.

والجانب الثانى هو أن الاشتراكية قد علمتهم أسلوب العمل الجماعى. إذ كان جميع زعماء الاشتراكية الإسلامية فيما قبل عام ١٩١٧، على نحو ما أوضحنا مراراً وتكراراً فى مواضع عديدة، ينتمون إلى الصفوة المثقفة من شعوبهم. ولم يكن لأولئك الشبان، أبناء الأرستقراطيين الإقطاعيين، أو التجار الأثرياء، أو علماء الدين، بحكم نشأتهم الاجتماعية، سوى صلات محدودة للغاية بأبناء الشعب، الذين كانوا يتألفون من الفلاحين أو البدو، ومن أرباب الصنائع أو أصحاب الحوانيت على وجه الخصوص. إلا أن التنظيمات الثورية الاشتراكية قد فتحت لهم، من خلال ما كانت تعقده من لقاءات شعبية، وما كانت تنظمه من إضرابات بل وحتى أعمال تخريب وإرهاب سياسى، نافذة جديدة، باعتبارها بديلاً «لشعبية» (*)، أو وسيلة لاجتياز الهوة التى كانت تفصلهم عن «الشعب». فإذا ما قُدر لها النجاح، كان ذلك إيذاناً بمولد حركة وطنية موحدة فى نهاية الأمر، تتجاوز الفروق الطبقية؛ ومن ثم فإن أبناء الصفوة التقليدية قد ضمنوا المحافظة على مقاليد القيادة لشعوبهم.

وعلى مدى التاريخ الطويل للراдикаلية الإسلامية، استطاع الاشتراكيون المسلمون الشبان أن يجدوا بسهولة نماذج رومانسية راقية تصطبغ بصبغة العمل أو التضحية أو الإرهاب، بدءاً من نموذج القرامطة القدامى وأبناء الطائفة الاسماعيلية وحتى نماذج الطرق الصوفية التى تزعمت الجهاد المقدس ضد «الكفرة» فى القرن التاسع عشر. إلا أننا لم نجد فى الماضى أمثلة صحيحة للتنظيم على نحو ما قدمته الاشتراكية الروسية. فإذا كانت الأفكار الماركسية، وهى أفكار مجردة فى كثير من الأحيان، لم تطبق تماماً على المجتمع الإسلامى، إلا أن النموذج الاشتراكى للتنظيم كان هو النموذج الأكثر ملاءمة لراдикаلية المسلمين الروس الشبان.

أما الجانب الثالث فهو أن الاشتراكية الروسية قد قدمت للمسلمين وعداً بالمساواة مع الروس، إن لم يكن الاستقلال عنهم. فمن بين الأفكار السياسية التى لاقت رواجاً فى روسيا عشية الثورة، أكدت الاشتراكية، أكثر من كل ما عداها من مذاهب، على الإخاء والمساواة بين الشعوب المقهورة. إذ لم تكن الصورة قد اتضحت بعد فيما يتعلق بالاشتراكيين الروس فى موقع السلطة؛ وعلى ذلك فإن الحكم عليهم جاء لصالحهم، لا سيما المناشفة والاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يعلنون بشدة التزامهم بمبدأ الفدرالية (**). أما فيما يتعلق بالبلاشفة، فإن «الدولانية» التى كانوا ينادون بها كانت من الغموض بحيث فتحت الباب أمام كل ما

(*) شعبية (نظرية الروائيين الشعبين الذين يصرون بواقعية حياة عامة الشعب) (الترجمة).

(**) الفدرالية (نظام اتحادى) (الترجمة).

يمكن تخيله من تفسيرات.

وأخيراً، فإن الاشتراكية كانت تمثل على النقيض بالنسبة للمسلمين وعداً بملاذ روسي بل وحتى دولي يلجأون إليه في كفاحهم الوطني. إلا أن زعماءهم، من محافظين وثوريين، كانوا يدركون تماماً مدى ضعف المسلمين في مواجهة الصرح الروسي العتيد. ووفقاً للمقولة التي ذاع استخدامها قبل عام ١٩١٧ على يد الكتاب التتر «إن الكلب لا يمكنه مواجهة الفيل وحده، وإنما عليه الاستعانة بالصيادين». ومن ثم، فإنه كان يتعين على الاشتراكيين المسلمين، مثلهم في ذلك مثلي مسلمي المستعمرات، الاعتماد من حيث المبدأ إن لم يكن في الواقع الفعلي على التعاطف الفعال من جانب الاشتراكيين الروس والأوروبيين، بل وحتى على مساعدتهم. إلا أن بعض الأحداث قد أثبتت أن مثل هذه المساعدة لم تكن مثالية تماماً. فقد كان الاشتراكيون الأرمن من حزبي «دشنق تسوطن» و «هنتشاك»، رغم تأثرهم الشديد بالحركة القومية، أعضاءً كذلك في الأممية(*) الثانية، كما قوبل الأتراك الشبان، عام ١٩٠٨، باستقبال حافل من جانب الحزب الاشتراكي الفرنسي. وكان لشوار تبريز بعد ذلك، في الأعوام ١٩٠٩-١٩١١، صدى حماسي، وإن كان عديم الفعالية، لدى جميع الاشتراكيين في العالم.

لقد كان اعتناق الاشتراكية، أو إشهار ذلك، نظرياً على الأقل، وسيلة للانفتاح على الغرب، كما كان مبعثاً للأمل في العثور على حلفاء هناك. إلا أن ذلك كان محض أحلام وأوهام، فالاشتراكيون الأوروبيون قبل عام ١٩١٧ كانوا يجهلون إلى حد كبير تلك العوالم غير البروليتارية الواقعة فيما وراء أوروبا وأمريكا الشمالية. وكان يُنظر إلى الإسلام نظرة ازدراء تشويه العجرفة بصفة خاصة، كما كان الاهتمام بالشرق لمجرد كونه أحد العناصر المؤثرة في الأوضاع الدولية، لا باعتباره موضوعاً للاهتمام في حد ذاته. ولم يكن للشرق، وقد خلا من البروليتاريا، أن يزعم أي حق له في الثورة. أما فيما يتعلق «بالمشكلة الوطنية»، فإنها لم تكن تمثل للماركسيين الأوروبيين سوى مشكلة تافهة وهامشية مقدر لها أن تلقى حتفها في العالم الاشتراكي المقبل.

لم يكن وضع الاشتراكيين الروس يختلف كثيراً. فحتى عام ١٩١٧، لم يكن أي من الزعماء المناشقة أو البلاشفة، باستثناء ستالين - وهو نفسه شرقي - يبدون أدنى اهتمام بالمشاكل «الاستعمارية الوطنية» المتعلقة بالامبراطورية. وإنما كان الاشتراكيون الروس، في

(*) الأممية (تكتل عمالي من مختلف الشعوب والأمم غايته الدفاع عن مصلحة العمال يتخطى النطاق القومي) (المترجمة).

معرض الحديث عن مستقبل روسيا، يفكرون فى سان بطرسبورج، أو حوض الدونيتز، أو موسكو، أو بولونيا، ولم يكن يجول بخاطرهم مطلقاً تركستان أو بلاد التتر. فلم الاهتمام ببحث أحوال الفلاحين فى دول متخلفة، بل وحتى أوضاع أمم وقوميات لا تملك أية صناعات، وإنما هى مجرد مخلفات للعصور الوسطى؟ كانت «روزا لكسمبورج» أوضح مثال لهؤلاء الماركسيين «الغربيين» المناهضين لأى شكل من أشكال الوطنية داخل الحركة الاشتراكية، غير أن غالبية البلاشفة قد شاركوها مشاعر العدا والازدراء.

وبالرغم من اللامبالاة، بل المعارضة، التى أبدتها الماركسيون الأوروبيون والروس تجاه العالم الإسلامى، إلا أن الأفكار الاشتراكية قد نجحت، فى بداية القرن العشرين، فى التغلغل إليه إن لم يكن عن طريق تحول منظم فمن خلال نوع من التأثير المتبادل على أقل تقدير. وسرعان ما حظيت هذه الأفكار «بالتطبيع» بمجرد قبولها.

ولكن ما هو سر ذلك النفوذ الذى تمتعت به الاشتراكية الماركسية فى مستهل القرن العشرين، فى بيئة بعيدة للغاية عن البروليتاريا الأوروبية التى وضعها من أجلها فلاسفة كانوا أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالشرق؟ كان للمسلمين الشبان، مثلهم فى ذلك مثل زملائهم الاشتراكيين الغربيين، موقف غير تقليدى تجاه ماضيهم الوطنى. إلا أنهم كانوا، خلافاً للغربيين، لا يتجاهلون إلا الماضى الحديث وحده، حيث التأخر والتورط مع الغرب. لقد كانت الاشتراكية ولا ريب مفتاحاً للمستقبل، ولكنها كانت كذلك مفتاحاً للماضى البعيد، حيث العصر الذهبى للإسلام، ولعشيرة الذهب وامبراطورية تيمور، عندما كان الروس رعايا تابعين للخانات التتر. إلا أن أحداً من هؤلاء الاشتراكيين الشرقيين، حتى قيام ثورة ١٩١٧، لم يسأل نفسه ذلك السؤال الجوهرى الذى هز العالم الإسلامى خلال نصف القرن التالى: هل يمكن أن يكون هناك توافق بين الإسلام والماركسية؟ لعل الإجابة تكمن عند سلطان غالييف. إلا أن التساؤل قد يبدو غير مجدٍ فى الوقت الحالى. فقد اتفق الجميع على حقيقة واحدة: أن الماركسية ليست سوى إطار للعمل، فى حين يضع الإسلام الأيديولوجية.

الفصل الثانى
الثورى القومى
١٩٠٥-١٩١٧

الفصل الثانى

الثورى القومى

١٩٠٥ - ١٩١٧

كان والد سلطان غالييف معلماً فى قرية « كرىمسا كالى » بمقاطعة « سترليتيا ماك »، فيما يُعرف بجمهورية بشكير المستقلة فى الوقت الحالى. نشأ فى أسرة متواضعة بل فقيرة. وكان معلم القرية لا يتقاضى، كالمعلمين الروس، راتباً ثابتاً من الحكومة، وإنما كان عليه أن يكتفى بمكافأة هزيلة إلى حد يدعو للسخرية، يقدمها مجلس القرية وتُستكمل بهبات عينية يغدقها عليه آباء التلاميذ. كانت قرية « كرىمسا كالى » ضيعة تتألف من بضعة مئات من البيوت، إلا أن المدرسة الابتدائية بها (الكتاب) كانت تدرج فى طائفة ما كان يُعرف آنذاك باسم « المدارس شبه المعدلة » حيث كان يجرى تدريس مطالعة النصوص التثريّة والعربية وفقاً للمنهج الأبجدى الحديث، بل وحتى بعض المواد « العلمانية » مثل علم الحساب ومبادئ الجغرافيا والتاريخ. ورغم المظهر الحقير لتلك المدارس، إلا أن المستوى الثقافى للمعلمين والتلاميذ على حد سواء كان مرتفعاً على نحو يدعو إلى الدهشة، بالمقارنة بالقرى الروسية المجاورة. إذ كانت نسبة الملمين باقراءة والكتابة آنذاك، لاسيما بين الفتيات، أهم لدى التتر بما كانت عليه بين الروس. وقد تناول المؤلفون الروائيون التتر فيما قبل الثورة حياة معلمى القرى إبان تلك الفترة. كانت حياة شاقة نُذرت كلها للتفانى فى العمل والزهد فى متاع الدنيا. إذ كان المعلم يضطلع بكل شئ، بدءاً من التعليم بالطبع، وحتى الاهتمام بتدفئة المدرسة، وإدارة المدرسة الداخلية - حيث كان الأطفال يقيمون فى نفس المبنى. بل كان عليه كذلك فى كثير من الأحيان أن يستقطع من راتبه الهزيل لتقديم الغذاء إلى تلاميذه. إلا أنه قد اختار هذه الحرفة طواعية، مثله فى ذلك مثل سائر زملائه، حيث يكمن الدافع المحرك لذلك فى عشقه الحقيقى لمهنته. فقد شعر المعلمون التتر بأنهم صفوة شعبهم وأن مستقبل ذلك الشعب فى أيديهم. وخلافاً لزملائهم الروس، الموظفين بالدولة، فإن مسؤوليتهم قد انحصرت فى مجتمعهم وحده.

لم يكن لهم « رئيس » يتلقون منه الأوامر، وإنما كان عليهم ان يتحلوا بقدر كبير من روح المبادرة والابتكار، حيث كانوا يقومون فى آن واحد بوظيفة المعلم، والمستشار القانونى، بل

ويضطلعون أحياناً بدور الطبيب والصيدلى، وكثيراً ما لعبوا دور الملا والإمام الخطيب فى إمامة صلاة الجمعة.

كان والد سلطان غالييف، الذى لانهرف حتى لقبه، رجلاً مثقفاً ومتفتحاً إلى حد كبير، حيث علم ابنه اللغة الروسية، وهو ما يُعد أمراً غير مألوف فى ذلك العصر. ومن الأرجح- وإن لم يكن ذلك مؤكداً- أن آل غالييف كانت لهم طموحات تفوق كثيراً مجرد ذلك الدور المتواضع للأب. إذ يمكن الاعتقاد، على ضوء لقب «مير (أى أمير) سيد» الذى أطلق على سلطان غالييف الصغير، أن الأسرة كانت تزعم الانحدار من نسل النبى، باعتبار أن لقب سيد هو اللقب الشرفى الذى تحمله ذرية محمد (حيثُ نجد من سلالاته فى أنحاء العالم الإسلامى من ينتسبون إليه فعلياً بدرجة أو بأخرى، بما فى ذلك إقليم فولجا الوسطى التترى).

تلقى سلطان غالييف تعليمه الابتدائى فى كُتّاب والده من سن الثامنة وحتى الخامسة عشر. ولم تكن نشأته الثقافية تختلف كثيراً عن سائر الشباب التترى. كان على إمام بشى من اللغة العربية الفصحى، مما أكسبه بعض الدراية باللغتين التركية العثمانية والفارسية، كما كان طويل الباع نسبياً فى العلوم الدينية. أحاط بمبادئ الشريعة، شأنه فى ذلك شأن تلاميذ الكُتّاب، وربما درس تجويد القرآن. كان فى عين زملائه، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشر من العمر، قومياً متحمساً ومسلماً شديداً للالتزام، إن لم يكن بالغ التعصب، بجميع التعاليم الدينية الأساسية منذ نعومة أظافره: من أداء للصلوات الخمس اليومية، وصلاة الجمعة بمسجد القرية، وصوم شهر رمضان، والامتناع عن تناول لحم الخنزير واحتساء الخمر بطبيعة الحال. كما تميز عن أقرانه بإجادته الممتازة للغة الروسية، وهو ما أتاح له الالتحاق بمدرسة المعلمين التترية فى قازان قرابة عام ١٨٩٥.

أنشئت مدرسة المعلمين المذكورة عام ١٨٧٦، وكانت هى المنشأة الثانوية الوحيدة التابعة للدولة والمخصصة للتتر.

كان الهدف من وراء إنشائها هو إعداد المعلمين اللازمين للمدارس الابتدائية الروسية التترية التى كانت وزارة التربية الوطنية تعتزم إقامتها فى إقليم فولجا الوسطى الإسلامى، حيث لغة التعليم هى الروسية باستثناء بعض الدروس فى الدين باللغة التترية. غير أن هذه المدارس الابتدائية لم تحرز نجاحاً كبيراً فى البداية بين أبناء الشعب الذين رأوا فيها، دون وجه حق، محاولة جديدة من جانب المبشرين الأرثوذكس لتحويل المسلمين عن دينهم. وفى

عام ١٨٩١، أصدرت وزارة الداخلية قراراً يلزم الملات التتر باجتياز اختبار فى اللغة الروسية؛ واعتباراً من ذلك العام، بدأ عدد الطلبة فى التزايد بسرعة فائقة. وأصبحت مدرسة المعلمين فى قازان من المنشآت البارزة، حيث مالبت أن احتلت مكانة فريدة فى تاريخ الشعب التترى واستقبلت أبوابها معظم أولئك الذين أصبحوا زعماء قوميين فيما بعد. وقرابة عام ١٨٩٥، قامت مجموعة من الطلبة بتكوين جمعية ثورية سرية داخل المدرسة، كانت الأولى من نوعها بين أوساط المسلمين بالامبراطورية الروسية. كما قاموا بعد فترة بإصدار جريدة مطبوعة بعنوان (الترقى)، كانت أول نشرة دورية تصدر باللغة التترية. وكان رئيس الجمعية ومنظمها كاتباً موهوباً، وهو آياز إسحاقى، الذى جاهر بنفسه، منذ عام ١٩١٧، بوصفه العدو اللدود شديد التحمس ضد البلاشفة. وقد ضمت بين أعضائها بعض المثقفين اللامعين الشبان: وهم من أصبحوا زعماء اشتراكيين فيما بعد أمثال «فؤاد توكتار»، و«شاكر محمد ياروف»، وبعض المعتدلين مثل... «صدرى مقصودى»، الذى حصل، فى وقت لاحق، على ليسانس الحقوق من باريس وأصبح الزعيم الموجه للبرالية التترية.

ولعل الانتقال إلى مدرسة قازان، الذى استمر نحو خمسة أعوام، منذ عام ١٨٩٥ وحتى ١٩٠٠، قد ترك أثره العميق على سلطان «غالييف»، حيث تلقى من خلال اتصاله بالثوريين الشبان المبادئ الأولى للماركسية. فقد اكتسب قناعة مؤداها أنه حتى يتسنى تحرير شعبه، لا يمكن الاعتماد فى ذلك على القوى التترية وحدها، وإنما يلزم بل ويتحتم الاستعانة بالحركات الثورية الروسية. ومن الأرجح كذلك، رغم افتقارنا إلى معلومات مؤكدة حول هذه النقطة، أن يكون سلطان غالييف قد بدأ وقتها يفقد إيمانه، وهو ما أثار الشك حول ديناميكية الإسلام وإمكانية الكشف، فى السنة والحديث الشريف، عن صفات سياسية- وليست روحية أو فلسفية فحسب- لتحرير أى شعب مقهور. ولأسباب عملية أكثر منها عقائدية أو أيديولوجية، بدأ يتحرر من الإسلام التقليدى ليتجه إلى الشعبية الروسية وأسلوب العمل المباشر الذى يحظى بالاحترام من جانبها. وفى عام ١٩٠٠، عُيِّن سلطان غالييف أميناً للمكتبة البلدية فى «أوفا». ولإجاده التامة للغة الروسية، أخذ يترجم إلى اللغة التترية روايات «تولستوى» وقصص الأطفال التى ألفها الكاتب الروسى «زاساديمسكى». إلا أنه، شأنه فى ذلك شأن المثقفين التقدميين التتر الشبان، لم يضطلع بدور فعال فى ثورة ١٩٠٥، باعتبارها من الأمور التى لا شأن للغرباء بها. فقد كانت المعركة بين الروس بعضهم البعض لدوافع روسية بحتة

لاتهم المسلمين من قريب أو بعيد. ولكنه لعب في المقابل، على ما يبدو، دوراً أكيذاً فى الحركة الثورية الطلابية «الإصلاحية»، وأتاحت له هذه الفرصة اكتشاف القوة الدافعة للحركة الوطنية. إلا أن عام ١٩٠٥ كان بمثابة منعطف حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية الإسلامية فى روسيا. ورغم اندحار الثورة، إلا أنها قد أظهرت مدى افتقار ذلك النظام الملكى للاستقرار، كما برهنت الهزيمة التى لقيتها الجيوش الروسية فى منشوريا على أن روسيا، التى اشتهرت حتى ذلك الوقت بأنها لا تُقهر، يمكن إلحاق الهزيمة بها، وعلى يد إحدى القوى الآسيوية كذلك. ومن ثم، فإن كل الآمال بدت مشروعة. بل أمكن للحركة الوطنية أن تتجاوز نطاق الحلم لتدخل فى نطاق الضرورات المللموسة.

وبعد عام ١٩٠٥، كرس سلطان غاليف نفسه للعمل الصحفى. والمعروف أنه كان له نشاط منتظم فى صحف أوف، ورسول أوف Oufimskiy Vestnik باللغتين الروسية والتترية، وصحيفة (الحياة) Tormysh، لسان حال التتر، وهى صحيفة قومية يسارية رغم عدائها الشديد للاشتراكية الماركسية. وكان يعبر عن وجهة نظره، بأسماء مستعارة مثل «سوخو»، و«Ul»، و«M.S.» و«كارما سكالينيس»، حول إصلاح عملية تلقين الأفكار الراديكالية. وفى وقت لاحق، قرابة عام ١٩١١، بعد أن أصبح نائب رئيس تحرير الجريدة الموسكوية المعروفة باسم Musul'manskaia, Gazeta، وكان صاحبها هو المنشفى القوقازى أحمد بك تساليكوف، نشر فيها قصصاً وروايات مثل (فتاة من بشكير)، و(حلم التترية)، و(أغنية لم تتم)، و(الرجل)، و(فى الضباب). وفى الفترة ذاتها (١٩١١-١٩١٤)، كان يكتب فى جريدة موسكو المعروفة باسم (المعلم الروسى) Rousskiy Outchitel بتوقيع «ابن الشعب» أو «طالب تترى»، كما قدم بانتظام مقالات للمجلة الاشتراكية (عالم الإسلام) Mir Islama.

وفى غضون الحرب العالمية الأولى التى لم يشترك فيها، هاجر سلطان غاليف فيما وراء القوقاز حيث عُيِّن أستاذاً بالمدرسة التترية فى باكو. وهناك شارك على نحو فعال فى الحركة القومية والتقدمية- غير الاشتراكية- تحت قيادة أمين رسول زاد وعمل فى الجريدة التى كان يحورها ذلك الأخير، المعروفة باسم Kavkazskoe Slovo، باسم مستعار هو «Kölke-bash» و«Mirsayit». وعلى حد علمنا، فإنه لم ينضم لأى من الأحزاب السياسية التى كانت تتنازع على زعامة المسلمين فى روسيا. كما استمر، فى الوقت ذاته، فى نشر مقالات بالعديد

من الصحف القومية، أظهرت ميوله المتنوعة إلى حد يثير الدهشة.

كما امتدت أعماله كذلك لتشمل جرائد معتدلة مثل (الترجمان) Terdjüman الصادرة في باغشساراي وكان يحررها إسماعيل بك جاسبرينسكى، أحد الملكيين المتشددين، و(الوقت) Vaqt الصادرة في أورونبوج وكان يمولها آل راميف وهم من رجال الصناعة، كما كانت تنتهج إلى حد كبير الخط السياسى للديمقراطيين الدستوريين التثرا المتجمعين فى حزب (اتفاق المسلمين) المركزى، وكذلك (النجمة) Yoldyz الصادرة فى قازان، جريدة الإنتلجنتسيا الإصلاحية. كما ظهر توقيعه كذلك فى صحف اليسار القومية، مثل (الشمس) Qoyash الصادرة فى قازان، جريدة الجامعة الإسلامية الراديكالية، بل وحتى فى الصحف اليومية ذات الاتجاهات الاشتراكية الصريحة، لاسيما صحيفتى (البلاد) IL، و(الكلمة) Süz الصادرتين فى سان بطرسبورج، وكان رئيس تحريرها زميل دراسته القديم بمدرسة المعلمين، «آياز إسحاقى»، أعنف التثرا ثورية وأكثرهم مجاهرة بالعداء للملكية آنذاك.

إلا أن الأعمال الأدبية لسلطان غالييف لم تصادف حظها من الشهرة. إذ أن موهبته لا تقارن بمثيلتها عند زملائه ومن أصبحوا منافسيه مستقبلاً، «آياز إسحاقى» أو «عبد الله توكاي» أو «غالم جان إبراهيموف»، زعماء ما يمكن أن نسميه بحق «النهضة التثرية». كان أدبه مليئاً بالمشاعر الطيبة، وإن كان يعج كذلك بالتحذلق العاطفى، متأثراً فى ذلك بمثلى الواقعية الشعبية الروسية: تولستوى فى عصره الثانى، وتشيكوف، وما مين سيبيرياك، وجوركى، وغيرهم آخرون. كما كانت رواياته تحمل إحياءات مبتكرة: تحرير المرأة، أو الفتاة البريئة المخدوعة والتى تنكر لها أحد أبناء رجال الصناعة، أو جشع وجهل الملات الرجعيين، أو ذلك الطالب الفقير الجائع الذى تتأجج نفسه بمشاعر الوطنية والرغبة فى المعرفة..

ظل سلطان غالييف، حتى نشوب الحرب، قومياً راديكالياً، إذ لم تكن الماركسية تمثل بالنسبة له سوى مستودع للعبارات الفنية الثورية القادرة على إذكاء روح الحماس لحركة تحرير الشعب التثرى. وقد فاجأته ثورة فبراير ١٩١٧ فى باكو، إلا أنه لم يكن له دور فعال فى تلك الحركة التى أثارت العالم الإسلامى فى روسيا حتى نهاية شهر أبريل من عام ١٩١٧، عندما تم استدعاؤه إلى موسكو، ربما بواسطة أحمد بك تساليكوف، لرئاسة أمانة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى. وبعد انتهاء المؤتمر، توجه إلى قازان. وحينذاك انغمس، وقد ناهز الأربعين عاماً، فى العمل السياسى من خلال الانضمام إلى إحدى الجماعات التى لم تكن تمثل حزباً حقيقياً، وهى

اللجنة الاشتراكية الإسلامية التي سرعان ما أصبح أحد زعمائها الرئيسيين، بفضل ما أوتى من ملكات غير عادية في مجال التنظيم والخطابة.

كان اختيار قازان مركزاً للنشاط اختياريًا صائباً، حيث تحدد هناك مصير الإسلام الروسي. كما كانت، باعتبارها العاصمة القديمة للخان، والمبطل الثقافي ذائع الصيت للإسلام بما اشتهرت به من مدارس، مركزاً كبيراً للصناعات والجامعات الروسية حيث تجاور المثقفون المسلمون والروس جنباً إلى جنب وتأثرت كل طائفة بالأخرى على نحو متبادل.

ومنذ الأيام الأولى لثورة فبراير، قام زعماء البورجوازية الليبرالية الثورية، وأعضاء (الاتفاق) القديم، إلى جانب الاشتراكيين المعتدلين، متناسين خلافاتهم التكتيكية، بتشكيل اللجنة الإسلامية في ٧ مارس (٢٠ في التقويم الغربي) عام ١٩١٧، وكانت المتحدث الرسمي للجبهة الوطنية الثورية حتى قيام ثورة أكتوبر. كما ألفوا، بعد ذلك بقليل، اللجنة العسكرية الإسلامية التابعة لحامية قازان، نواة التنظيم العسكري الإسلامي. وقد قام البلاشفة في قازان، من جانبهم، بعقد مؤتمر تنظيمي في ٢٦ مارس ١٩١٧ لانتخاب أول لجنة في قازان تتبع حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلاشفة)، وكانت تتألف من ستة عشر عضواً، كلهم من الروس. وهكذا فإن الشعبة البلشفية المحلية أخذت شكل تنظيم روسي صرف وظلت كذلك حتى شهر أكتوبر. وسرعان ما تزايد عدد أعضائها من ٨٠ عضواً فقط في نهاية شهر مارس إلى ١٧٠ عضواً في بداية أبريل، ثم إلى ٤٦٠ عضواً في مايو، حتى بلغ ٦٥٠ عضواً في أغسطس. ورغم ما بذله زعماءها من جهود لاجتذاب المسلمين، إلا أن التتر لم يمثلوا فيها حتى وقوع الانقلاب السياسي البلاشفي سوى أقلية طفيفة، إذ لم تكن تضم سوى بعض العمال واثنين أو ثلاثة من ضباط الصف بحامية المدينة. وبالمثل، فإن العمال التتر لم يحتلوا سوى مكان متواضع تماماً في اللجان الخاصة بالمصانع. وهكذا، فإن اللجنة المؤقتة في مصنع البارود La Poudrerie معتل البلاشفة في قازان، لم تكن تضم في مارس ١٩١٧ سوى اثنين من التتر مقابل ٥١ روسياً.

ولأسباب شتى، على رأسها عدم الثقة القديمة، لم تنضم الغالبية العظمى من الثوريين التتر إلى الحزب البلشفيكي ولا إلى تنظيماته الفرعية، ولكنهم ألفوا في فبراير ١٩١٧ لجناً عمالية إسلامية أعيد تجميعها في ٧ أبريل في شكل لجنة اشتراكية إسلامية. وقد لعبت تلك اللجنة دوراً مميزاً في تاريخ الحركة الثورية الإسلامية، ويرجع الفضل في ذلك على وجه الخصوص

إلى مؤسسها ورئيسها وباعث حركتها، ملا نور فاهيتوف، وكان صاحب شخصية قوية قُدر لها الاضطلاع بزعامة الحركة الشيوعية الإسلامية.

كان ملا نور فاهيتوف، وهو ابن أحد التجار التتر الأثرياء، ويصغر سلطان غالييف ببضعة أعوام، أكثر «ترويساً» من ذلك الأخير. درس دراسات علمانية بحتة، في المعهد الرياضى الروسى فى قازان أولاً، ثم فى معهد البوليتكنيك (متعدد الفنون والعلوم) فى سان بطرسبورج، حيث التقى بعدد من الثوار الروس الشبان وأصبح ماركسياً متشددًا. فُصل من معهد البوليتكنيك بسبب «أفكاره الثورية» عام ١٩١١، ثم التحق بمعهد الأمراض النفسية والعصبية فى نفس المدينة، حيث جرى إبعاده منه فى العام التالى بتهمة «التحريض على أعمال تخريبية». وفاجأته الثورة، فى فبراير ١٩١٧، فى قازان حيث كان يعمل مهندساً للجسور والطرق. كان بهى الطلعة، رشيقاً يتمتع بقوام رياضى، داكن اللون، له عينان متقدتان وشعر طويل يتسدل على كتفيه فى رومانسية، يتميز بشخصية قيادية وعسكرية بالفطرة، ولكنه لم يكن عالماً نظرياً. هو صاحب فكرة توحيد جميع القوى الثورية الثورية فى مجموعة قتالية حقيقية ذات طابع عسكرى لأول مرة؛ وكان سلطان غالييف معاونه، كما كان بالنسبة له «نموذجاً يُحتذى فى التفكير». بل إن كلا الرجلين كان مكملًا للآخر على نحو يثير الدهشة.

ولكونه من المثقفين الشبان ذوى النشأة الماركسية، فقد ادعى فاهيتوف أنه «اشتراكى» بالفعل، ثم «بلشفي» فى وقت لاحق. إلا أن الغلاف الماركسى الخارجى لم يغير من جوهر أفكاره السياسية، وكان الغموض لا يزال يكتنفها، إلى حد يمكن أن نصفها معه «بالجامعة الإسلامية المتطرفة»، ولها ثلاثة أهداف رئيسية هى: مكافحة «الإقطاع» التتارى والتقليدية الإسلامية، والتحرر الوطنى للمسلمين من السيطرة الروسية، ونشر الاشتراكية فى أنحاء العالم الإسلامى. وإذا ما أردنا إيجاد مثل مشابه من العصر الحديث، وإن اعتري ذلك شىء من المفارقة التاريخية، فإنه يمكن مقارنة ملا نور فاهيتوف ورفاقه أعضاء اللجنة الاشتراكية فى قازان بجماعة مجاهدى خلق الإيرانية، وهى جماعة ماركسية وإسلامية فى آن واحد.

كان رفاق فاهيتوف وسلطان غالييف الأوائل ثوريين ينتمون إلى مشارب شتى، اشتراكيين ديمقراطيين، أو اشتراكيين ثوريين من اليمين واليسار، أو «اشتراكيين مستقلين»، أو مناشفة، أو دولانيين، أو شيوعيين متطرفين، أو مجرد مغامرین متقدمين يتطلعون إلى الوقوف فى وجه (المؤسسة) Establishment، حيث كان أغلبهم مثقفين ينحدرون من الطبقة

البورجوازية المتوسطة أو الراقية، كما كانوا من المناضلين القدامى فى الحركة الإصلاحية فى كثير من الأحيان. بعضهم كانوا فيما مضى أعضاء فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى، إلا أن عدداً ضئيلاً منهم فقط هم من انضموا إلى القسم البلشفيكى. غير أن اللجنة الاشتراكية الإسلامية، وهى أول تنظيم سياسى تتربى يستند إلى الماركسية، لم يكن لها ارتباط عضوى بالاشتراكيين الروس أعضاء المجموعة البلشفية، حيث لم يكن يربطها بهذه المجموعة سوى علاقات عارضة. وهكذا فإن احتفالات الأول من مايو ١٩١٧ التى أقيمت فى قازان قد شهدت خروج اللجنة الاشتراكية من التنظيم البلشفيكى على نحو متعاقب.

ولم تتم دعوة بعض قادة هذه اللجنة، سلطان غالييف بالتأكيد وربما ملا نور فاهيتوف، بصفتهم الشخصية لحضور جلسات اللجنة البلشفية إلا بعد شهر يولية ١٩١٧.

حاول البلاشفة الروس فى قازان، عشية انقلاب أكتوبر، «إنشاء نواة» للجنة الاشتراكية الإسلامية من خلال تكليف بعض ممثليهم بتشكيل «شعبة بلشفية» فى داخلها، إلا أن هذه الشعبة لم تحظ بنفوذ قوى، ومن ثم فإنه لم يتم «بلشفتها» مطلقاً على أى نحو فعلى. وظلت تلك اللجنة، حتى شهر أكتوبر، تنظيماً «بورجوازياً» وليس بروليتارياً، يجمع عناصر مختلفة من اليسار، تتألف من المثقفين التقدميين الذين كانوا يدعمون، من بعيد وبصورة تبعية بدرجة أو بأخرى، الخط السياسى للبلاشفة فى قازان. وقد تميزت عن الحزب البلشفيكى بشكلها التنظيمى. ففى حين أن ذلك الأخير كان تنظيماً ذا طابع عسكرى، أو بالأحرى «أركان حرب» أكثر منه حزباً جماهيرياً، نجد أن اللجنة الاشتراكية كانت بمثابة اتحاد مفتوح أمام جميع الثوريين على اختلاف مشاربهم، دونما أيديولوجية متشددة وبلا نظام محدد. وكان الهدف منها أن تصبح الصوت المعبر عن الأحزاب الإسلامية كافة، والتى كانت ترى فى النضال الثورى أساساً للاشتراكية بوجه عام وليس لحزب بعينه. ولم يكن بوسعها أن تنهج نهجاً آخر، فقليلون هم من كانت لهم أفكار سياسية ثابتة بين أبناء طبقة البروليتاريا الثورية. ومن ثم، فإن مطالبتهم بمشايعة حزب يتبنى عقيدة محددة كانت من الأمور التى لا سبيل إلى مناقشتها. ولم تكن اللجنة الاشتراكية تنظيماً «متكتلاً» يقوم على المبدأ اللينينى - «الاختلاف أولاً ثم الاتحاد فيما بعد» - بل كانت تضم دون تمييز مسبق بين الاتجاهات أو الطوائف، قلة نادرة من البلاشفة وإن كانوا ممثلين لحركات سياسية أخرى على وجه الخصوص، وهى من العيوب الأولية التى من شأنها ولاريب خلق حالة من التخبیط فيما تنتهجه من سياسات، الأمر الذى قد يفضى

فى النهاىة إلى ظهور الانتهازىة أو إلى غىاب الحزم فى الممارسة العملىة. كما أنها لىست بتكتل تكتىكى مؤقت لمجموعات قد تبدو متفرقة تماماً فى ظاهرها وإن كانت تقف صفاً واحداً من أجل تحقىق هدف محدد، وإنما هى «جماعة قوية من الناحىة العضوىة تقوم على مبدأ العمل المتضامن المستمر».

ولعله من الصعوبة بمكان وضع فكرة محددة حول الدور الحقىقى الذى لعبته اللجنة الاشتراكىة الإسلامىة فى التحضىر لثورة أكتوبر، إزاء الاختلاف الكبىر فى تقدىرات المؤرخىن حول هذا الموضوع بدءاً من عام ١٩١٨. فبعد سقوط سلطان غالىىف، تقاسمت اللجنة، التى اعتبرها البعض «شبه بلشفىة» فى البداىة، اللوم الذى وُجّه إلى سائر الحركات الوطنىة الإسلامىة حتى تلك التى انضمت إلى الشىوعىة. فقد رأى الكتاب السوفىات، مع اعترافهم بكونها أحد «التنظىمات الثورىة»، أنها قد عجزت، لافتقارها إلى خط سىاسى محدد، عن «قىادة الجموع العمالىة التترىة نحو الثورة البرولىتارىة»، وأن البلاشفة الروس هم وحدهم من يمكنهم القىام بذلك. ولنلق نظرة على ماكتبه المؤرخ السوفىاتى «مدفىدىف» عام ١٩٣٤ فى هذا الصدد: «يمكننا أن نسلم جدلاً بأن اللجنة الاشتراكىة الإسلامىة قد لعبت فى فترة معىنة دوراً ثورياً معىناً، ولكن (...)، نتىجة لهىكلها الاجتماعى، فقد عجز قادتها، سلطان غالىىف و«فاهىتوف» والعمال التتر، عن الانفصال عن الأوساط القومىة لصغار البورجوازىىن، كما لم يمكنهم كذلك الاندماج عضواً داخل الجماعات البلشفىة المحلىة. ورغم أن اللجنة الاشتراكىة قد اتبعت نهج البلاشفة فىما يتعلق بالسىاسة الوطنىة، إلا أن قادتها كانوا يخشون الشىوعىة ويسعون إلى توحىد كافة العناصر الثورىة الإسلامىة دونما اعتبار لأصلها الاجتماعى. (...) صحىح أن اللجنة الاشتراكىة قد شاركت فى النضال الثورى بتصديها للبورجوازىة القومىة، فضلاً عن مساعدتها للبلاشفة، (...) إلا أنها أصبحت مسؤولة عن أخطاء جسام، ولم يمكنها بأى حال من الأحوال الزعم بإنشاء كوادر شىوعىة».

أما المؤرخ السوفىاتى من أصل تترى «محرىاموف»، فقد كتب عام ١٩٥٨ مانصه: «لقد ارتكبت اللجنة، بوصفها تنظىماً للطبقة البورجوازىة الصغىرة، أخطاءً جسىمة. الخطأ الأول هو النظر إلى الشىوعىة بمنظور مجرد للغاىة. فقد كان لفظ «الاشتراكىىن»، من وجهة نظر سلطان غالىىف وملا نور فاهىتوف، يجمع البلاشفة والمناشفة والاشتراكىىن الثورىىن فى سلة واحدة، كما اعتقدوا أن هؤلاء الاشتراكىىن جمىعاً كانوا يدافعون عن مصالح العمال».

إلا أنه أياً كانت الفروق بل وحتى الاختلافات بين البلاشفة، أولئك المذهبيين المتشددين، والمسلمين أعضاء اللجنة الاشتراكية، وهم ثوريون إلى حد خيالي، ناهيك عن أصلهم غير البروليتاري، فإن البلاشفة لم يكن لهم الخيار. إذ كان لزاماً عليهم أن يقبلوا، هم أو غيرهم، هؤلاء الحلفاء الذين استشاروا فيهم مشاعر البغضاء والقلق، والذين رأوا فيهم فوضويين أكثر منهم ماركسيين.

غير أن الضرورات التكتيكية التي ظهرت عام ١٩١٧ قد حتمت ذلك لدى لينين وكذا ستالين على وجه الخصوص بدعوى مقتضيات العقيدة. فمن المؤكد أن اللجنة قد ارتبطت بالحركة الثورية الوطنية لا بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي؛ ومن ثم فقد كانت هذه اللجنة قومية أكثر منها اشتراكية. إلا أنها كانت كذلك التنظيم الإسلامي الثوري الوحيد الذي يمكن للبلاشفة الاعتماد عليه، فضلاً عن كونها مركزاً فريداً للتنشئة الأيديولوجية يمكن أن ينبت فيه معظم القادة الشيوعيين المسلمين، حيث كان سائر الشعب التتري في نظرهم ينقسمون مابين غير مكترث أو مناصب للعداء. ومن ثم، فقد كان هناك اتفاق مسلم به، وعلى أساسه جرى قبول التشر المنتحلين لصفة الماركسية وإن كانوا من الثوريين المخلصين الصادقين كحلفاء دائمين لا مجرد «رفاق طريق» عابرين. وفضلاً عن ذلك، فإنه على الرغم من «عيوب» اللجنة وأخطائها، أحجم البلاشفة الروس في قازان عن انتقادها صراحة أو محاربتها بالأحرى. فقد رأوا فيها حليفاً ومدرسة للماركسية هدفها «بلشفة» الإنتلجننتسيا التقدمية التترية التي كانت لاتزال بعد متأثرة بمبادئ الجامعة الإسلامية. إلا أن ماتحقق بالفعل كان هو النقيض بعينه: إذ كانت اللجنة من وجهة نظر قادتها وأعضائها مدرسة من مدارس القومية.

وعلى مدى أعوام من الإعداد المحموم والإثارة الفكرية غير المسبوقة، وضع سلطان غالييف ورفاقه، قادة اللجنة الاشتراكية، الأسس التي استند إليها مذهب الشيوعية الوطنية الإسلامية فيما بعد، وهي التي أدانها الحزب الشيوعي الروسي في وقت لاحق باعتبارها بدعاً دينية خطيرة. وقد ألقى سلطان غالييف الضوء، منذ ذلك الوقت، على نقطتين بصفة خاصة:

- * الرغبة في إقامة اشتراكية «وطنية» يتم مواضعها طبقاً للظروف الخاصة ببلد إسلامي معين ونشرها في سائر أنحاء العالم الإسلامي، بعد تحريره من «امبريالية البورجوازية الأوروبية» على يد قوى العمال المسلمين وحدها وليس البروليتاريا الروسية أو الغربية.
- * إرادة تحرير الأراضي الإسلامية من ريق الهيمنة الروسية. وقد اتضح هذا الاتجاه القومي،

عند الممارسة العملية، في صورة انعدام الثقة بالتنظيمات السياسية الروسية، بما فيها الحزب البلشفيكي، ورفض الانقسام نهائياً عن الجماعات الثورية الأخرى، حتى البورجوازية منها، إذ رأى سلطان غالييف وفاهيتوف أنه يتعين على اللجنة محاربة اليسار المتطرف في الحركة الوطنية الثورية.

وعلى ذلك فقد اضطلعت اللجنة الاشتراكية بدور فعال في أعمال المؤتمر الثاني للمسلمين في روسيا، حيث أدت عملها باعتبارها الجناح اليساري للمعسكر القومي التتري، لا بوصفها المتحدث الرسمي للاشتراكية. وبانعقاده في يولية ١٩١٧ في وقت معاصر لانعقاد المؤتمر العسكري والمؤتمر الديني، وقبل اندلاع ثورة أكتوبر بثلاثة أشهر فقط، فإن المؤتمر الإسلامي الثاني كان آخر المظاهر الإسلامية الكبرى قبل ظهور البلشفية، وإن كان أخطرها على مستقبل الشيوعية الإسلامية، فعلى الرغم من استخدامه لعبارات ثورية تماماً بل وحتى ماركسية اشتراكية، إلا أنه خضع تماماً لسيطرة القوميين من وجهة النظر التنظيمية. وقد جمع المؤتمر العسكري من جانبه نحو مائتين من الجنود والضباط الموفدين من قبل وحدات الجبهة والمؤخرة، إلى جانب عدد من المدنيين. ومن بين هؤلاء ظهر، إلى جانب الليبراليين، ملا نور فاهيتوف ممثلاً عن اللجنة الاشتراكية الإسلامية. أما المؤتمر الثاني لمسلمي عموم روسيا فقد انعقد بحضور مايزيد على مائتين من التتر وأبناء شمال القوقاز. وقام أعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، بقيادة سلطان غالييف وفاهيتوف، بدور بالغ الفعالية في أعمال ذلك المؤتمر، حيث شكلوا فيه جناحاً للأقليات اليسارية المتطرفة في مواجهة كتلة الوطنيين الصلبة. وفضلاً عن ذلك فإن الاختلافات السياسية التي كان من شأنها أن تؤدي إلى اصطدامهم بالليبراليين والاشتراكيين المعتدلين لم تجد سبيلاً إلى الظهور، بل وجرى التصويت على معظم القرارات بالإجماع. ولما كان ذلك المؤتمر قاصراً على المسلمين وحدهم، فإنه قد اتخذ الطابع «الثوري»، كما اتسم، على وجه الخصوص، بصفة القومية الأصيلة إلى حد فاق كل ما سبقه من مظاهر سياسية. وقد قرر المؤتمر، بعد بحث موضوع الانتخابات في الجمعية التأسيسية، قصر أصوات المسلمين على القوائم الاشتراكية. وفضلاً عن ذلك، فقد أدان أعضاء المؤتمر، ربما تحت ضغط من سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف، السياسة الوطنية التي انتهجها «كيرينسكي» بشدة، وذلك بالمطالبة بحق جميع القوميات الروسية في الحكم الذاتي بدرجة تعادل الاستقلال إلى حد كبير في الواقع. كما انفصل المؤتمر بصورة أكبر عن الحكومة المؤقتة، وذلك بالمطالبة بالحكم الذاتي للوحدات

العسكرية الإسلامية بحيث توضع تحت قيادة مجلس إسلامي يخضع للسيطرة التامة من جانب تتر الفولجا.

وقد تقرر في المؤتمرات الثلاثة، لدى اجتماعها في جلسة عامة انعقدت في ٢٢ يولية ١٩١٧، الإعلان دون إبطاء عن الاستقلال الوطني الثقافي للأتراك التتر المسلمين في روسيا الداخلية وسيبيريا، وهو الهدف التقليدي للبورجوازية والإنتلجننتسيا التتيرية على النحو التالي:

(١) يشكل الأتراك التتر المسلمون في روسيا الداخلية وسيبيريا اتحاداً حراً، أي دولة تمارس على أفرادها القوة الجبرية. وأعضاء الاتحاد هم الأتراك التتر من الجنسين، أيّاً كان الإقليم الذي يقطنونه.

(٢) يتم الاعتراف بالأتراك التتر باعتبارهم وحدة وطنية، وشخصية قانونية، وموضوعاً للقانونين العام والخاص.

(٣) يتمتع الأتراك التتر بالمساواة في الحقوق مع سائر الشعوب الأخرى المكونة للدولة الروسية.

(٤) يكون للأتراك التتر الحق في الاستقلال الديني والثقافي.

(٥) يتم تحقيق الاستقلال على نحو تدريجي.

(٦) تُعتبر «الجمعية الوطنية» هي الجهة العليا المسؤولة عن الحكم الذاتي، وتملك سلطات تشريعية في المسائل المتعلقة بالاستقلال الديني والوطني. وتمثل الأجهزة التنفيذية التابعة للجمعية الوطنية الشعب التركي التتري لدى الدولة (الروسية).

(٧) ضماناً لحسن سير الإدارة الدينية والوطنية، يحق للدولة التركية التتيرية فرض ضريبة خاصة على أفرادها.

(٨) تُستخدم لغة الأتراك التتر على قدم المساواة مع اللغة الروسية وغيرها من اللغات الأخرى في المدارس والمحاكم والجهات الإدارية.

وقد جاءت نتيجة التصويت في صورة موافقة بالإجماع، فيما يُعد مظهراً حماسية جماعية انضم إليها حتى ممثلو اللجنة الاشتراكية الإسلامية، على الرغم من الإدانة القاطعة لمبدأ الاستقلال الوطني خارج الحدود الإقليمية من جانب القادة البلاشفة. إذ لم تشهد البلاد من قبل مثل هذه الوحدة الشاملة بين التيارات السياسية التتيرية على اختلافها، من اليمين الديني

المتطرف إلى أقصى اليسار الماركسى. فقد التفت هذه الاتجاهات عند نقطة حاسمة تتعلق بمستقبل المسلمين في الفولجا، وهو أمر له أهميته ولاشك. ورغم أن ذلك الإجماع لم يستمر طويلاً، إلا أنه قد أثبت أن قادة اللجنة الاشتراكية- زعماء الاشتراكية الإسلامية في المستقبل- وعلى رأسهم سلطان غالييف، كانوا على استعداد للانفصال عن البلاشفة الروس والتضحية بالمصالح الطبقية إذا ما تعرض مستقبل المسلمين الوطنى للخطر.

كان الخطر الذى يتهدد الاشتراكية الماركسية الإسلامية «بالفناء» داخل الحركة الوطنية إلى حد يفقدها استقلالها وأصالتها من الجسامة، مما حدا بالبلاشفة الروس إلى التدخل لدى قادة اللجنة الاشتراكية الإسلامية لتحذيرهم من مخاطر التواطؤ مع «العناصر البورجوازية». والواقع أن مشاركة سلطان غالييف وفايتوف في المؤتمر الإسلامى الثانى كانت آخر المظاهر من جانب ممثلى الأحزاب الاشتراكية اليسارية داخل المعسكر القومى. وفى أعقاب ذلك، قامت اللجنة الاشتراكية، تحت قيادة التنظيم البلشفيكى، وبعد الانفصال عن الأحزاب الإسلامية البورجوازية، بتكريس جهودها من أجل التحضير لانقلاب أكتوبر.

* * *

خلافاً للمعتقدات السائدة بوجه عام، فإن الثورة البلشفية في بلاد التتر، كما هو الحال في بتروجراد وفي معظم المدن الروسية، قد مرت بشكل غير ملحوظ في الواقع. إذ فقد نظام «كيرنسكى»، ذلك النظام المذهبى المدقق، كثير اللفظ وعديم الفعالية، كل مصداقية وسلطة له لدى النخبة والعامة على حد سواء. وعلى ذلك، فإن أحداً أو يكاد لم يكلف نفسه، خلال تلك الفترة الحاسمة التى تحدد فيها مصير روسيا بل والعالم قاطبة، عناء التصدى للدفاع عن ذلك النظام، لاسيما في الأقاليم غير الروسية من الامبراطورية القديمة حيث هبط نفوذ الحكومة المؤقتة إلى أدنى المستويات. ولم تكن حكومة «كيرنسكى»، طبقاً للرأى السائد على نطاق واسع لدى المسلمين، سوى نظام روسى صرف، العنصر «الديمقراطى» و«الدولانى» الوحيد فيه هو اللفظ، بل والأسوأ من ذلك أنه نظام ضعيف، محمقون دائماً، وقلما يخشاه أحد أو يكن له أدنى احترام.

كان سلطان غالييف، لحظة وقوع الانقلاب البلشفيكى في ٢٥ أكتوبر، في قازان حيث شهد تلك المأساة المخاطفة التى خلت تقريباً من الأحداث الدموية ولم يضطلع بدور كبير فيها.

فقد ثار الجنود الروس بحامية قازان، يتزعمهم ضباط الصف، بعد أن قاموا بسجن الضباط ومساعدة بعض الميليشيات العمالية الروسية المسلحة، فأجبروا أنصار الحكومة المؤقتة- رغم قتلهم- على الرضوخ فى اليوم التالى مباشرة. وقد قام البلاشفة بالاستيلاء على السلطة فى وضع النهار، على مرأى ومسمع من عدة شهود، من الروس والتتر على حد سواء. وأجمع الكل على أن المتقاتلين هم من الروس على كلا الجانبين، مع بعض الاستثناءات. وخلافاً لما يسجله المؤرخون السوفييات فى الوقت الحالى، فقد لزمّت الوحدات العسكرية التتارية التابعة للمجلس العسكرى Harbi Shuro، رغم ارتفاع استعداداتها القتالية ومستويات التسليح بها مع تعرضها للإتهاك على يد مبعوثى اللجنة الاشتراكية، جانب الحياد، بل إنهم أظهروا بذلك بعض التعاطف تجاه «الحر». ولم يقف إلى جانب البلاشفة سوى بعض أعضاء اللجنة الاشتراكية ومجموعات ضئيلة من التتر المسلحين، وفى آخر الأمر، انخرط عدد يتراوح بين مائتين وثمانين إلى ثلاثمائة من العمال المسلمين فى مصنع قازان للبارود فى التشكيلات الخاصة «بالحرس الأحمر»، إلا أنهم لم يشتركوا فى القتال. وكان التنظيم التتارى الهام الوحيد الذى شارك فى معركة ٢٥ أكتوبر إلى جانب الثوار الروس هو طريقة «القيزيتيين الدينية الإسلامية ذات الاتجاهات المتحفظة المتشددة بل والرجعية الصريحة، والتى كان يُطلق عليها كذلك اسم «كتيبة رب فيزوف». وكانت تلك الطريقة، وهى تشكل أحد الفروع المنشقة عن الطريقة النقشبندية الأم، التى أسسها بهاء الدين فيزوف فى قازان عام ١٨٦٢، تجند أتباعها من بين صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت، حيث كان مذهبها، المستمد من الحركة الإصلاحية الوهابية، بمثابة خليط غريب يجمع بين التحفظ الصارم والاستقامة الإسلامية، إلى جانب «الاشتراكية» التولستوية. كان القيزيتيون ينظرون إلى غيرهم من المسلمين باعتبارهم إلحاديين، كما كان هؤلاء يكونون لهم كراهية عمياء. وكان البلاشفة «الدولانيون»، من وجهة نظر القيزيتيين، أفضل من غيرهم من المسلمين الذين ارتضوا نظام «الكفرة» الروس. إذ لم يكن البلاشفة، رغم زندقته، يمثلون سوى «العدو الخارجى»، فى حين جسد المسلمون «الفاترون» «أعداء الداخل». ولم يكن ثمة مجال للتردد بين الاثنين.

فقد كان بلاشفة قازان، من جانبهم، وهم لا يدققون كثيراً فى اختيار الحلفاء، على استعداد للتحالف مع الشيطان ذاته إن كان يستطيع مساعدتهم على قهر السلطة. ومن ثم، فقد قاموا بتسليح «كتيبة رب فيزوف». وكان ذلك أحد التناقضات العديدة، وإن لم يكن أقلها

شأنًا، للثورة البروليتارية فى الأقاليم التى كانت البروليتاريا ضعيفة فيها بحق. وقد واجه المؤرخون السوفيات شيئاً من الصعوبة فى التماس الأعذار لذلك الحلف الشاذ بين البروليتاريا الثورية وطائفة صوفية تناضل من أجل الجهاد. وفى ذلك كتب «ساجد ولين»، وهو مؤرخ تترى، عام ١٩٣٠ مانصه: «كان البلاشفة ولا يرب هم الذين أمدوا كتيبة الله بالأسلحة؛ ومن المؤكد أن لذلك مبرراته من وجهة النظر الأيديولوجية، ولم يكن ذلك الإجراء ليخلو من الخطورة؛ إذ كان يمكن (...) أن يخلق تصوراً مؤداه إمكانية التوفيق بين الدين والشيوعية، مع الحمل على الاعتقاد بوجود تواطؤ بين السلطة السوفياتية والطوائف الصوفية.»

وعلى ذلك، فإن المؤرخين السوفيات يحبذون، فى الوقت الراهن، الاكتفاء بإسدال ستار من التحفظ على ذلك الفصل الكريد، وهكذا اختفى (الفيزيتيون) من على صفحات التاريخ بلا قيد ولا شرط.

أدرك سلطان غالييف فى وقت لاحق مدى اللامبالاة التى واجهت بها الجموع الثورية أحداثاً كان من شأنها تحديد مصيرهم: «عند تقييم نتائج ثورة أكتوبر ومشاركة التتر فى تلك الثورة، علينا أن نعترف بأن الجموع العمالية والطبقات الثورية المحرومة لم يكن لها فيها أى ضلع.» وينم تشكيل اللجنة الثورية الأولى (Revkom) فى قازان التى تألفت غداة الانتصار، فى ٢٦ أكتوبر، عن تعاظم الدور الذى لعبه الروس فى انقلاب أكتوبر، كما يظهر منه غياب التتر من الساحة. فقد كان الأعضاء العشرون الأوائل فى تلك اللجنة جميعهم من الروس. ووافقت اللجنة الثورية فى قازان (Revkom)، وإن كان ذلك فى وقت لاحق، على أن تقبل بين صفوفها بعض ممثلى التنظيمات الوطنية ومن بينهم ملا نور فاهيتوف. إلا أن بقاء هذه اللجنة الأولى لم يدم طويلاً. وكانت اللجنة الثورية الثانية (Revkom) المنتخبة فى ٣ نوفمبر ١٩١٧، أكثر «استعمارية» من الأولى، حيث جرى إبعاد ملا نور فاهيتوف منها. وهكذا لم يتجاوز عدد أعضائها أربعة عشر عضواً، جميعهم من الروس.

ولما كان انقلاب ٢٦ أكتوبر عملاً روسياً، فقد بادر هؤلاء إلى الاستيلاء على جميع المراكز الرئيسية فى مجالس السوفيات بالمناطق الحضرية والريفية فى قازان. وجرى نفس الشئ بمجلس مفوضى الشعب (Sovnarkom) فى «جمهورية قازان» الجديدة، التى أعلنها مجلس السوفيات المحلى فى نوفمبر ١٩١٧، وكان يضم أحد عشر مفوضاً منهم عشرة من الروس وواحد فقط من التتر، وهو سلطان غالييف، مفوض الشعب لشؤون القوميات وشؤون التربية الوطنية.

وكان هذا أول منصب رسمي يتقلده سلطان غالييف في الإدارة السوفياتية. وعلى ذلك فإن الثورة بدأت بداية سيئة للغاية في بلاد التتر، مادام النظام الجديد قد جازف بالظهور في أعين المواطنين المسلمين بمظهر الوريث الشرعي لكل الأنظمة الروسية السابقة، «القيصرية» أو «الديمقراطية»، وكلاهما ممقوت بنفس الدرجة.

لم يختلف الوضع كثيراً في المراكز الإسلامية الأخرى، بل كان أسوأ في بعض الأحيان. فقد كانت الثورة في كل مكان من صنع الروس، وقبّع المسلمون في مواقع المتفرجين معربين عن مشاعر اللامبالاة أو حتى العداء بدرجة أو بأخرى. أما في آسيا الوسطى، فقد احتكرت السلطة من أكتوبر ١٩١٧ وحتى نوفمبر ١٩١٩ عناصر روسية متبينة استندت إلى النظام الجديد، وإن كانوا جميعاً من غير البروليتاريين؛ موظفون قدامى في الإدارة القيصريّة، أو ضباط، أو تجار، أو مهندسون، أو رؤساء عمال، باستثناء الفلاحين والعمال، الذين تجمعوا حول مجلس السوفيات في طشقند وهو ماتحول، في أكتوبر ١٩١٧، إلى مجلس مفوضي الشعب في تركستان - Turksovnarkom. أما المستعمرة الروسية في آسيا الوسطى، فإن المنطق كان يقضي بأن تنضم إلى المعسكر المناهض للثورة. ولكن - ولعل في ذلك مفارقة جديدة - بدا مجلس السوفيات في طشقند، وهو بلشفي، وكأنه المعقل الأخير للسلطة الروسية من وجهة نظر الروس، فهو وإن كان ممقوتاً بالتأكيد، إلا أنه أفضل كثيراً من نظيره المحلي الإسلامي، الذي كان يُنظر إليه بعين الاحتقار والرغبة والكراهية. وثارَت المخاوف في نفوس الروس في طشقند، وقد انعزلوا في عالم يناصبهم العداء وفُصلوا بعيداً عن بتروجواد فكانوا على استعداد للتحالف مع الشيطان إذا ما أمكنه ضمان حقوقهم والحفاظ على تركستان باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الدولة الروسية أياً كان الثمن. وهكذا جاءت بعض ردود الفعل الوطنية، كالخوف من المسلمين والمصلحة الشخصية دون شك لصالح مجلس السوفيات في طشقند. ومنذ أكتوبر ١٩١٧، رأينا عدداً من الموظفين القدامى والضباط وذوي الأملاك، بل وحتى أعضاء الإكليروس الأرثوذكسي، يساندونه على نحو لم يتوقعه أحد. وكانت سلطة مجلس مفوضي الشعب (Sovnarkom) روسية صرفة منذ البداية. وقد ساندته جماعات أخرى غير إسلامية، منها على سبيل المثال الميليشيات الأرمنية المسلحة، التي ينظمها حزب Dashnaktsütün الاشتراكي القومي، والتي لعبت دوراً رئيسياً في قمع الثورة الإسلامية بوادي الفرغانة وفي المجزرة التي تعرض لها السكان المسلمون بمدينة قوقاند في فبراير ١٩١٨. وكان الأعضاء

الخمس عشرة عشر بمجلس مفوضى الشعب الأول فى (Sovnarkom) فى طشقند جميعهم من غير المسلمين. أما الوطنيون، فقد جرى إبعادهم بذريعة مزدوجة، وإن كانت مقبولة، تدفع بأنه «لما كانت الثورة من صنع الروس، فإنه من العدل أن يناط بهم قيادتها»، و«بما أنه ليس للوطنيين تنظيم بروليتارى، فإنه لا يمكنهم الوصول إلى الهيئات العليا للسلطة الشعبية». ولعله قد غاب عنهم أن الروس فى طشقند لم يكن لهم مثل هذه التنظيمات بدورهم. والواقع أن الثقة التى منحها الروس جميعاً، الثوريون والمناهضون للثورة على حد سواء، للنظام الجديد كان لها ما يبررها. فقد أنقذ مجلس السوفيات فى طشقند الثورة ولا ريب، ولكنه قام، فى ذات الوقت ولا يزال حتى أيامنا هذه، بحماية الوجود الروسى فى آسيا الوسطى.

وقد لقيت الثورة نفس الصدى فى فيافى كيرجيزيا. وفى هذا الصدد كتب «أحمد باى طورسون»، أحد القادة القوميين المحليين، رغم انضمامه إلى النظام الشيوعى الجديد، فى عام ١٩١٩ مانصه:

«استقبل أهالى كيرجيزيا الثورة الأولى (فبراير ١٩١٧) بالترحيب، فى حين استقبلوا الثورة الثانية بمزيج من الذعر والخوف. وتفسير ذلك جد يسير. فقد حررتهم الثورة الأولى من جور النظام القيصرى وأحيت فى نفوسهم الأمل فى تحقيق حلمهم الأبدى فى الحكم الذاتى. (...) أما الثورة الثانية فقد اقترنت بدائرة من العنف وأعمال السلب والنهب والابتزاز، إلى جانب إقامة سلطة ديكتاتورية (...). وموجز القول إنها قدمت صورة للفوضى التامة (...). ف فيما مضى، مارست مجموعة ضئيلة من المستخدمين القياصرة الظلم ضد أهالى كيرجيزيا، أما اليوم فإن تلك المجموعة ذاتها من البشر، أو غيرهم، ممن يتسترون تحت اسم البلاشفة، يعمدون إلى إطالة بقاء نفس النظام إلى الأبد...» كما تعرض أحد القادة الكازاخستانيين ويدعى «تيرار ريسكولوف»، وكان من الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى الروسى، للكتابة حول ذلك الموضوع عام ١٩٢٥ بصراحة كلفتته حياته بعد ذلك ببضعة أعوام فى عام ١٩٣٨، عندما أصدر ستالين حكماً بإعدامه، بقوله: «خلال تلك الأعوام الحالكة، منذ عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٠، كانت سلطة البلاشفة فى تركستان معلقة بخيط رفيع؛ حيث ارتكبت أفدح الأخطاء فى ذلك الوقت، كالتحالف مع حزب Dashnaktsütün فى أرمينيا الذى كان يمارس السلب ضد سكان (الفرغانة)، أو التعاون مع الكولاك الروس فى (سيميريتشى)، أو الغزو العسكرى لبخارى، والتجاهل التام لاحتياجات الفلاحين من سكان البلاد الأصليين. ومن ثم فإن البطولة

والشجاعة التي تحلت بها مجموعة ضئيلة للغاية من الثوريين الوطنيين الذين انضموا إلى الحزب البلشفيكي هي التي يُعزى إليها الفضل في إنقاذ السلطة السوفياتية من كارثة محققة بتوليها قيادة الجموع الوطنية»

(Revolutsiia i Korenoe Naselenie Turkestana, Tachkent, 1925,p. xiii)

في وقت لاحق، عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تخطى القادة السوفييات، وعلى رأسهم ستالين، عن احتكار السلطة لصالح الروس خلال الأعوام الأولى للثورة كبادرة للتعبير عن «الغيرة الوطنية الامبريالية»، إلا أن الآثام التي اقترفت في الأشهر بل وحتى الأسابيع الأولى من عمر النظام كانت وخيمة العواقب. فقد جعلت ردود الفعل القومية أمراً حتمياً، وهي الارتكاسات التي تبلورت منذ عام ١٩١٨، فأخذت في البداية شكل سلسلة من الثورات الشعبية، مثل ثورة البسماتشين في تركستان والثورة التي اندلعت في إقليم داغستان وتشيشينا بالقوقاز، وهي أكثر هذه الثورات مأساوية وبشاعة؛ ثم عاودت الظهور بعد ذلك ببضعة أعوام، بعد سحق تلك الثورات وما تلاها من ممارسات قمعية عنيفة، في صورة الحركة «الغالييفية».

كان سلطان غالييف، ومعه ملا نورفاهيتوف وغالم جان إبراهيموف في بلاد التتر، ووالى إبراهيموف في كرميه، وتيرار ريسكولوف وإسماعيل صادفوكاسوف في كازاخستان، ونجم الدين سامورسكي في داغستان، وناريمان ناريمانوف في أذربيجان، وفيظ الله خودشايف وأكمل إكراموف في تركستان، هم الممثلون النموذجيون لتلك المجموعة الضئيلة من القادة القوميين الذين قرروا، لأسباب مختلفة، الانضمام إلى معسكر البلاشفة وأصبحوا دعاة لما عُرف، في عام ١٩٣٠ والأعوام التي تلتها، باسم «التحول القومي» في وسط الحزب الشيوعي الروسي. إلا أنهم اختلفوا جميعاً، باستثناء «ناريمان ناريمانوف» وحده الذي قضى نحبه بهدوء في فراشه، وإن كان البعض قد ألصق به تهمة «الخيانة»، ذلك اللقب الذي لازمه بعد الوفاة، حيث أصدر ستالين أمراً بتصفيتهم.

كانت ثورة أكتوبر سابقة لأوانها من وجهة نظر المسلمين في روسيا. إذ لم يُتَح لزعمائهم الذين أقعدتهم المفاجأة الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم، أو الاختصاص بأية أجهزة حكومية، أو تجنيد ميليشيات مسلحة، بل ولا حتى وضع برامج سياسية محددة بدقة. وعلى ذلك فإن الحرب الأهلية - على مدى ثلاثة أعوام من المجازر الشرسة الضارية - كانت مسألة روسية صرفة، مع

وجود بعض الاستثناءات. إلا أن المسلمين، إزاء هول المفاجأة، لم يكونوا ليظلوا على موقفهم السلبي كمتفرجين، بينما الممارك تدور على أراضيهم، فى القوقاز، وفى كرميه، كما فى الفولجا وتركستان. غير أنهم لم يكونوا، خلال تلك العمليات، سوى «أدوات» غير «مؤثرة»، عليهم أن يختاروا حلفاءهم وأنصارهم، وكان اختيارهم محدوداً بين شريكين، أو ثلاثة فيما ندر، وجميعهم مكروهون بنفس القدر، إما «الحممر» أو «البيض» - حيث كان يمثل البيض «ديمقراطيون» - أو «ملكيون» فى أكثر الأحيان. وفيما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك اللذين كان يمكن انتهاجهما، فقد اقتصرتا على أضيق الحدود لما كان يكتنفهما من أخطار، سواء كان الأمر يتعلق بالانضمام إلى «الحممر»، أو الانضواء إلى «البيض الديمقراطيين»، أو البقاء على الحياد كمتفرجين سلبين، أو الهجرة، أو أخيراً المحاربة على جبهتين، ضد «البييض» فى البداية ثم ضد «الحممر» بعد ذلك.

بدا الاتجاه نحو «البييض» هو الخيار المنطقى والواعد بدرجة أكبر غداة استيلاء البلاشفة على السلطة. فضلاً عن ذلك، فقد انضمت أعداد كبيرة من المثقفين المسلمين، منذ عام ١٩١٨، إلى القوى المناهضة للثورة التى كان يمثلها فى بداية الحرب الأهلية ائتلاف يضم المعتدلين، والديمقراطيين الدستوريين القدامى، إلى جانب الاشتراكيين المعتدلين، والمناشفة، والاشتراكيين الثوريين اليمينيين. وكان موقفهم تجاه القوميات غير الروسية، إن لم يكن ليبرالياً، فهو واقعى على الأقل. فقد أدركوا أن ثمة حرباً أهلية ستنشب عما قريب على أراضٍ غير روسية، وأنه على الثورة المضادة، حتى تحقق النصر المنشود، أن تتاح لها إمكانية الاعتماد على مساعدة التنظيمات السياسية الخارجية. وقد نجحوا فى ذلك إلى حد ما. وهكذا، فقد استطاعت لجنة أعضاء الجمعية التأسيسية Komitet Tchlenov Utchredil,nogo Sobraniya (أو Komutchy) التى أنشأها عام ١٩١٨ عدد من الاشتراكيين الثوريين اليمينيين فى مدينة سمارة، تكوين ائتلاف حقيقى مناهض للبلاشفة انضمت إليه القوى الوطنية فى بشكيريا تحت قيادة أحمد زكى فاليدوف (توجان)، إلى جانب القوميين الكازاخستانيين فى آلاش أورد، والكوزاك فى أورنبورج بزعامة «دوتوف»، أحد أتباع «هتمان».

كما تعاون البشكيريون بقيادة «زكى فاليدوف»، والكازاخستانيون فى آلاش أورد، كذلك، مع بعض التشكيلات الروسية اليسارية الأخرى المناهضة للبلاشفة، مثل «حكومة سيبيريا الغربية» التى أسسها «جريشان الماظوف» فى (أومسك) و«حكومة سيبيريا» فى

(إيركوتسك)، التي كان يرأسها «أفكسونتيف». ومن المؤكد ولا ريب أن زعماء القوميين المسلمين قد قبلوا التعاون مع الروس «البيض». إلا أن البلاشفة أثاروا الرعب بما أظهره من عنف مطلق، والحاد متشدد، وشراسة عدائية، فضلاً عن «الحملات» التي شنوها ضد كل ما كان يرمز إلى ماضٍ أرادوا طمس معالمه إلى الأبد، - من ديانة وثقافة وعادات - يضاف إلى ذلك على وجه الخصوص كراهية عمياء لطبقة الملاك على اختلاف أنواعهم. إلا أن زعماء الحركة الوطنية الإسلامية كانوا جميعاً ينتسبون إلى طبقات مالكة. ومع ذلك، فإن بقاء الجبهة الديمقراطية الروسية الإسلامية لم يدم طويلاً. فقد سعى الروس، منذ رحيلهم، إلى استغلال حلفائهم المسلمين وقتياً، إلا أنه لم تكن لديهم النية ولا حتى القدرة على تلبية رغباتهم الوطنية. وفضلاً عن ذلك، فقد بدت الجبهة الديمقراطية عاجزة عن التصدي لتيار البلاشفة. إذ كانت تفتقر إلى وجود قوات مدربة على القتال، كما كانت الغالبية العظمى من سلاح الضباط في الجيش القيصري القديم من المنتسبين إلى حزب الملكية الذين ينظرون بعين الاحتقار إلى المناشفة أو الدستوريين الديمقراطيين أو الاشتراكيين الثوريين، كما كانوا يتوجسون منهم كالبلاشفة سواء بسواء. والأدهى من ذلك، أنه لم يكن للجبهة الديمقراطية برنامج سياسي محدد يكفل تعبئة الجماهير. ومن ثم، فإن أيامها كانت معدودة. إلا أنه في خريف عام ١٩١٨، طرأ تغير مشهود في المعسكر المناهض للثورة: فقد جرى اكتساح التشكيلات «الديمقراطية» الضعيفة - دوفا مقاومة من جانبها - على يد عسكريين محترفين، كالأميرال «كولتشاك» في سيبيريا، والجنرالات «دينيكان» في جنوب روسيا، و«يودنيتش» في بلاد البلطيق، و«ميللييه» في أقصى الشمال، في مورمانسك.

اختلفت المرحلة الثانية من الكفاح ضد البلاشفة اختلافاً كبيراً عن المرحلة الأولى. فسرعان ما نجح البيض في تجهيز عدة حربية ضخمة، وهي جيش المتطوعين الذي توافرت له، رغم قلة عدده، قيادة وهيئة من الضباط ذوي الكفاءات غير العادية، تحركهم روح فدائية تعادل ما يتمتع به الحمر إن لم تتجاوزها بمراحل. وقد اتخذت الحرب الأهلية منذ ذلك الحين طابعاً من الضراوة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ. إذ شكلت الهجمات الواسعة التي شنّها مرة بعد مرة «كولتشاك» على نيجني نوفجورود، و«يودنيتش» على بتروجراد، وبالأخص تلك التي قادها «دينيكان» على موسكو، خطراً على وجود النظام السوفيياتي ذاته الذي أصبح، عام ١٩١٩، معلقاً بخيط رفيع. والواقع أنه ينبغي علينا أن نغفل كتابات المؤرخين السوفييات خلال

عصر ستالين وفي وقتنا الراهن، والتي تصور الحرب الأهلية استناداً إلى نهج مفرط في التبسيط ويجانبه الصواب تماماً، باعتبارها مأساة مانوية^(*) بين قوى (الخير والتقدم)، أي البلاشفة، في كفاحها ضد قوى (الشر) مجسدة في «الرجعية»، أي البيض، ونهايتها معروفة ولا ريب. وعلى ضوء المؤلفات التاريخية الراهنة في الاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، نجد أنها تصور الحرب الأهلية بوصفها تلك المسيرة المظفرة لشعب يحمل السلاح مكتسحاً في طريقه الرأسمالية، والبورجوازية، و«الحرس الأبيض»، والرجعية الكهنوتية. أما الصورة التي يقدمها الأدب السوفياتي لأعوام الحرب الأهلية فهي، على الجانب الآخر صورة أكثر واقعية، فضلاً عن كونها تعكس بصراحة بالغة ذلك الشعور الشديد بالكارثة، بل حتى اليأس والقنوط، الذي كان يحسد قادة موسكو آنذاك. إلا أن إنقاذ الثورة قد تحقق، في المقام الأول، نتيجة للأخطاء التي وقع فيها زعماء الثورة المضادة. فقد كان الزعماء البيض، رغم تميزهم كقادة عسكريين، غير محنكين كرجال سياسة. إذ قلما أمكنهم فهم خصومهم، كما أنهم فشلوا في تبرير كفاحهم بعبارات واضحة، كقيلة بشحذ الهمم والطاقات. كانت معركتهم سلبية تماماً في مواجهة ما اعتبروه انحلالاً للامبراطورية، وكان الشعار الوحيد الذي رفعوه هو «من أجل روسيا واحدة لا تتجزأ»، وهي عبارة غامضة أثارت القلق لدى جميع الأجانب في روسيا. والواقع أن هذه العبارة كانت تعني، بالنسبة للزعماء البيض، أن المطالب الاستقلالية والنزعات الانفصالية للأقليات أمر غير مقبول كالنظام الشيوعي تماماً، إن لم يكن بدرجة أكبر، بقدر ما كانت تمثل تهديداً لوجود روسيا كإمبراطورية في حد ذاته. وسرعان ما أوضح الجنرالات البيض لحلفائهم المسلمين أنه لن يجرى الاستجابة لأي من مطالبهم، وأن روسيا المستقبل سوف تكون دولة وطنية روسية حيث لن يتاح للأقليات التمتع بالحكم الذاتي قبل عام ١٩١٧. وفي نوفمبر ١٩١٨، قام الأميرال «كولتشاك» بإقصاء «حكومة سيبيريا» التي كان يرأسها «أفكسونتييف»؛ وبعد ذلك بشهر واحد، قرر «أحمد زكي فاليدوف» ورفاقه، عند اجتماعهم في مؤتمر سري عُقد في جبال الأورال، التخلي عن معسكر البيض. وفي ٢٥ يناير ١٩١٩، أمر «كولتشاك» بحل الوحدات البشكيرية التي كانت تحارب تحت قيادته وإلقاء القبض على قادتها من الضباط. وبعد ذلك ببضعة أيام، في ٣١ يناير ١٩١٩، اجتمع مندوبون من البشكير والسوفييات بإحدى القرى الواقعة خلف خطوط النار للتفاوض على حقوق المرور. وفي

(*) مانوية (مذهب مانى الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام) (المترجمة).

٦ فبراير ١٩١٩، أصدر مجلس مفوضى الشعب أمراً بالعفو عن جميع البشكيريين الذين تخلوا عن «كولتشاك». وفى ١٨ فبراير، قامت الوحدات البشكيرية، معضدة بألقى مقاتل يحملون الأسلحة والعتاد، وعلى رأسهم قادتهم من الضباط، بعبور خط الجبهة، وفى اليوم لآتالى، وقع «زكى فاليدوف» اتفاقاً مبدئياً فى موسكو مع القادة السوفيات بشأن تشكيل حكومة مؤقتة فى بشكيريا تتألف من ممثلين سوفيات وبشكير بنسب متساوية. وبعد ذلك ببضعة أشهر، حذت الوحدات الكازاخستانية (ألاش أورد) حذوهم. وفى مارس ١٩١٩، اجتمع قائدهم «أحمد باى طورسون» سرّاً بالمندوب السوفياتى فى (أومسك)، الكازاخستانى «جانج الدين»، مبعوثاً من قبل لينين. وبعد انسحاب الكتيبة الكازاخستانية بالتدريج إلى القيافى، وقع «باى طورسون» اتفاقاً فى موسكو فى يونيو ١٩١٩ مع كل من لينين وستالين يتم بمقتضاه تأسيس حكومة كازاخستانية مؤقتة تتألف، على غرار الحكومة البشكيرية، من ممثلين سوفيات وكازاخستانيين. وجاء هذا الانتقال فى اتجاه الجيش الأحمر، لوحدة مسلمة تضم خيرة المقاتلين فى الحرب الأهلية، فى اللحظة التى حقق فيها الخصمان على الجبهة الشرقية توازناً فى القوى، حيث كان «كولتشاك» يستعد لشن هجومه الأخير ضد الجبهة الحمراء. وكانت عواقب ذلك الهجوم وخيمة على البيض. أما فى روسيا الجنوبية، فكان الوضع أسوأ. وفى الوقت الذى كان الجنرال «دينىكان» يشن هجومه الأكبر على موسكو فى صيف عام ١٩١٩، قام بحل مجلس الإدارة الوطنى التترى فى (كرىميه)، وأشرك قواته فى معركة دامية ولاطائل من ورائها ضد سكان الجبال المسلمين فى شمال القوقاز. وأدت تلك الحرب الدائرة على جبهتين إلى اندحار الجيوش البيضاء على جبهة موسكو. وكان قصر النظر السياسى من جانب الزعماء البيض، فضلاً عن عجزهم عن إدراك الطابع الحقيقى للثورة ومن ثم اختيار خصمهم الرئيسى، من بين الأسباب الجوهرية التى أدت إلى فشلهم فى النهاية. وبالتالى فإنه عندما سعى الجنرال «رانجل»، خليفة «دينىكان» فى (كرىميه) وآخر زعماء الحركة المناهضة للثورة، فى بداية عام ١٩٢٠، إلى الاتفاق مع التتر فى (كرىميه) ووعدهم بالاستقلال السياسى والثقافى، جاء ذلك الوعد متأخراً كثيراً عن أوانه.

أدرك زعماء مسلمون آخرون بمن يتمتعون بدرجة أكبر من نفاذ البصيرة منذ خريف عام ١٩١٨، أن الروس على اختلافهم، سواء كانوا من الأحمر أو البيض، يتسمون بنفس القدر من البشاعة، وأن ثورة أكتوبر، رغم ما أحدثته من انقلابات، لن تحدث أى تغيير فى العلاقات

الأساسية بين الروس والمسلمين. ومن ثم فقد امتنعوا، بدافع من الحرص والإدراك الواقعي لاحتمالات نشوب صراع معلن ضد السلطة الروسية الحمراء أو البيضاء، عن المشاركة بأي شكل من الأشكال في المعارك التي كانت تجرى تحت سمعهم وبصرهم. ومن بين هؤلاء، كان هناك عدد كبير من ممثلي «رجال الدين» المسلمين الذين رأوا في النضال الثوري بين البيض والحمرة ظاهرة هامشية لا تشكل خطورة على مستقبل الإسلام لا في روسيا ولا خارج حدودها. كما انضم كذلك إلى تلك الفئة قوميون من دعاة الجامعة الإسلامية والجامعة التركية اهتموا بمستقبل تركيا وسائر العالم الإسلامي أكثر من اهتمامهم بمصير روسيا، إلى جانب كل أولئك الذين لم يجرؤوا على الاشتراك في الكفاح المسلح إدراكاً منهم لمدى ضعفهم. وهاجر البعض الآخر خلال الحرب الأهلية أو بعدها مباشرة، مفضلين متابعة المعركة السياسية الدائرة لتحقيق استقلال شعوبهم من الخارج.

وفي بعض الأقاليم النائية عن موسكو حيث كان اتخاذ القرارات في يد البلاشفة المحليين، اتسمت البدايات الأولى للنظام الجديد بمزيج من الفظائع والمجازر وأعمال السلب والنهب، في حين لم تكن السلطات السوفياتية تملك القوة الساحقة الضرورية لوأد جميع حركات المقاومة في المهدي، ولا الهيبة والحكمة الضروريتين حتى يمكن للسكان المحليين تقبلها عن طيب خاطر. ومن ثم، فإنه كان على السوفيات أن يواجهوا ثورات شعبية بالغة الخطورة. وقد أخذت تلك الثورات في كثير من الأحيان طابعاً قاسياً وحاسماً هو طابع الجهاد، حيث وصل المقاتلون في معاركهم إلى أقصى مدى. وعلى نحو ما يجري حالياً في أفغانستان، لم يكن الغرض من القتال هو الانتصار على خصم أكثر عدداً وأفضل عدة بجميع المقاييس، ذاعت شهرته كقوة لا تقهر، وإنما البرهنة على قوة الإيمان بالتضحية بالحياة ذاتها.. هكذا كان الحال في الإقليم الجبلي بشمال القوقاز في داغستان وفي بلاد تشيشان حيث انقسم سكان البلاد الأصليين، منذ بداية الثورة، إلى مجموعات ثلاث:

-مجموعة، ضئيلة عددياً وإن كانت مؤثرة نسبياً، تتألف من المثقفين الشباب التقدميين من الطبقتين البورجوازية والأرستقراطية، انضموا إلى الحزب الشيوعي وحاربوا إلى جانب الأحمر.

* ومجموعة ثانية، ضئيلة عددياً ولا تتمتع بنفوذ كبير، تتألف من العناصر الليبرالية المعتدلة التي تنتمي إلى أصل اجتماعي واحد. وقد سعت تلك المجموعة، دون جدوى، إلى

الحصول على مساندة البيض والمناشفة الجيورجيين، بل وحتى الأتراك فى وقت ما. ولم تتجاوز مطالبها التمتع بحكم ذاتى محدود فى إطار روسيا ديمقراطية ليبرالية.

* أما المجموعة الثالثة فكانت تتألف من عدد من المحافظين الكهنوتيين، تحت رعاية الطريقة النقشبندية، وكانوا يحاربون الحمر والبيض بنفس الحماسة، بل وقاتلوا مواطنيهم المعتدلين أنفسهم فى بعض الأحيان كذلك. وكان زعماء تلك المجموعة يسعون إلى إحياء الدولة الدينية التى دعا إليها «شامل». وكانت مستقلة تماماً عن روسيا حيث خضعت لحماية السلطان الخليفة فى اسطنبول.

أثارت الحرب الأهلية فى شمال القوقاز اضطرابات بالغة اقترنت بإراقة الكثير من الدماء. ودون الدخول فى التفاصيل، فإنه يكفى الإشارة إلى أن الليبراليين المسلمين سرعان ما اختفوا من على الساحة. وظل المحافظون، الذين حاربوا، قبل عام ١٩٢٠، ضد «دينكان» إلى جانب البلاشفة تحت قيادة اثنين من المرشدين النقشبنديين، وهما الإمام نجم الدين دى جوتسو (جوتسينسكى) والشيخ أذن حاج، هم القوة الإسلامية المنظمة الوحيدة بعد أن أعاد الجيش الأحمر الاستيلاء على شمال القوقاز فى ربيع عام ١٩٢٠. وفى سبتمبر ١٩٢٠، كان النقشبنديون على رأس الثورة الكبرى التى قام بها سكان الجبال فى داغستان وفى تشيشينا ضد السوفييات. وقد اتخذ القتال، الذى امتد حتى شتاء عام ١٩٢١، طابع الجهاد المقدس ضد الروس. وكان ذلك أحد التحديات بالغة الخطورة التى واجهها الجيش الأحمر فى الأقاليم الإسلامية الواقعة على الحدود. كما كانت هذه هى التجربة السوفياتية الأولى مع حروب العصابات فى الريف، على غرار حرب المجاهدين الأفغان بعد ذلك بستين عاماً، وهى تجربة لم يكن الجيش الأحمر على استعداد لمواجهةها. وقد شكلت ثورة ١٩٢٠ جانباً من الملاحم البطولية التى تغنى بها سكان الجبال فى القوقاز. هذا ويعد ضريح «أذن حاج»، الذى وافته المنية أثناء الثورة، أحد المزارات المقدسة فى شمال القوقاز فى عصرنا الحالى حيث يؤمه الزوار باعتباره من الشخصيات البارزة الجلييلة. وقد كافح الثوار حتى الرمق الأخير بالمعنى الحرفى للكلمة. ولم يتم أسر نجم الدين جوتسينسكى والبقية الباقية من رفاقه وإعدامهم إلا فى عام ١٩٢٥.

انتهج النظام الجديد فى آسيا الوسطى نهجاً مطابقاً تماماً للنهج الاستعماري، وبدأ فى نظر المسلمين أسوأ إلى حد كبير من نظام الحكومة القيصيرية أو حكومة «كيرينسكى». فقد اشتهر بمجازر بشعة، مثل نهب (كوكان)، فى فبراير ١٩١٨، والذى راح ضحيته نحو ٦٠.٠٠٠

من المسلمين، وغزو إمارة بخارى، فى مارس ١٩٢٨، والذي انتهى بكارثة شهدت، طبقاً لرواية السوفيياتى «جريجورى سافاروف» فى Kolonial, naia Revolutsiia-Opyt Turkesta-na (موسكو، ١٩٢١)، «مذابح وأعمال سلب ونهب وتجاوزات دون حدود، وبصورة غير مقبولة، من جانب جنود الجيش الأحمر». وكانت تلك التجاوزات باعثاً لقيام الثورة الكبرى بين البسماتشين؛ التى بدأت فى ١٩١٨، وامتدت بصورة غير منتظمة حتى عام ١٩٢٨ بل وحتى عام ١٩٣٦ فى بعض الأقاليم. ولفظ (بسماتش)، ويعنى قاطع طريق باللغة الأوزبكية، كان الروس يطلقونه على المناصرين على اختلاف أنواعهم الذين يعملون على نحو مستقل عن بعضهم البعض فى عدة أقاليم. وكان المركز الرئيسى للثورة يقع فى وادى الفرغانة. وبعد غزو الجيش الأحمر لبخارى فى سبتمبر ١٩٢٠، امتدت الثورة إلى الإقليمين الشرقى والجنوبى من إمارة بخارى القديمة، لاسيما جنوبى ما يعرف حالياً باسم أوزبكستان، وهى أراضى قبلية اللوكاى البدوية الكبرى، وفى الإقليم الشمالى من البرارى التركمانية. وعلى ذلك، فإن قيادة الحركة جاءت غير متجانسة: زعماء محليون ينتمون إلى طبقة أعيان القرى أو القبائل، وزعماء قبائل تركمانية أو لوكايبية، وزعماء دينيون تقليديون، ومرشدون صوفيون، إلى جانب زعماء قوميين قدامى من (كوكان) أوغيرها. كما انضم إليهم أحمد زكى قاليدوف، الرئيس السابق للجنة الثورية البشكيرية، وأونفيه باشا، وزير الدفاع التركى المخضرم. إلا أن هذا الأخير لقى مصرعه خلال إحدى المعارك التى جرت عام ١٩٢٢. وقد كانت أهدافهم بسيطة وبدائية إلى حد قد تبدو معه المفاهيم الأيديولوجية والبرامج السياسية غير ذات موضوع فى هذا الصدد. إذ كان الأمر يتعلق بثورة شعبية تلقائية، أولية وفطرية، ضد «الكفرة»، «الطفافة»، تتسم بطابع اجتماعى ودينى. فقد وضعت تلك الثورة الفلاحين الفقراء وبدو بعض القبائل الأوزبكية والكيرجيزية والتركمانية، وجهاً لوجه أمام الغازى الأجنبى القوى، ذلك العدو القديم الذى عاود الظهور فى شكل جديد، وقد عقد النية ليس على الاستيلاء على أراضيهم ومراعيهم وحسب، بل وتدنىس عالمهم الروحى كذلك. ومن ثم، فقد كان القتال ضد البسماتشين ولاريب من أصعب العمليات القمعية التى كان على الجيش الأحمر الاضطلاع بها على مدى تاريخ الاتحاد السوفيياتى بأكمله.

كان أمام المسلمين خيار آخر، يتمثل فى الانضمام إلى صف البلاشفة وقبول الماركسية-اللينينية، بصدق أو بغير ذلك باعتبارها الأيديولوجية السياسية الوحيدة، مع الاستمرار

كمسلمين وقوميين في الوقت ذاته. وقد رجح ذلك الخيار، بشئ من التردد أو دوماً تردد على الإطلاق، عدد كبير من المثقفين، من بينهم عقليات لامعة ومتميزة إلى حد كبير. وتزعم صفوفهم سلطان غالييف «وتيرار ريسكولوف». وكان معظمهم، إن لم يكونوا جميعاً، ينتمون إلى المعسكر القومي، بين مجدددين قدامى، ودعاة راديكاليين إلى الجامعة التركية والجامعة الإسلامية، وأعضاء في اللجنة الاشتراكية بقازان في أحيان كثيرة، أو في الجناح اليساري للبخاريين الشبان في تركستان. وقليلون هم من كانوا يجاهدون، قبل عام ١٩١٧، داخل تنظيمات سياسية روسية (الحزب الاشتراكي الثوري بوجه عام)، إلا أن أياً منهم لم يكن ينتمي إلى الحزب البلشفيكي. وتجدر الإشارة إلى أنه، من بين الأسباب العديدة التي دفعتهم إلى الانضمام لصفوف الحزب البلشفيكي، كان المسلمون يفتقرون إلى دافع واحد، وهو الالتحام التام، بل شبه المقدس، بالماركسية، والذي كان من الأمور الجوهرية بالنسبة للمسيحيين واليهود. فهذا الجانب العقائدي للشيوعية لم يكن بذى أهمية للمسلمين الذين انضوا تحت الراية الحمراء بدوافع عملية أكثر من كونها نظرية. فماذا عساها تكون تلك الدوافع؟

كان البلاشفة يمثلون أهون الضررين. فقصر النظر السياسي من جانب قادة الجيوش البيضاء، فضلاً عن افتقارهم التام للإدراك السليم فيما يتعلق بالمشكلة الوطنية للمسلمين وآمالهم وتطلعاتهم، كل ذلك قد جعل من تقبل البلاشفة أمراً ممكناً. وكان من أوضح الأمثلة على ذلك ما يتعلق بالشكيريين والكازاخستانيين في (آلاش أوردا)، الذين انتقلوا إلى جانب البلاشفة رغماً عن إرادتهم، حيث اضطروا إلى ذلك كرهاً. إلا أن نفس الشئ انطبق كذلك على الأوكرانيين والجيورجيين. يضاف إلى ذلك رد الفعل الطبيعي، لدى من وقفوا موقف المتفرج في البداية، للمبادرة إلى مساعدة المنتصر. وهكذا فإنه بعد الهزيمة التي منى بها «دينكان» في مواجهة موسكو عام ١٩١٩، بدا الحمر في موقع المنتصر المظفر.

ورغم أن البلاشفة كانوا يرمزون إلى المجهول، إلا أن حزبهم كان من المدارس الممتازة، بفضل ما اتسم به من نظام، وتنظيم، وفعالية، إلى جانب أساليبه في الدعاية والتعبئة الجماهيرية، وتنظيمه السري والتأمري. ومنذ عام ١٩١٨، أدرك بعض القادة القوميين المسلمين أنه لن يتسنى لهم، في المستقبل القريب أو البعيد، نيل مطالبهم الوطنية إلا بمحاكاة النموذج البلشفي من قريب، والانضمام إلى مدرسة الثوار الذين نجحوا في الإطاحة بأكبر حكومة ملكية مطلقة في العالم. وهكذا أصبحت الاشتراكية الماركسية هي الصيغة السحرية العالمية، القادرة

على حل جميع مشاكل الأقليات. وأخيراً فإن القوميين المسلمين، بانضوائهم تحت لواء الاشتراكية، كانت آمالهم تتجاوز البلاشفة الروس إلى الحصول على التأييد، أو التعاطف على الأقل، من جانب الحركة الاشتراكية الدولية.

ومن ناحية ثالثة، فإن الوعود التي تضمنتها «رسائل أبريل» التي وضعها لينين، رغم ما اكتنفها من لبس وغموض، قد لوحت للمسلمين ببارقة أمل في إمكانية الحصول على حق الانفصال. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن «دولانية» الثورة الشيوعية من شأنها أن تتيح لهم الحصول بصورة أسرع على المساواة في الحقوق مع الروس. وفضلاً عن ذلك، ألم تكن سلطة الحزب البلشفيكي في يد غير الروس؟ كان «تروتسكي» و«زينوفيف»، و«راديك»، و«كامينيف» من اليهود، كما كان «بيلاكون» مجرباً من أصل إسرائيلي، في حين كان «فرونز» ليتوانياً، «ستالين» و«أوردجونيكيدزه» جيورجيين، كما كان «ميكوايان» و«شاوميان» و«كاراخان» أرمن، و«راكوفسكي» رومانياً، أما «جوف» فكان كارايتياً ولغته الأم التترية. ولم يكن بوسع أحد، حتى من هم أكثر تشاؤماً، أن يتنبأ في عام ١٩٢٠ بأن سيادة الروس سوف تعود من جديد بعد بضعة أعوام، أو أن قادة روسيا الستالينية سوف يسلكون تجاه الأجانب على نحو لم يكن لينكره عليهم «إيفان» الرهيب أو «بيير» الأعظم.

وأخيراً، فإن الأكثر تفاؤلاً، أو بالأحرى من هم أكثر سذاجة، قد ذهبوا في ذلك مذهباً بعيداً، في تصورهم أن الثورة ما هي إلا امتداد، داخل الأقاليم الإسلامية، للحركة الإصلاحية الجديدة التي ستحفظ كل وعودها. واعتقد آخرون، إمعاناً في الجرأة أو في القدرة على التصور، أن ثورة أكتوبر ليست سوى خطوة أولى على الطريق نحو تحرير العالم الإسلامي قاطبة من رقة الأوروبيين، وأنه من شأن الشيوعية، أفضل من أي نظام سياسي آخر، أن تتيح للمسلمين القصاص من المستعمرين جميعاً، بما فيهم الروس. والأرجح أن يكون ذلك هو موقف سلطان غالييف. وموجز القول إن جملة المسلمين تقريباً الذين بادروا، نحو عام ١٩٢٠، إلى اعتناق الماركسية اللينينية كعقيدة رسمية، لم يروا في الشيوعية سوى وسيلة، وإن كانت غير مسبقة إلا أن الآمال كانت معقودة على فعاليتها دون ماعداها في تحقيق ما يصبون إليه من استقلال. وقليلون هم من تصورا أنه يمكن للشيوعية والإسلام لا التحالف بصورة مؤقتة وحسب، بل والمصالحة على نحو دائم ومستمر كذلك. ولم يكن سلطان غالييف بالتأكيد واحداً من ذلك الفريق من الحالمين.

كانت تلك إذن هى الدوافع التى حدث بشق كبير نسبياً من الإنتلجننتسيا الإسلامية فى روسيا إلى التحالف مع البلاشفة. ولعله من الغريب أن هؤلاء لم يولوا اهتماماً كبيراً للإسلام إلا باعتباره مشكلة سياسية، كما أنهم لم يبذلوا أى جهد تقريباً، رغم ما تشير إليه مؤلفات المؤرخين السوفيات فى الوقت الحالى، لاجتذاب العون من جانب المسلمين فى روسيا. وكلنا يعلم موقف الازدراء الذى انتهجه ماركس وإنجلز حيال الإسلام، كما هذا لينين حذوهما فى هذه النقطة، فكان لهما التابع الأمين. وفى أثناء الثورة، بل وحتى خلال الأعوام المساوية التى استغرقتها الحرب الأهلية، أظهر اهتماماً أكبر بالمناقشات الجدلية المذهبية ضد أحد أتباع «كوتسكى» أو الماركسيين الجنوبيين مما أبداه تجاه مشكلة التعايش بين الشيوعية والإسلام. ولم تحظ الأقليات غير البروليتارية، ومن بينها المسلمون، باهتمامه إلا من الناحية التكتيكية البحتة. كما كان يردد دون كلل أنه ينبغى التعامل معهم بمنتهى الفطنة والكياسة، مع تجنب «جرح كبرياتهم الوطنى»؛ إلا أنه لم يسلم بأى اتفاق، أو اتحاد بالأحرى بين العقيدة الماركسية التى ترقى إلى حد القداسة من جانب، والتطلعات الوطنية للمسلمين من جانب آخر. فالأمر يقتضى أن تؤخذ الشيوعية، باعتبارها الحقيقة القاطعة والغاية المنشودة على مدى تاريخ البشرية بأكمله، «جملة واحدة» كما هى، ودون أدنى إضافة أو تعديل أو تجزئة. أما الحلفاء المسلمون العابرون، «رفاق الطريق» أو الشيوعيون المحدثون، فينبغى إعادة تدريبهم حتى يصبحوا شيوعيين بقوة القانون، مثل رفاقهم الروس أو اليهود أو الألمان، وإذا ما أظهروا تدمراً تجاه التربية الجديدة، فليتركوا فى منتصف الطريق حتى ينتهى بهم الأمر كماً مهماً فى صندوق نفايات التاريخ.

الفصل الثالث

رفيق ستالين

نوفمبر ١٩١٧ - أغسطس ١٩١٨

الفصل الثالث

رفيق ستالين

نوفمبر ١٩١٧ - أغسطس ١٩١٨

خلال فترة وجيزة لا تتعدى العشرة شهور، فيما بين سقوط الحكومة المؤقتة وتطور الحرب الأهلية، أرسى سلطان غاليف قواعد تنظيمه الشيوعي الإسلامي المستقل. وتؤكد العزيمة التي اندفع بها في العمل التنظيمي، فضلاً عما تميزت به أفعاله من سرعة ودقة، أن الهدف الذي سعى إلى تحقيقه كان محصلة عمل تمهيدى طويل من تأمل فكري، وربما كذلك مناقشات مع غيره من المجاهدين القوميين اليساريين، وعلى رأسهم صديقه ملا نور فاهيتوف الذي كان قد قرر، مثله تماماً، منذ ما قبل أكتوبر ١٩١٧، أن يلعب بورقة البلاشفة. ومن الأرجح، رغم عدم وجود دلالة واضحة في هذا الشأن، أن مذهب في الشيوعية الوطنية كان قد تبلور بالفعل، في خطوطه العريضة على الأقل. وخلال تلك الفترة السابقة على الحرب الأهلية بما اتسمت به من فوضى وتخبط، حيث لم يكن كثير من الزعماء البلاشفة أو المناهضين للثورة يدركون تماماً ما يتعين عليهم القيام به، أثار نشاط سلطان غاليف الدهشة بقراراته الحاسمة. فقد كان، بعكس الآخرين، أصدقاء كانوا أم أعداء، «يدرك ما يفعله»، وكل ما كان يريده يمكن تلخيصه في عبارة وجيزة: انتهاز جو الفوضى التي كانت روسيا غارقة فيها وحاجة البلاشفة لحلفاء بأي ثمن في الصراع الوشيك من أجل انتزاع تنازلات من قادة روسيا الجديدة، وستالين على وجه الخصوص، نظرية بقدر ما هي عملية، تكون قاطعة على نحو لا يمكن النكوص به على حد اعتقاده، حتى وإن كانت تخالف الماركسية السابقة على لينين من حيث النظرية والتطبيق. وليس ثمة شك في أن تحليل الوضع السياسي لروسيا غداة استيلاء البلاشفة على السلطة، على نحو ما أجراه سلطان غاليف آنذاك، كان منطقياً تماماً، إذا ما علمنا أن القادة البلاشفة، لاسيما ستالين، كانوا في حاجة إلى حلفاء بالفعل، كما كانوا على استعداد للذهاب إلى أبعد مدى على طريق التنازلات. إلا أن الخطأ الذي وقع فيه هو الاعتقاد بكونها قاطعة ولا رجعة فيها.

في أكتوبر ١٩١٧، انضم سلطان غاليف والعديد من رفاقه التتر، ومن بينهم ملا

نورفاهيتوف وغالمجان إبراهيموف، إلى الحزب الشيوعي الروسى، فكانوا من أوائل من بادر إلى ذلك بين المسلمين. إلا أن القرار كان من الصعوبة، بما يحمل على الاعتقاد بأن سلطان غاليف قد عكف طويلاً على تدبر الأمر بتمعن قبل اتخاذ تلك الخطوة التى ربطته إلى الأبد بحزب خضع لسيطرة الروس إلى حد كبير بعيداً عن بتروجراد أو موسكو، رغم ما كان ينادى به من دولانية بروليتارية. وفضلاً عن ذلك، فقد بدا النظام الجديد نظاماً روسياً بحيث ظلت جميع المؤسسات الوطنية التترية المنشأة فيما بين مايو وأكتوبر ١٩١٧ تعمل بعد أكتوبر وكأن شيئاً لم يكن، وكما لو كانت «الثورة» مسألة روسية بحثة لاتعنى الأقليات من قريب أو بعيد. وهكذا، فقد كان انسلاخ التتري عن معسكره الذى ينتمى إليه من أجل الانغماس فى صراع يقف فيه الروس بعضهم فى مواجهة البعض الآخر، لا يمثل فى نظره سوى الخيانة بعينها. وانتشرت إحدى الطرائف على شكل أحجية داخل قازان فى ديسمبر ١٩١٧ على النحو التالى:

«من هو البلشفي التتري؟ - هو شخص فقد عقله فى الحرب فاستبدلوه له بعقل روسى.» ولعل سلطان غاليف كان مدركاً تماماً لخطورة انضمامه إلى الحزب الشيوعي الروسى، وفى ذلك كتب عام ١٩١٨ فى صحيفة Qoyash (الشمس) الصادرة فى قازان، كما لو كان يعتذر ويلتمس الذرائع لنفسه أمام مواطنيه المسلمين، مانصه: «أتيت إلى البلشفية، مدفوعاً بحب جارف يخفق به قلبى تجاه شعبى.»

وفضلاً عن ذلك، فقد بقيت الجبهة الوطنية الإسلامية، التى تألفت فى مايو ١٩١٧ خلال المؤتمر الروسى الجامع الأول للمسلمين فى موسكو وأحكم تنظيمها فى يولية ١٩١٧ خلال المؤتمر الإسلامى الثانى فى قازان، سليمة حتى فبراير ١٩١٨. واستمرت بعض الجماعات السياسية المنتهية إلى أقصى اليسار، من الاشتراكيين الثوريين بل وحتى البلاشفة، فى التعاون مع الليبراليين والاشتراكيين اليمينيين. وعلى ذلك فإنه غداة استيلاء البلاشفة على السلطة، كانت التنظيمات الإسلامية تتضمن ما يلى:

- فى بتروجراد، المجلس الوطنى أو ما يسمى Milli Shuro، وكان يرأسه أحمد بك تساليكوف، أحد المناشفة الأوسيت، أما جهازه القيادى فهو اللجنة التنفيذية، I.K.O.M.U.S.، التى كان يرأسها الاشتراكي الثورى التتري آياز إسحاقى.

- فى قازان، المجلس العسكرى أو ما يسمى Harbi Shuro

- فى أوفسا، الإدارة الوطنية أو Milli Idare، وكان يرأسها التتري الدستورى

الديمقراطى صدرى مقصودى، وتتبعها ثلاث نظارات Nizarat، وقد وجهت، فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٧، الدعوة إلى الجمعية الوطنية (Nillet Medjlisi) للاتعداد، حيث ضمت مجموعة بارزة من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، ومن البلاشفة برئاسة الكاتب التترى غالمجان إبراهيموف.

وحتى يناير ١٩١٨، أظهرت تلك الهيئات المختلفة تأييدها للنظام الجديد إلى حد بعيد. فقد أعلن أعضاء المجلس العسكرى فى قازان، الذين اتخذوا جانب الحياذ خلال الممارك التى جرت فى ٢٥ أكتوبر وأسفرت عن وصول البلاشفة إلى السلطة، غداة الانقلاب «أنهم قد قطعوا على أنفسهم عهداً علنياً مقدساً بمساندة سلطة مجالس السوفيات حتى آخر قطرة من دمائهم». أما فى أوف، فقد انعقد المجلس الوطنى فى جو من الترقب المشوب بالخذر. وفى خلال إحدى الجلسات التى امتدت ثلاثة أيام وتخللتها جلسات مغلقة، رفضت غالبية أعضائه إصدار بيان لتحديد موقفهم من الانقلاب، إلا أنهم دفعوا المعارضة من حزب اليسار إلى إرسال برقية تهنته إلى مجلس مفوضى الشعب فى بتروجراد. وليس ثمة دليل أوضح على وحدة الجبهة الوطنية الإسلامية من انعقاد مؤتمر عام قازان بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩١٧، للتنظيمات الثرية التى كانت تضم ممثلى الأحزاب البورجوازية، والاشتراكيين، وأعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، ومن بينهم سلطان غالييف، بل وحتى البلاشفة، حيث كان الثوريون والمناهضون للثورة يعملون جنباً إلى جنب. غير أن العلاقات تدهورت، فى يناير ١٩١٨، بين السلطة السوفياتية فى موسكو من جانب والتنظيمات الإسلامية من جانب آخر. فبعد حل الجمعية التأسيسية فى ١٩ يناير ١٩١٨، كلفت الجمعية الوطنية المجلس الوطنى بحشد الوحدات الثرية والبشكيرية بغية «حماية إقليم القولجا-الأورال» ضد «أى خطر خارجى»، أبيض أم أحمر على حد سواء. وعلى ذلك فإنه فى أوائل فبراير ١٩١٨، كانت تخضع لقيادة المجلس العسكرى قوة عسكرية مهيبة، قوامها ٢٠٠٠ رجل فى قازان، و ١٠٠٠ فى أوروبورج، إلى جانب عدد يتراوح بين ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ مقسمين بين مدن الإقليم الأخرى: أستراخان، وسمارة، وأومسك، وإيكاترينبورج، إلخ. وعلى هذا النحو، كان المجلس العسكرى الإسلامى يضم عدداً إجمالياً يبلغ نحو ٥٠٠٠ مقاتل.

وعلى الرغم من التهديد الذى كان يمكن أن تمثله تلك الاستعدادات، إلا أن الحكومة السوفياتية لم تحاول الانفصام عن التنظيمات الإسلامية، بل إن لينين أبدى استعداداً لمساندة

الجماعات الإسلامية التي قد تعرب عن رغبتها في الاعتراف بحكومته. إلا أن قادة موسكو كانوا أكثر انشغالا بأمور أخرى تحول دونهم والاهتمام بالشؤون الإسلامية؛ إذ لم تكن قد تبلورت لديهم بعد سياسة محددة فيما يتعلق بالقوميات، كما كان اهتمامهم الرئيسي ذا طابع عملي، يتمثل في كيفية استقطاب حلفاء بإصدار تصريحات رنانة واتخاذ إجراءات تفضيلية شكلية. ومن ذلك النداء الذي وجهه مجلس مفوضي الشعب إلى العمال المسلمين في روسيا والشرق بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧، متضمناً بذل الوعود بأقصى درجات الحرية الدينية وإمكانية تنظيم حياتهم الوطنية «بحرية ودون عقبات»، والقرارات الصادرة عن نفس المجلس فيما يتعلق بنقل مصحف عثمان الشريف المحفوظ في المكتبة الوطنية في بتروجراد إلى المؤتمر الإقليمي الإسلامي، وأخيراً الإهداء الرمزي لبرج سويوم بيك في قازان، رمز القومية التترية، إلى العمال المسلمين ممثلين في اللجنة الاشتراكية في قازان. بل لقد حاول القادة السوفييات الاتفاق مع التنظيمات «البورجوازية»، على أمل أن يعهدوا إليهم بكسب الجموع الوطنية لصالح قضية الثورة. وتحقيقاً لذلك الغرض، اقترح ستالين، مفوض الشعب لشؤون القوميات، على أحمد بك تساليكوف، رئيس المجلس الوطني في بتروجراد، التعاون مع النظام السوفيياتي بشروط ملائمة للغاية: أن يحتفظ المجلس الوطني باستقلاله، وأن يتم تعيين تساليكوف رئيساً لمفوضية الشؤون الإسلامية التي اقترحت الحكومة إنشاؤها في المستقبل القريب. وقد نقل تساليكوف ذلك الطلب إلى الجمعية الوطنية التي رفضت العرض بأغلبية كبيرة. ومن ثم فقد سعى ستالين إلى اجتذاب شخصية إسلامية أخرى من بين أولئك المجتمعين في بتروجراد تمهيداً للاجتماع التالي للجمعية التأسيسية. ووقع اختياره على ملا نورفاهيتوف الذي وافق على الفور. كانت هذه المساومات تجري في ديسمبر ١٩١٧. وخلال تلك الفترة ذاتها أو قبلها مباشرة، وجه ستالين، وكان قد انتهى لتوه من إنشاء مفوضية الشعب لشؤون القوميات (Narkomnatz)، نداءً إلى سلطان غالييف ليتولى إدارة القسم الإسلامي بها. وكان ذلك منعطفاً حاسماً في حياة سلطان غالييف.

غير أننا نجهل تماماً البواعث التي دفعت ستالين إلى اختيار ذلك القائد التتري الشاب. كان سلطان غالييف ولاريب حديث العهد بالشيوعية والبلشفية، إلا أن أحداً، ولا قادة موسكو أنفسهم، لم يكن بوسعهم إلا أن يأخذ ماركسيته الوليدة مأخذ الجد. فقد كان الجميع في قازان يدركون أن سلطان غالييف قومي متشدد وعدو للروس. وإذا ما علمنا مدى الدقة المذهبية التي

كان البلاشفة الأوائل يختارون بها المرشحين للحزب الشيوعي، فإنه قد يساء فهم ما انتهجوه من ليبرالية متطرفة عندما كان الأمر يتعلق بانضمام زعماء مسلمين إلى الحزب ممن لم يكن لحساسهم نظير سوى جهلهم بالماركسية. إلا أن أسباب اختيار قوميين مسلمين لعضوية الحزب تتضح إذا ما سلمنا بأن قادة موسكو قد أدركوا، منذ ديسمبر ١٩١٧، أن انتصارهم كان من السهولة بما يتعذر معه استمراره، وأن «الجولة» الثانية في مواجهة الخصم المهزوم وإن لم يكن قد تلقى الضربة القاضية بعد هي أمر جد وشيك. وكان على ستالين، في غياب المسلمين الماركسيين والبروليتاريين، أن يلجأ إلى القوميين من أصل بورجوازي أو أرستقراطي، وكانوا يتحدثون الروسية بطلاقة دون غيرهم. ثم اعتمد بعد ذلك على الديناميكية الساحقة للماركسية اللينينية من أجل إعادة تدريب رفاق الطريق وتحويلهم إلى شيوعيين حقيقيين. ولم يكن لأحد أن يتنبأ في ذلك الوقت، خلافاً لتأكيدات كارل ماركس وسائر أنبياء الماركسية، بما فيهم لينين ذاته، بأن القومية، لاسيما القومية الإسلامية، يمكن أن تفوق الشيوعية من حيث قدرتها على التعبئة الجماهيرية. غير أنه ليس من المستبعد كذلك أن ستالين قد أدرك، منذ عام ١٩١٨، أن التحالف بين البلاشفة والمسلمين حتى من انضموا منهم إلى الماركسية هو مجرد تحالف عابر، وأنه سوف ينتهي حتماً بالتصفية الدموية لأطرافه.

ومالبت ستالين أن كلف سلطان غالييف بزيارة شاملة للأقاليم الإسلامية. ومن ثم فقد توجه إلى سيبيريا الغربية، وكريميه، وشمال القوقاز، وتركستان، بل وحتى باكو. إلا أن التقارير التي أعدها ظلت مدفونة للأسف في محفوظات مفوضية الشعب لشؤون القوميات، بعيداً عن متناول المؤرخين الغربيين منهم والسوفييات على حد سواء. غير أن الشيء المؤكد هو أن تلك الزيارات قد أتاحت لسلطان غالييف أن يلمس بنفسه ذلك المسلك المتعجرف و«الاستعماري» من جانب البلاشفة الروس المحليين تجاه المسلمين الذين كانوا يلقون الاحتقار والاضطهاد بصورة مزدوجة، باعتبارهم «مؤمنين» و«غير بروليتاريين» في آن واحد. كما يمكن الاعتقاد كذلك بأنه قد اكتسب، لدى عودته من تلك البعثات، في ربيع عام ١٩١٨، قناعة مؤداها أن البروليتاريا الأوروبية، بما فيها البروليتاريا الروسية، سوف تعتمد، فيما يتعلق بالسياسة الوطنية، إلى انتهاج السياسة القديمة المتمثلة في استغلال وقهر الطبقة البورجوازية، في مواجهة الأقليات الإسلامية.

لم تلبث سلطة سلطان غالييف داخل مفوضية الشعب لشؤون القوميات أن اتسعت بشكل

ملموس. فقد أصدر مجلس مفوضى الشعب مرسوماً فى ١٥ فبراير ١٩١٨ يقضى بإنشاء «كلية» ملحقة بمفوضية الشعب، تكون بمثابة جهاز مصغر للتوجيه الأيديولوجى، وهيئة خبراء حقيقية لستالين، يرأسها ذلك الأخير، ويشارك فيها سلطان غالييف. وفى ١٩ يناير ١٩١٨، صدر مرسوم من مجلس مفوضى الشعب يقضى بإنشاء المفوضية المركزية للشؤون الإسلامية لروسيا الداخلية وسيبيريا، (Tsentralnyi Kommissariat po delam Musulman Vnu-trennei Rossii i Sibiri) التى اشتهرت باسم المفوضية الإسلامية Muskom، وكانت ملحقة بمفوضية الشعب لشؤون القوميات. وقد عُين ملا نورفاهيتوف رئيساً لها، يعاونه نائبان للرئيس، هما غالمجان إبراهيموف، وهو كاتب تترى، اشتراكى ثورى يسارى، وعضو فى الجمعية الوطنية، ممثلاً عن «حكومة» أوقا، وشريف ماناتوف، وهو بشكيرى اشتراكى يسارى. كما جرى تعيين سلطان غالييف فيها اعتباراً من يولية ١٩١٨، ممثلاً عن الحزب الشيوعى. وقد أسهمت تلك الهيئة إلى حد كبير فى تسييس و«بلشفة» المجتمع الإسلامى فى روسيا. ومع أنها قد أنشئت بقرار من الحكومة السوفياتية، إلا أن المفوضية الإسلامية قد سبقها ازدهار تلقائى لمؤسسات مماثلة فى جميع الأقاليم الإسلامية بروسيا. فقد ظهرت المفوضات الإسلامية الأولى منذ انقلاب أكتوبر، بفضل نشاط التنظيمات المحلية، كاللجان الاشتراكية، والخلايا البلشفية، وجماعة الاشتراكيين الثوريين اليسارية، وكانت تتبع الجمعية الوطنية فى بعض الأحيان على أساس التنظيمات «البورجوازية» القديمة، وبنفس الجهاز الإدارى غالباً. وعلى ذلك، فإنه عشية الهجوم الذى شنته الجيوش البيضاء على الفولجا فى يولية ١٩١٨، كانت كل أقاليم روسيا الأوروبية التى يقطنها سكان مسلمون على قدر من الأهمية مغطاة بشبكة كثيفة من المفوضات الإقليمية، فى الريف والحضر على حد سواء، يسيطر عليها جميعاً متحزبون قوميون انضموا إلى النظام الجديد. كان اهتمام المفوضية الإسلامية، على نحو ما يقتضيه هيكلها ذاته، منصباً على حياة المسلمين فى روسيا بكافة جوانبها. وكانت تضم عدة شعب هي شعبة العمل، والزراعة، والصناعة، والتعليم، والصحافة، والمالية، والعدل، والجيش، والدعاية الدولية، كما كانت تنقسم إلى خمسة أقسام جغرافية هي بشكيريا، والقوقاز، وكريميه، وتركستان، وكيرجيزيا (كازاخستان). وفى صيف عام ١٩١٨، كانت لها فروع فى ست وعشرين مدينة رئيسية فى روسيا.

كان من شأن بعض الإجراءات المتخذة فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ توسيع اختصاصات

المفوضية المركزية الإسلامية، فضلاً عما أتاحته من زيادة إمكانيات الحركة لدى كل من سلطان غاليف وفاهيتوف. فقد أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات مرسوماً في ٢٧ يناير ١٩١٨ يقضى بوضع جميع الأقسام الإسلامية في مجالس السوفيات المحلية تحت سلطتها. وبعد ذلك بخمسة أشهر، أصدر مجلس مفوضى الشعب مرسوماً في ٢٩ يونية ١٩١٨ يقضى بضم المفوضيات الإسلامية أو Muskom إليه، بالإضافة إلى بعض اللجان على مستوى الأقاليم gubmuskom والمقاطعات أو uezdmuskom. كما صدر في نفس اليوم، مرسوم آخر عن نفس المجلس بإنشاء المجمع المركزى العسكرى الإسلامى (Tsentrmsvoenkollegiya)، حيث يتبع مفوضية الشعب لشؤون الحرب من الوجهة النظرية، وإن كان يخضع للمفوضية المركزية الإسلامية من الناحية الفعلية. وكان سلطان غاليف أول من يرأسه، ومن بين أعضائه فاهيتوف. إلا أن أهم المفوضيات الإقليمية وأكثرها نشاطاً كانت مفوضية قازان التى أنشئت في ٢١ فبراير ١٩١٨ ورأسها سلطان غاليف للمرة الأولى كذلك. وفي البدايات الأولى للنظام السوفياتى، لم تكن تلك الهيئات الإسلامية المختلفة، المستقلة عن مجالس السوفيات المحلية، تخضع إلا للمفوضية المركزية الإسلامية. بل إن بعضها قد أنشئ ضد الإرادة الصريحة للتنظيمات السوفياتية المحلية التى يسيطر عليها الروس. ومن ثم فقد شكلت نواة لإدارة إسلامية مستقلة، أى دولة حقيقية داخل الدولة، كانت تمثل للجموع الإسلامية، فى وقت اتسم بالفوضى البالغة من نواح عديدة، المركز السياسى والتنظيم المنوط بالتعليم والعمل والعدل والشؤون العسكرية فى آن واحد، لاسيما تعبئة وحشد الإرادات داخل الوحدات الإسلامية الحمراء..

ولم يلبث سلطان غاليف أن أدرك بعد ذلك الأهمية الرئيسية التى مثلتها المفوضيات الإسلامية خلال الأشهر الأولى للثورة:

« لعبت المفوضيات الإسلامية فى البداية دور مجالس القيادة الثورية للحركة الثورية. إذ لم تقتصر على معاونة مجالس السوفيات المحلية فحسب، بل كانت تمثل السلطة العامة كذلك، باعتبارها أجهزة سياسية وإدارية فى نفس الوقت. وقد قامت بعمل ضخم، لاسيما فى مجال التحريض الدعائى والنهضة الثقافية. »

كانت المفوضية المركزية الإسلامية تختص مباشرة بالدعاية السياسية بين المسلمين عن طريق الصحافة. إذ قامت، فى غضون عشرة شهور، من يناير إلى نوفمبر ١٩١٨، بإصدار أكثر

من ٤ ملايين نسخة من الصحف باللغات التترية والكيسرجيزية والتركية، بالإضافة إلى ٢٢٩٥٠٠ نسخة من الكتيبات والنداءات والبيانات المختلفة. ففي موسكو، ظهرت صحف Tchulpan (نجمة الصباح) وتصدر منها ٥٠٠٠٠ نسخة، و Qzyl Armiya (الجيش الأحمر) الموجهة إلى المقاتلين المسلمين، و Eshche (العامل)، وكلها تصدر باللغة التترية. وفضلاً عن ذلك، فقد كان لكل من المفوضيات الإسلامية الإقليمية صحيفتها الناطقة بلسانها، مثل (العمل) في قازان، و Köresh (النضال) في أوبا، و Tartysh (القتال) في أستراكان. وكان سلطان غالييف يشرف على ذلك العمل الضخم، حيث اضطلع بنفسه بترجمة النصوص الأساسية للماركسية التي سبق ترجمتها للروسية إلى اللغة التترية، مستفيداً في ذلك بملكاته الصحفية القديمة.

وإلى جانب نشاطه داخل مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وفي المفوضية المركزية الإسلامية، في سبيل توفير إدارة ذاتية ومستقلة للمسلمين في روسيا بعيداً عن سيطرة مجالس السوفيات، أراد سلطان غالييف، منذ يناير ١٩١٨، إرساء دعائم حزب شيوعي إسلامي مستقل. إذ لم تكن أية جماعة سياسية إسلامية قد تبنت رسمياً برنامج الحزب البلشفيكي حتى قيام ثورة أكتوبر. وعلى ذلك، فإنه لم يكن أمام الثوريين المسلمين خيار آخر سوى الانضمام بصفة فردية إلى الحزب الشيوعي الروسي، أو الالتفاف حول اللجنة الاشتراكية الإسلامية في كازان، التي أصبحت اللجنة المركزية للاشتراكيين الشيوعيين المسلمين (Märkez Müsülman Sosialis-Kommunistlar Komiteti)

في يناير ١٩١٨. ورغم انضمامهما بصفة شخصية إلى الحزب الشيوعي البلشفيكي، إلا أن سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف، بدلاً من تشجيع رفاقهما على الحذو حذوهما، سعياً منذ البداية إلى الحفاظ على الاستقلال التنظيمي للشيوعية الإسلامية، معارضين الانضمام إلى الحزب الشيوعي الروسي بدافع عدم الثقة بالروس. فقد أدرك سلطان غالييف على الفور أنه إذا ما انضم المسلمون إلى الحزب الشيوعي البلشفيكي الروسي، الذي يسيطر عليه الروس، فإنهم سوف «يغرقون»، بالمعنى الحرفي للكلمة، داخل كتلة غريبة سرعان ما ستناصبهم العداء. ومن ثم فإن الفلاحين والحرفيين التتر، وهم لا يجيدون الروسية أو لا يتحدثون بها على الإطلاق، سوف يعاملون باعتبارهم «شيوعيين من الدرجة الثانية»، قدر لهم أن يمثلوا أقلية لا تملك سوى الامتثال لقانون الأغلبية الروسية. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى قيام علاقات «ذات طابع

استعماري» بين الروس والتتر داخل الحزب الشيوعي. ولا يملك سوى عدد من القادة، مثله هو أو فاهيتوف، الانتماء إلى الحزب الشيوعي الروسي وإلى الحزب الشيوعي الإسلامي في ذات الوقت، بدافع حسابات وتقديرات معينة.

وفي ٨ مارس ١٩١٨، دعا سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف إلى انعقاد مؤتمر العمال المسلمين في روسيا بموسكو، حيث ضم شيوعيين ومتعاطفين من قازان، وموسكو، وبتروجراد، وأرخانجيلسك، ومورمانسك، وسمرقند، وقوقند. وقد استمر المؤتمر عشرين يوماً وكان محور اهتمامه الرئيسي هو دعم وتنظيم اللجان الاشتراكية الشيوعية الإسلامية على غرار لجنة قازان، وعلاقات تلك اللجان بالحزب الشيوعي الروسي. ورغم مساندة السياسة المنتهجة من قبل حكومة موسكو، إلا أن القادة التتر قرروا الحفاظ على الاستقلال التام للحركة الشيوعية المحلية. ولم يكن للحزب الاشتراكي الشيوعي الإسلامي الذي أسسوه، رغم الاسم الذي يحمله، ارتباط بالحزب الشيوعي الروسي، كما لم تكن عضويته قاصرة على الشيوعيين وحدهم. بل كان عليه، من وجهة نظر قادته، أن يصبح، كاللجنة الاشتراكية في قازان، «لسان حال الثوريين المسلمين جميعاً الذين قبلوا برنامج الحزب الاشتراكي بدرجة أو بأخرى». وبناءً على اقتراح من «برهان منصوروف»، الذي اتضح فيما بعد أنه من أشد الموالين حماساً لسلطان غالييف، تم وضع اللجنة المركزية الاشتراكية الشيوعية الإسلامية على رأس الحزب الجديد، حيث رأسها ملا نور فاهيتوف ومثلتها هيئة تنفيذية تتألف من زهاء اثني عشر عضواً، من بينهم سلطان غالييف، وفاهيتوف، وب. منصوروف، تكون بمثابة «الجهاز الحاكم لجميع التنظيمات الإسلامية في روسيا». وقد جرى مؤتمر مارس ١٩١٨ في جو من الحماس البالغ. ورغم اتخاذ القرارات بالإجماع، إلا أنها شكلت، من وجهة نظر البلاشفة الروس، أحد المظاهر الصارخة وغير المقبولة للقومية، طالما أن المندوبين قد بذلوا جهدهم ليس لفصل الحركة الثورية الإسلامية عن الحزب الشيوعي الروسي فحسب، بل سعوا كذلك إلى تقليص سلطة التنظيمات التابعة لمجالس السوفيات وللحزب، لصالح التنظيمات الإسلامية المستقلة.

وفي هذه الأثناء، برزت في قازان مأساة القطيعة بين النظام السوفياتي الجديد والتنظيمات القومية الإسلامية التي بقيت في حيز الوجود. ورغم أن خل تلك التنظيمات «البورجوازية»، التي أدت إلى بعض الازدواجية في تنظيم مجالس السوفيات، قد تقرر ولا ريب في موسكو، خلال أعلى اجتماع قمة للحزب الشيوعي الروسي، إلا أن سلطان غالييف كان له

دور أساسى فى ذلك. فقد قدر، فى الواقع، أنه حتى يمكن لهرطقته الفكرية أن تلقى قبولا لدى رفاقه الروس، لا ينبغي لأية تنظيمات «بورجوازية» تترية أن تتمسك بتلك الأفكار ذاتها. غير أن القطيعة الرسمية والنهائية قد انتهت بانعقاد المؤتمر العسكرى الثانى للمسلمين فى روسيا، بقازان مرة أخرى، الذى استمر من ٨ يناير وحتى ٣ مارس ١٩١٨، وحضره مائة وخمسون مندوبا عن الفرق العسكرية الإسلامية، ورجال الدين والتنظيمات السياسية التترية والبشكيرية، لا سيما قادة المجلس الوطنى فى بتروجراد، «إسحاقى» وتوكتار، ومن الإدارة الوطنية «مقصودى»، إلى جانب ممثلى الشعوب الأجنبية غير المسلمة فى فولجا الوسطى، من ماريين وتشوقاشيين وموردفيين وأودميرتيين. وكانت الغالبية تنتمى إلى جماعات الوسط والجماعات الاشتراكية المعتدلة، الاشتراكيين الثوريين اليمينيين، والمناشفة، والدستوريين الديمقراطيين، الذين كانوا يسيطرون تماما على المجلس العسكرى، فى حين كان جناح اليسار والبلاشفة والمتعاطفون معهم يمثلون أقلية من خلال ثلاثين مندوبا. إلا أن المؤتمر لم يشأ الانفصام صراحة عن حكومة موسكو، بل إنه أجرى التصويت على قرار يهنئ مجلس مفوضى الشعب على قيامه بحل الجمعية التأسيسية. وقد ثار النزاع حول مشكلة ليست مذهبية بقدر ما هى عملية، إذ أيد المندوبون بأغلبية كبيرة القرار الذى اتخذته الجمعية الوطنية من قبل بإنشاء «دولة إيديل-أورال»، بحيث يشمل إقليمها بلاد التتر وبشكير، و«حكومة» أوبا بالكامل، وجزءا من كازاخستان الحالية، وأقاليم تشوقاش وماريى المحمية بقوة الوحدات الإسلامية التابعة للمجلس العسكرى. إلا أن حزب اليسار رغم كونه أقلية قد عارض تلك النقطة الأخيرة، موجهاً الاتهام إلى المؤتمر بالعمل على إثارة صراع دموى بين الديمقراطيتين الإسلامية والروسية، وغادر أعضاء الجلسة فى ١٧ فبراير. وبعد ذلك مباشرة، قرر مجلس السوفيات فى قازان التدخل. فأنشأ، فى ٢١ فبراير، مفوضية إسلامية فى قازان تحت رئاسة سلطان غالييف، ثم قام، بعد ذلك بخمسة أيام، بتشكيل مجلس أركان حرب ثورى يتألف من سبعة أعضاء بينهم اثنان من التتر، هما سلطان غالييف وياكوبوف. وفى نفس اليوم، أعلنت الأحكام العرفية وتم إلقاء القبض على قادة المجلس العسكرى، وكانوا أعضاء فى مجلس رئاسة المؤتمر. أما الزعماء القوميون الآخرون الذين لجأوا آنذاك إلى الضاحية التترية فى قازان فيما وراء بحيرة بولاق، فقد أعلنوا قيام جمهورية ماوراء بولاق (Zabulatchnaia Respublika). وكان ذلك إيذانا بانتهاء القطيعة بين القوميين التتر ومجلس السوفيات فى قازان. إلا أن ذلك الأخير كان من الضعف بحيث

عجز عن التصدي بقواته للوحدات التتيرية المتحصنة خلف بحيرة بولاق، مما دعاه إلى طلب العون من موسكو. وفي ٢٨ مارس، جاء مدد من ثلاثمائة من القوات البحرية في كرونستات، فرقة الصاعقة الثورية، التي أجهزت بسهولة على المعقل الإسلامى فى اليوم التالى، فجاءت على يدها نهاية جمهورية ماوراء بولاق، تلك المحاولة الفريدة، وإن لم يقدر لها الاستمرار طويلاً، من جانب البورجوازية التتيرية للانفصال فعلياً عن الدولة الروسية. وكانت القوات المحلية الوحيدة التى يمكن للبلاشفة فى قازان الاعتماد عليها، فى صراعهم ضد جمهورية ماوراء بولاق، ممثلة للمرة الثانية فى الطريقة الصوفية المسماة كتيبة رب فيزوف، والتي لقي شيخها الأكبر، إيفان فيزوف، حتفه وهو يحارب ضد إخوته فى الدين. وهكذا، فقد كان الواقع فى قازان، فى فبراير ١٩١٨، بعيداً تماماً عن الصورة المانوية للصراع بين «الخير» الشيوعى والبروليتارى ضد «الشر» الرجعى والدينى، التى يقدمها المؤرخون السوفييات المعاصرون. واقترب اختفاء جمهورية ماوراء بولاق بتصفية جميع التنظيمات التتيرية «البورجوازية». وقد عهدت مفوضية الشعب لشؤون القوميات بتلك المهمة إلى قادة المفوضية المركزية الإسلامية الجديدة- ومن بينهم سلطان غالييف-، الذين اضطلوعوا بها بهمة ونشاط لامثيل لهما، إلا أن تلك التصفية لم تتخذ أبداً شكل صراع طبقي داخل المجتمع الإسلامى. إذ كان الأمر لا يتعلق على الإطلاق، من وجهة نظر سلطان غالييف ورفاقه، بالقضاء مادياً على طبقة معينة، هى البورجوازية، لصالح البروليتاريا الوطنية التى لا وجود لها، وإنما ببساطة استبدال تنظيم سياسى يسيطر عليه ممثلو البورجوازية الراقية والمتوسطة، بآخر هو لسان حال تلك البورجوازية ذاتها، ليكون على رأس الحركة الوطنية والثورية التتيرية. وعلى ذلك فإنه لم تكن هناك اختلافات سياسية جوهرية بين الأحزاب المتنافسة، بل التقت أهدافها الأساسية، وهى الاستقلال السياسى فى مواجهة الروس، وإنشاء دولة وطنية إسلامية.

كانت الإجراءات الأولى ضد التنظيمات القومية البورجوازية تتعلق بالتشكيلات العسكرية. فقد أصدرت المفوضية المركزية الإسلامية فى ١١ مارس ١٩١٨ قراراً يقضى بحل فيلق الحرس الإسلامى فى بتروجراد، كما أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات قراراً فى ٢٦ مارس بإلغاء المجلس العسكرى للجامعة الروسية بجميع فروع الإقليميه. وفى ٢ (١٥) أبريل ١٩١٨، بدأت المفوضية المركزية الإسلامية الهجوم على صحافة المعارضة، حيث أصدرت أمراً بوقف صدور صحيفة II التتيرية الاشتراكية المعتدلة الصادرة فى بتروجراد، وكان يديرها

«آيازاسحاقى»، بسبب «نشاطها المناهض للثورة». ولم تلبث صحف «بورجوازية» أخرى، مثل Kurultay و Bezenen-Tavyh و Chingis Balasy و Ittifak ، أن لقيت نفس المصير. وأخيراً فقد أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى ١٢ (٢٥) أبريل، مرسوماً وضع نهاية لوجود المجلس العسكرى، كما قامت القوات التتارية والبشكيرية المحلية التى انضمت إلى النظام الجديد، فى نفس اليوم، بحل الجمعية الوطنية فى أوفاء، وهو الإجراء الذى مالبث أن اتخذ الشكل الرسمى بمرسوم آخر أصدرته المفوضية فى ٢٢ مايو ١٩١٨. وفى ربيع عام ١٩١٨، كانت الحركة الوطنية التتارية «البورجوازية» قد اختفت من حيز الوجود. فقد هاجر بعض قادتها إلى تركيا أو اليابان أو ألمانيا، فى حين هلك بعضهم الآخر خلال فترة «الشيوعية العسكرية» ومنذ ذلك الوقت، لم تجد القومية الإسلامية وحركة المقاومة المناهضة للمركزية من جانب موسكو تعبيراً عنها إلا داخل الحزب الشيوعى.

كان سلطان غالييف يسعى، غداة تلك الأحداث جميعها، إلى مواصلة العمل فى سبيل استقلال الحركة الثورية الإسلامية عن سيطرة رفاقه البلاشفة، عن طريق تحقيق الأهداف الثلاثة التى وضعتها البورجوازية التتارية لنفسها من قبل وهى: إنشاء حزب سياسى تقتصر عضويته على المسلمين وحدهم، وتشكيل وحدات عسكرية إسلامية، وتأسيس دولة كبرى يمثل المسلمون غالبية السكان فيها. وخلال أشهر الهدنة التى أتاحت له قبل أن تهب عاصفة الحرب الأهلية على روسيا الشرقية، قام سلطان غالييف بنشاط غير عادى، واصل فيه العمل ليل نهار، متنقلاً باستمرار بين موسكو وقازان. الا أننا لانعلم الكثير عن تلك الفترة من حياة سلطان غالييف، فهو لم يخلف وراءه أية مذكرات، كما أن مؤلفاته التى كتبها قبل عام ١٩١٩ غير متوفرة لدينا. وتقدم لنا بعض الذكريات النادرة التى يرويها المعاصرون فى هذا الشأن صورة لرجل فى مرحلة الشباب، يبلغ الثامنة والثلاثين من العمر، له طلعة رومانسية بهية، يتميز بدقة التفكير، مقل فى كلامه، فضلاً عما كان يجده من صعوبة فى الاتصال بالآخرين. كان يبدو زاهداً وميلاً إلى العزلة وسط رفاقه فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، من الروس أو اليهود أو الجيورجيين، الذين كانوا يتسمون بالتوتر المفرط وذلاقة اللسان. وكان يشك فى إمكانية أن يربطه بأستاذه ستالين أى شعور بالصدقة، بل وحتى الاحترام المتبادل، كما أن ذلك الأخير لم يكن يسمح لنفسه بمثل هذا الضعف الإنسانى. أما الزعماء البلاشفة الآخرون، الذين استغرقهم تماماً الإعداد للثورة فى ألمانيا، وهى من وجهة نظرهم المرحلة الأولى والضرورية للثورة العالمية،

فإنهم كانوا لا يشعرون حتى بوجود ذلك الشرقي الشاب، المنشق عن المعسكر القومي، إلى جانبهم. فقد كان سلطان غالييف في نظر أي تروتسكي أو زينوفيفي أو راديكي لا يزيد كثيراً عن أي عامل ألماني أو بولوني.

إلا أن النذر الأولى للحرب الأهلية كانت قد بدأت تظهر، منذ مطلع عام ١٩١٨، في موسكو وبتروجراد. ففي فبراير، سارت القوات الألمانية نحو نارفا ومينسك وكيف؛ وفي مارس، دخل الجيش التركي إلى ماوراء القوقاز، كما نزل الانجليز إلى مورمانسك في ٩ مارس. وتشكلت في كافة الأنحاء حكومات مستقلة معادية لسلطة موسكو. وفضلاً عن ذلك، فقد قررت مفوضية الشعب لشؤون القوميات في ٢٣ مارس ١٩١٨، رغماً عن معارضة التنظيمات المحلية الروسية، إصدار مرسوم بشأن «الجمهورية التترية البشكيرية التابعة للاتحاد الفدرالي الاشتراكي السوفياتي الروسي»، وضعه سلطان غالييف وفاهيتوف، وأشار كما في ذلك على الأقل، فتحقق بذلك الحلم القديم لجميع القوميين المسلمين في روسيا في أن تكون لهم دولة إسلامية مستقلة كبرى.

«انطلاقاً من مبدأ حق تقرير المصير الوطني للجموع الكادحة، الذي أقره المؤتمر الروسي الجامع الثالث لمجالس السوفيات، أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات، بالاتفاق مع المفوضية المركزية الإسلامية لروسيا الداخلية، القرار التالي بشأن الجمهورية التترية البشكيرية: (١) يُعلن إقليم الأورال الجنوبي وفولجا الوسطى باعتبارهما الجمهورية السوفياتية التترية البشكيرية وتتبع الاتحاد الفدرالي الاشتراكي السوفياتي الروسي.

(٢) يُعتبر مشروع التنظيمات الثورية التترية والبشكيرية خطأ إرشادياً لترسيم الحدود التي تشمل حكومة أوبا، والقسم البشكير من حكومة أورونبورج، وحكومة قازان باستثناء القسم التشوفاشي والتشيريميسي، إضافة إلى الأقسام الإسلامية المتاخمة لحكومات بيرم وفياتكا وسيمبيرسك وسمارة. ويُعهد بمهمة ترسيم الحدود النهائية للحكومة إلى المؤتمر التأسيسي لمجالس السوفيات في تلك الجمهورية.

(٣) يحدد المؤتمر التأسيسي لمجالس السوفيات في الجمهورية التترية البشكيرية العلاقات السياسية والاقتصادية للقسم الغربي والقسم البشكير من الجمهورية.

(٤) تعين المفوضية المركزية الإسلامية لجنة تحضيرية يُعهد إليها بمهمة دعوة المؤتمر التأسيسي لمجالس السوفيات إلى الانعقاد.

وعلى الرغم مما تضمنه القرار من ألقاظ غير محددة عمداً، إلا أن الوعد الرسمي بإقامة جمهورية وطنية إسلامية تمتد على منطقة شاسعة من الفولجا الوسطى والأورال الجنوبية، وتشتمل على عدد من السكان يتراوح بين خمسة إلى ستة ملايين نسمة، كان يمثل انتصاراً كبيراً للشيوعيين التتر. وفي محاولة من جانبه لاستغلال ذلك إلى الحد الأقصى، دعا ملا نور فاهيتوف، منذ نهاية شهر أبريل، إلى انعقاد مؤتمر في قازان للشيوعيين والمتعاطفين معهم من المسلمين في «حكومة» قازان، من أجل إرساء أسس الدولة الوطنية الجديدة. وقد صوت المندوبون، في جو من الحماس «القومي» والإسلامي الجامع، على قرار يطالب بإنشاء الجمهورية التتيرية البشكيرية على نحو عاجل، باعتبارها المرحلة الأولى من البرنامج الذي وضعوه للجامعة الإسلامية الراديكالية. وبعد توجيه الشكر إلى لينين وستالين على ما قدماء من عون، أعلنوا مايلي: «إننا نود أن تكون الجمهورية التتيرية البشكيرية هي البؤرة التي تنطلق منها شرارة الثورة الاشتراكية إلى قلب الشرق». وفي المقابل، فقد أثار نشر المرسوم الصادر في ٢٣ مارس معارضة القادة الشيوعيين الروس جميعهم تقريباً في الفولجا وفي الأورال، كما لم تلبث المظاهرات «القومية» في مؤتمر قازان أن أثارت قلق القادة البلاشفة ذاتهم. بل إن «جراسي»، وهو أحد الزعماء الروس الرئيسيين في تنظيم قازان التابع للحزب الشيوعي الروسي، وصف أنصار الجمهورية التتيرية البشكيرية بأنهم «قوميون»، معارضاً بشدة مبدأ الحكم الذاتي نفسه لعدة أسباب هي:

* أن إقليم الفولجا-الأورال يعد ذا أهمية، من وجهة النظر الاقتصادية، بالنسبة لروسيا بأكملها وليس التتر والبشكيريين وحدهم.

* أن المسلمين لا يمثلون الأغلبية المطلقة لسكان الإقليم.

* أن البروليتاريا التتيرية البشكيرية هي من الضعف المادي و«عدم الانضباط الأخلاقي» بما يحول دون اضطلاعهم بالسلطة.

وأخيراً، فقد أدان «جراسي» ما أسماه «الاتجاه إلى الشرق»، وكتب ما نصه «إن هذا الاتجاه لم يكن ليتحقق ما لم يكن الشرق شيوعياً»، «والواقع أنه ليس كذلك».

وصرح زعيم شيوعي روسي آخر، وهو بتروفسكي، رئيس اللجنة العسكرية الشورية في أورال الجنوبية، في الوقت ذاته، في معرض الادعاءات الكازاخستانية بإنشاء دولة وطنية، بمايلي:

«إن البروليتاريا الروسية، رغم كونها أكثر ثورية وكفاءة من الجموع الكازاخستانية، ليست قادرة دائماً على إتقان فن التنظيم الحكومي. وعلى ذلك، فإنه ثمة ما يدعو إلى الخوف من أن يُعهد بالسلطة، عند حصول كازاخستان على الاستقلال، ليس إلى البروليتاريا الكازاخستانية الفارقة في الضعف، وإنما إلى البورجوازية الأكثر فعالية وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة.»

وقد عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، في الفترة من ١٠ إلى ١٦ مايو ١٩١٨، بموسكو مؤتمراً تحضيرياً للمؤتمر التأسيسي للجمهورية التترية البشكيرية المزمع إنشاؤها، حيث كان يضم، تحت رئاسة ستالين يعاونه سلطان غالييف وفاهيتوف، حوالي ثلاثين مندوباً معظمهم من التتر والبشكيرين والتشوفاشيين والماريين، إلى جانب عدد من الروس. وقد اضطر ستالين في خطابه الافتتاحي، وتحت ضغط من هؤلاء، إلى تقييد احتمالات تمتع الجمهورية المزمع إنشاؤها بالحكم الذاتي على نحو ملموس، مشيراً إلى الفارق الجوهرى بين «الاستقلال القومى البورجوازى» من جانب، و«الاستقلال السوفياتى» من جانب آخر، فهذا الأخير غير مقيد بحدود وطنية، فضلاً عن استناده إلى المعيار الطبقي لا إلى معيار العرق أو الدين. وفضلاً عن ذلك، فقد أحاط ستالين المندوبين علماً بأنه، حتى يمكن الحفاظ على تماسك الاتحاد الفدرالى السوفياتى، ينبغي أن تتركز كل وظائف السلطة الهامة فى أيدي السلطات المركزية فى موسكو، بحيث لا تحتفظ السلطات الجمهورية فى قازان سوى بالاختصاصات السياسية والإدارية المحلية. وأخيراً، فقد قرر المؤتمر توسيع حدود الجمهورية المزمع إنشاؤها بحيث تشتمل على جانب كبير من التشوفاشيين والماريين (غير المسلمين)، رغم معارضة السلطان غالييف لذلك، إدراكاً منه للخطر الذى كان يمثله إدراج سكان غير مسلمين فى الدولة المزمع إنشاؤها. وقد أكد ذلك بقوله: «إن للتتر والبشكيرين الحق فى أن يكون لهم إقليم مستقل، إذ أنهم يمثلون غالبية السكان فى هذه المنطقة. وفيما يتعلق بمطالب التشوفاشيين والتشيرميسيين الذين يدعون بدورهم أنهم جزء من هذه الدولة، فإنها تتعارض والإرادة الوطنية للتتر والبشكيرين. وإذا ما ألحقنا بهم التشوفاشيين والماريين، لاقتضى الأمر أن ينضم إليهم رعايا روسيا العظمى كذلك، وفى هذه الحالة، فإن هؤلاء سوف يشكلون غالبية السكان.» وقد انفض المؤتمر بعد أن قرر أن تكون أوفاهى مقر المؤتمر التأسيسى المقبل، فضلاً عن تعيين لجنة تحضيرية من سبعة أعضاء برئاسة فاهيتوف، تُعَلِّق أعمالها الخاصة بالحرب الأهلية حتى خريف

عام ١٩١٩. وعلى ذلك فإن مولد الدولة التتيرية البشكيرية قد تأخر إلى أجل غير مسمى، وعندما تأكد انتصار السوفييات عام ١٩٢٠، أدان ستالين ذلك المشروع بحدة، حيث وصفه بأنه «قومى بورجوازى».

أدرك سلطان غالييف ورفاقه تماماً أن الاستقلال الإدارى بل وحتى السياسى للأقاليم الإسلامية لا معنى له طالما أن المسلمين لا يملكون كوادر ماركسية يمكنهم تولى إدارتها. ولذلك فقد ركزوا جهودهم، منذ إنشاء المفوضية المركزية الإسلامية، على الدعاية والتعليم وإعداد الكوادر المنبثقة من الشعب لكى تحل محل المثقفين من أصل بورجوازى فى المستقبل القريب أو البعيد. ولأجل ذلك عقد سلطان غالييف وفاهيتوف المؤتمر الروسى الجامع للمعلمين المسلمين، فى الفترة من ٢٣ إلى ٣١ مايو ١٩١٨ فى قازان، بغرض تعيين مجمع مركزى علمى إسلامى يُعهد إليه بمهمة إدارة التعليم العام فى الأقاليم الإسلامية، حيث قام، ضمن مشاريع أخرى، بإعداد مشروع «جامعة إسلامية» فى قازان، كما قرر إنشاء «متحف شرقى» و«مكتبة إسلامية مركزية». وكان الغرض من تلك المعاهد الثلاثة هو إمداد الحزب الشيوعى الإسلامى مستقبلاً بقيادة ماركسيين مؤهلين. وأخيراً، فقد عقد قادة المفوضية المركزية الإسلامية فى قازان، فى الفترة من ١٧ إلى ٢٣ يونيو ١٩١٨، «المؤتمر الأول للشيوعيين المسلمين»، متجاوزين بذلك معارضة رفاقهم الروس، حيث ضم ممثلى اللجان الإسلامية لروسيا الداخلية فى كل من موسكو، وبتروجراد، وقازان، وأسترخان، وبيرم، وسمارة، وأورال وسامبيرسك، وساراتوف. وقد قررت الغالبية العظمى من المندوبين، رغم انتمائهم بصفة فردية للحزب الشيوعى الروسى، نبذ الأشكال التنظيمية القديمة وإنشاء «حزب روسى للشيوعيين (البلاشفة) المسلمين». وقد تبنى ذلك الحزب قوانين الحزب الشيوعى الروسى، وإن ظل مستقلاً من خلال لجنة مركزية Märkäz Müsülman Kommunistlar (bolshevik) Komiteti مستقلة، تتألف من أحد عشر عضواً ونائباً، حيث كان سلطان غالييف، وملا نورفاهيتوف، وبرهان منصوروف هم قادته الرئيسيون أما اللجان المحلية، ممثلة فى مكاتبها Müsülman Kommunistlar Bürosy باللغة التتيرية، فقد حظيت بالتأييد وكان عليها أن تقوم بدور التنظيمات المحلية للحزب الشيوعى الجديد قيد الإنشاء. إلا تلك القرارات جميعها، رغم ما قبلت به من حماس من جانب الثوريين المسلمين جميعاً، تعرضت لموجة عنيفة من الانتقادات منذ عام ١٩١٨ على يد القادة البلاشفة الروس، بل إن ستالين اتهم المؤتمر ذاته فيما بعد باعتباره أحد المظاهر السافرة

لما أسماه «القومية البورجوازية».

لم يكن بوسع قادة المفوضية المركزية الاعتماد مطلقاً على الحركة النقابية بين العمال المسلمين إزاء ضآلة عددهم، فضلاً عن تفرقهم وعدم تطورهم، ولا بالأخرى على التنظيمات الريفية، من أجل تعزيز الكوادر الإسلامية من أصل بروليتارى وتدريبها على وجه السرعة. ولذلك فإن الجيش الأحمر الإسلامى كان، من وجهة نظر سلطان غالييف، هو مدرسة إعداد الكوادر السياسية. فقد نظر سلطان غالييف - كما فعل ماوتسى تونج فيما بعد - إلى الجيش الأحمر باعتباره «طبقة اجتماعية» حقيقية منظمة، متدرجة ويغلب عليها الطابع السياسى بشدة، وهى القادرة على الحلول محل البروليتاريا المحلية كقوة فعالة للثورة. ومن ثم فإنه كان عليها أن تضطلع فى الأقاليم الإسلامية بالدور الذى كانت النقابات المهنية تؤديه فى جهات أخرى بهدف نشر الشيوعية و«إضفاء الطابع الاشتراكى» على الجماهير. وفى ذلك الصدد، كتب يقول: «إن المناضلين التتر فى الجيش الأحمر، وهم يحملون اللواء الأحمر رمزاً للصراع الطبقي فى أقاصى كيشلاك، وقرى آسيا الوسطى، وفى مخيمات المغول بسيبيريا، وآرول بجبال القوقاز، هم رواد الثورة الاشتراكية فى الشرق.» وقد عهد بتنظيم الوحدات العسكرية إلى الشعبة العسكرية بالمفوضية المركزية الإسلامية فى بادئ الأمر، ثم إلى المجمع العسكرى الإسلامى المركزى برئاسة سلطان غالييف. وكان ذلك المجمع يتبع مفوضية الشعب لشؤون القوات المسلحة، Narkomvoen، من الوجهة الرسمية، وإن كان تابعاً للمفوضية المركزية الإسلامية من الناحية الفعلية. كان سلطان غالييف يحدوه الأمل ولا ريب فى إعادة تجميع تلك الوحدات فى شكل قوة مستقلة، باسم «الجيش الأحمر العمالى الريفى الإسلامى» أو الجيش الاشتراكى الإسلامى، يفتح باب الانضمام إليها لجميع المسلمين «المتعاطفين مع الأفكار الاشتراكية»، وتستهدف «الحفاظ على شرف ومجد مكاسب البروليتاريا، وبصفة خاصة نشر الثورة الاشتراكية فى جميع بلاد الشرق الإسلامى». إلا أنه سرعان ما أصيب بخيبة الأمل، إذ وضعت الفياق الإسلامية، منذ أغسطس ١٩١٨، تحت القيادة العامة للجيش الأحمر وتم إدماجها فى الوحدات الروسية. غير أنها ظلت حتى عام ١٩٢٠ «مدارس» حقيقية لإعداد الكوادر حيث «تلقى العمال والفلاحون الفقراء من التتر تعليماً سياسياً يؤهلهم لمناصب القادة العسكريين»، بفضل إنشاء هيئة للمفوضين السياسيين المسلمين بموجب قرار صادر عن المجمع العسكرى الإسلامى المركزى بتاريخ ١٨ يونية ١٩١٨، وتنظيم دورات مكثفة للضباط المسلمين

فى قازان.

غير أن الوحدات الحمراء الإسلامية، وكانت إمرتها فى أيدى القازانيين بالكامل، ولغة القيادة هى التترية، تعتبر كذلك أداة قوية «للتحول إلى التتية»، مما أرسى من جديد دعامة قوية للأحلام التى لم يكن دعاة الجامعة التركية يجرؤون على التصريح بها، وهو ما أتاح المتزايد للتتر على الحركة الثورية الاستعمارية بأكملها. فقد كان سلطان غالييف يرى أن الجيش الأحمر الإسلامى - وهو تترى فى الواقع - ينبغى أن يكون نواة للأمية الشيوعية Komintern الاستعمارية مستقبلاً. وكانت أول وحدة تترية يتم تأسيسها حتى قبل إنشاء المفوضية المركزية عن طريق انفصال الحرس الأحمر فى قازان، وكان يتألف من العمال فى مصانع ألافوزوف ومصنع البارود، ثم تحول فى ديسمبر ١٩١٧، بفضل جهود المفوضية الإسلامية فى قازان، إلى «الفيلق الاشتراكى الإسلامى الأول». وكان قوامه فى فبراير ١٩١٨، وقت تصفية جمهورية ماوراء بولاق، أكثر من ستمائة مقاتل، وبلغ عدة آلاف فى شهر يولية من العام نفسه. وقد هيا تشيتت الوحدات العسكرية التابعة للمجلس العسكرى فى فبراير-مارس ١٩١٨ عدداً كبيراً من الجنود والضباط معظمهم من التتر والبشكيرين، وبعضهم حصل على تدريب عسكرى ممتاز اكتسبه فى صفوف الجيش الاستعمارى القديم. وانتهج سلطان غالييف حياهم نفس السياسة التى اتبعها تروتسكى فى الفترة ذاتها تجاه الضباط التتر سعيًا إلى إدماجهم فى الجيش الأحمر، حيث نجح فى ذلك تماماً. وفى أستراخان، شكلت المفوضية الإسلامية المحلية «جماعة إسلامية» تتألف من التتر، والكازاخستانيين، والتركمانين، والنوجايين، وإن كان قادتها من القازانيين، لعبت دوراً فعالاً فى المعارك التى نشبت حول تساريتسان ثم فى الأورال. وقد صنفت المفوضية الإسلامية فى بيرم العمال التتر فى الأورال إلى أربع جماعات. أما فى موسكو، فقد أسس ملانورفاهيتوف فى أبريل ١٩١٨ «الكتيبة التتية البشكيرية الأولى» التى اشتبكت ضد جنود فيلق تشيكوسلوفاكيا فى سيرزان وقازان، ثم أنشأ فى يولية ١٩١٨ «الكتيبة الاشتراكية الإسلامية الثانية»، وكانت تضم تترًا، وبشكيرين، وتركمانين، وأوزبكيين، ثم تحولت فى أغسطس ١٩١٨ إلى «الفيلق الاشتراكى الإسلامى الثانى». وفى يولية ١٩١٨، كانت الوحدات الإسلامية التى تجاوز عددها ٥٠٠٠ رجل مقسمين إلى لواءين من القناصة التتر، وفيلقين من التتر البشكيرين، إلى جانب عدة كتائب مستقلة، فى مقدمة الصفوف فى القتال ضد كولتشاك. وكان التتر يمثلون وحدهم، طبقاً لسلطان غالييف، أكثر من

نصف عدد المقاتلين في الجبهة الشرقية عام ١٩١٩.

وثمة جانب أخير في نشاط سلطان غالييف قبل أغسطس ١٩١٨، يوضح الحقيقة أكثر من غيره، ويشير إلى أن ذلك التتري ورفاقه كانوا قد عقدوا العزم على إقامة امبراطورية حقيقية لأنفسهم تتجاوز حدود روسيا القديمة. والواقع أن الاهتمام الرئيسى الكامن وراء ذلك الدافع من جانب المفوضية المركزية الإسلامية كان يتمثل فى نشر الشيوعية فى البلدان الإسلامية المجاورة. وفى ربيع عام ١٩١٨، تم إنشاء شعبة للدعاية الخارجية، بمبادرة من فاهيتوف، حيث عُهد بإدارته إلى مصطفى صبحى، وهو اشتراكى تركى قديم لجأ إلى روسيا وجاءت الثورة لتحرره من معسكر أسرى الحرب حيث أكل الدهر منه وشرب. وكانت مهمة تلك الشعبة هى نشر كتيبات ومنشورات ونداءات باللغات التركية والعربية والفارسية، وإصدار صحيفة باللغة التركية بعنوان Yeni Dünya (حيث صدر العدد الأول منها فى ٢٤/٤/١٩١٨)، فضلاً عن تأليف مجموعة من المحرضين المسلمين بغرض إيفادهم إلى الشرق لتنظيم تجمعات ثورية فيه، داخل الامبراطورية العثمانية بأكملها فى بادئ الأمر، بما فى ذلك معظم البلدان العربية آنذاك، ثم فى الهند وإيران فيما بعد. وقد تركزت الجهود الرئيسية فى تركيا. إذ كان سلطان غالييف يولى أهمية كبيرة فى الواقع للحركة الشيوعية فى ذلك البلد. وفى يولية ١٩١٨، عقد سلطان غالييف فى موسكو «مؤتمر الاشتراكيين الأتراك»، ثم شرع بعد قليل، بمعاونة مصطفى صبحى، فى إنشاء كتيبتين من المتطوعين من أسرى الحرب الأتراك الذين اشتبكوا فى القتال على الجبهتين الشرقية والجنوبية، وتألقت من بينهم كوادى الحزب الشيوعى التركى فيما بعد. وفى هذا الصدد كتب الشيوعى القوقازى أفندييف، رفيق سلطان غالييف، عام ١٩٢٠ مانصه: «إن وجود عدد كبير من الأسرى الأتراك على أرض الجمهورية السوفياتية يتيح لنا فرصة ملائمة إلى حد كبير لنشر بذور الثورة فى الشرق الأدنى».

ومن ثم، فقد بدت نتائج نشاط سلطان غالييف وفاهيتوف داخل المفوضية المركزية الإسلامية، عشية استيلاء التشيكيين على قازان فى أغسطس ١٩١٨، إيجابية بشكل ملحوظ. فقد اغتنمنا فرصة ضعف السلطة المركزية للحصول على وعد رسمى بإنشاء دولة تترية بشكيرية. كما كان لديهم بصفة خاصة تنظيم إدارى (المفوضيات الإسلامية)، وسياسى مستقل - الحزب الشيوعى الإسلامى - امتد نفوذه سريعاً ليشمل جميع الأقاليم التركية فى روسيا بفضل ازدهار اللجان الإسلامية ونشاط الوحدات الحمراء الإسلامية.

إلا أنه ظهرت بين الشيوعيين المسلمين ورفاقهم الروس اختلافات كانت بغير ذات أهمية بعد، إلا أنها وخيمة العواقب، إذ كانت تدور حول مسألة مبدئية رئيسية وهى: لمن تؤول قيادة ثورة المستعمرات؟ إذا ما كانت الأحداث قد سارت فى تطورها الطبيعى، لكان نشوب صراع، بل وحتى قطيعة، أمراً حتمياً. غير أن جميع التوقعات انقلبت رأساً على عقب بنشوب الحرب الأهلية على أراضى الجمهورية التترية البشكيرية المزمع إنشاؤها، وما صاحب ذلك من ثورة العسكر من جنود الفرق التشيكوسلوفاكية فى مايو ١٩١٨. وكان هؤلاء من أسرى الحرب القدامى فى الجيش الامبريالى النمساوى المجرى الذين رفضوا، بأعداد كبيرة، القتال من أجل النظام الملكى لآل هابسبورج ولجأوا إلى الروس. وقد شكلوا فى عام ١ٹ١٨، بفضل ما جهزهم به الحلفاء من عتاد والتنظيم الذى وضعه لهم قادتهم من الضباط، القوة المسلحة المنظمة والفعالة الوحيدة فى القتال على أرض روسيا. فقد اصطفت كتائبهم على طول الخط الحديدى عبر سيبيريا، بين قازان وفلاديفوستوك، استعداداً للجلاء حتى يتم نقلهم إلى فرنسا للاشتراك فى المرحلة الأخيرة من الحرب العظمى. وبعد مرواغة من جانب السلطات البلشفية التى رفضت تيسير ترحيلهم، استولى التشيكوسلوفاكيون على جميع مدن ماوراء سيبيريا. فكان ذلك إيذاناً ببدء الثورة الشاملة لجميع المقهورين فى أكتوبر. إذ أخذ القوزاقيون فى الأورال يطاردون البلاشفة فى شهر يونية، ثم تبعهم القوزاقيون فى أورونبورج فى يولية. وبعد ذلك بقليل، احتل جنود الفرق التشيكية سمارة، وفى ٦ أغسطس ١٩١٨ تم الاستيلاء على قازان. وهرع ملا نور فاهيتوف إلى هناك على رأس كتيبة تترية تلقت تدريبها فى موسكو، إلا أنه وقع أسيراً وجرى إعدامه فى ١٩ أغسطس. وفى غضون بضعة أسابيع، تم القضاء على السلطة السوفياتية حتى لم يبق لها أثر فى روسيا الشرقية بأكملها، وتوقفت جميع مشاريع سلطان غاليف إلى أجل غير مسمى. فقد حرمه اختفاء فاهيتوف من سند قوى. وكان على سلطان غاليف أن يقف وحده فى مواجهة ستالين.

الفصل الرابع
مؤسس نظرية الشيوعية الوطنية
أغسطس ١٩١٨-١٩٢٣

الفصل الرابع

مؤسس نظرية الشيوعية الوطنية

أغسطس ١٩١٨-١٩٢٣

امتدت الحرب الأهلية في روسيا الشرقية، وعلى نهر الفولجا وفي الأورال، لأكثر من عشرة أشهر. وتوالى الهجمات والهجمات المضادة من جانب البيض والتشييكوسلوفاكيين، ثم قوات كولتشاك والحمردونغا توقف تقريباً، فأصبح المستقبل مبهماً أمام حل مشكلة الدولة التتارية البشكيرية. وخلال تلك الفترة، المسماة «بالشيوعية العسكرية»، كان الإيمان بانتصار الثورة في الغرب لا يزال عميقاً، وظل قادة الحزب البلشفيكي يراودهم الأمل في أن تحوز الشيوعية انتصاراً خاطئاً في ألمانيا والمجر. غير أنهم بدأوا كذلك، تحت ضغط يكاد يقترب من حد الإكراه، في الاهتمام بالشرق على نحو غير مباشر. والواقع أن محور تفكيرهم، وهم يوجهون نداءات تدعو إلى الثورة لتحرير الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة، كان يدور حول إضعاف الدول الرأسمالية، ومن ثم فقد اهتموا بالتأكيد على أن الثورة الوطنية لشعوب آسيا لن يتأتى لها النجاح إلا تحت قيادة البروليتاريا الغربية. وظلت الثورة الشيوعية في نظرهم مسألة أوروبية بحتة.

أما على الصعيد الداخلي، في المقابل، فكان البلاشفة بحاجة إلى المسلمين أكثر من أي وقت مضى لمواجهة هجوم البيض، حيث كانت تساندتهم القوى المتحالفة المنتصرة في ألمانيا. ولم يتوان سلطان غالييف، المعروف بانتهازيته، عن استغلال تلك الظروف السانحة لصالحه. فب وفاة فاهيتوف، أصبح الطريق خالياً أمامه، حتى شغل أعلى منصب يمكن أن يتقلده مسلم داخل تنظيم الحزب الشيوعي. فقد رأس المفوضية المركزية الإسلامية، وكان رئيساً للجميع العسكري الإسلامي، ومحرر الصحيفة الناطقة بلسان مفوضية الشعب لشؤون القوميات - Nar-komnatz, Fizm 'Natsional' nostey ثم في وقت لاحق، في يناير ١٩٢٠، عضواً في المجمع المصغر لمفوضية الشعب لشؤون القوميات وكان يضم، علاوة على رئيسه ستالين، قادة بلاشفة مرموقين من بينهم بافلوفيتش وبريدو وتورار ريسكولوف وغاليمجان إبراهيموف. وأتاح له مركزه الشخصي، الذي توطد أكثر من أي وقت مضى، أن يبالغ في الآمال، ولم يفتأ دوره في اطراد مستمر حتى نهاية الحرب الأهلية في خريف عام ١٩٢٠. وعلى الرغم من وقوع بعض الخلافات بين سلطان غالييف وأستاذه ستالين منذ أكتوبر ١٩١٨، إلا أن أحداً من

المحيطين بالقادة البلاشفة لم يعرھا أى اهتمام. فقد كان الرجلان متفقين، فى الظاهر، حول جميع النقاط الجوهرية فى سياسة القوميات. أما فيما يتعلق بالأقاليم الإسلامية، فكان سلطان غاليف ينهج بمنهج من أطلق عليه فيما بعد اسم «اليميني»، معارضاً تغيير هيكل المجتمع الإسلامى بالعنف، لاقتناعه بضرورة عدم فرض التطور نحو التقسيم الطبقي بالقوة. ولم يكن يعارض ستالين فى هذه النقطة، لا لأن ذلك الأخير قد برهن على تحليه بروح الاعتدال أو الليبرالية، وإنما لأنه كان يدرك أكثر من غيره من الزعماء البلاشفة مدى تعقد العلاقات بين الروس والمسلمين. فقد رأى ستالين، مثله فى ذلك مثل سلطان غاليف، أن قيام ثورة ذات اتجاه راديكالى مبالغ فيه فى الأقاليم الإسلامية هو أمر سابق لأوانه. وكان معارضاً بشدة للمغامرين «اليساريين»، سواء كانوا من الروس أو الأجانب، الذين يفرطون فى التفاؤل إلى حد الاعتقاد بأن شيئاً لا يمكنه الوقوف فى وجه قوى الشيوعية الديناميكية الساحقة، والذين انفصلوا عن الجموع الوطنية التى كانت لا تزال متمسكة بعاداتها وتقاليدها، رغبة منهم فى تعميق الانتصارات الثورية. وبسبب ذلك الاتفاق حول النقطة الجوهرية فى استراتيجية الحزب داخل الأقاليم الخارجية، استمر ستالين على دعمه ومساندته لسلطان غاليف زمناً طويلاً.

إلا أن بعض الاختلافات بدأت فى الظهور بين مفوض الشعب لشؤون القوميات وريبه. فقد كان سلطان غاليف ينتهج موقف «القومى» فيما يتصل بالعلاقات بين الأجانب والروس، وهو موقف يبرره تراثه الإصلاحى الكبير. ورغم دفاعه عن مبدأ تحالف الشيوعيين الأوروبيين مع العناصر الثورية الإسلامية من أصل غير بروتستانتى، إلا أن ستالين انفصل عن غاليف مؤكداً أن ذلك التحالف لا يمكن إلا أن يكون تحالفاً مؤقتاً، فقد أدرك أن الكوادر الأجنبية البورجوازية، وإن انضمت إلى الصفوف، ليست أهلاً للثقة، إذ يمكن لهؤلاء التحول بسهولة إلى القومية الانفصالية. والمحصلة النهائية أنه لم يكن واثقاً إلا من الكوادر الروسية، وهى الكوادر البروليتارية الوحيدة بحق، والتى ينبغي الحفاظ على تفوقها ريثما يتم تكوين كوادر إسلامية شيوعية حقيقية من أصل عمالى.

وقد قام سلطان غاليف خلال تلك الفترة بنشاط مكثف يفوق ما كان يتم فى حياة ملا نور فاهيتوف. ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان قد شارك بشخصه فى المعارك التى خاضها

الجيش الأحمر على الجبهة الشرقية في مواجهة هجمات جنود الفيالق التشيكوسلوفاكية وجيوش كولتشاك. والمرجح أنه كان عليه، مثل معظم رفاقه البلاشفة، أن يقوم بزيارات تفقدية طويلة أو قصيرة إلى الصفوف الأولى، إلا أنه أثبت فعالية نادرة الوجود على الصعيدين السياسى والتنظيمى بصفة أساسية. فقد رأس، فى نوفمبر ١٩١٨، المؤتمر الأول للشيوعيين المسلمين الذى بدأ أعماله فى موسكو، بحضور ثلاثة وأربعين مندوباً عن التنظيمات الشيوعية الإسلامية. وكانت غالبية المشاركين فيه من مدن فولجا الوسطى والأورال، بينما جاء بعضهم من مورمانسك وبتروجراد والقوقاز وكريميه. كما مثلت فيه مجموعة أسرى الحرب الأتراك، وقام بتنظيمها مصطفى صبحى. وكان على أعضاء المؤتمر أن يجدوا حلاً لإحدى المشاكل الجوهرية، وهى مشكلة العلاقات بين الشيوعيين المسلمين والحزب الشيوعى الروسى. فقد سعى سلطان غالييف ومعه زميله فيرديف، وهو تترى من كريميه، يؤيدهما فى ذلك التتر والقوقازيون وجانب من البشكيريين والكريميين، إلى الحصول على اعتراف باستقلال الحزب الشيوعى الإسلامى، حيث رأوا ضرورة احتفاظه ببلجنته المركزية الخاصة، وعدم انضمامه إلى الحزب الشيوعى الروسى إلا على أساس فدرالى. وقد وجد سلطان غالييف تبريراً لتلك المزاعم فى حتميات الثورة على الاستعمار بقوله « طالما أن المسلمين فى وضع أفضل من الروس يتيح لهم نشر الاشتراكية فى الشرق ». ورغم أن موقفه بدا ثابتاً ومنطقياً، إلا أن واقعيته العملية كانت تكمن وراءها إرادة سياسية لا تخفى على أحد للإفلات من سيطرة الروس. وكانت تلك هى البادرة الأولى للشيوعية الوطنية. فالاستراتيجية التى وضعها سلطان غالييف لو كان قد جرى انتهاجها لأفلتت مقاليد الثورة فى العالم الاستعماري من أيدي البلاشفة الروس. فقد ساعدت تلك الاستراتيجية السابقة لعصرها بخمسين عاماً على تجسيد الصراع بين الحزبين الروسى والصينى. ولم ينخدع ستالين، ممثلاً للجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى، بكل ذلك، حيث رفض مطالب الاستقلال بدعوى المركزية والفعالية الإدارية. وصرح بقوله:

« إن واجبنا يقتضى منا إقامة جسر بين الشرق والغرب وتشكيل جبهة ثورية واحدة. وليس ثمة من يمكنه الاضطلاع بتلك المهمة التاريخية الكبرى خيراً منكم أيها الشيوعيون المسلمون (.....) إن أبواب فارس والهند وأفغانستان والصين مفتوحة أمامكم. (.....) ومن ثم فإننى أعتقد بأن التعليم الاشتراكى لشعوب الشرق ينبغى أن يكون مهمتكم الرئيسية. (.....) ومن ثم ، فإنه من الضرورة بمكان أن يتم توحيد الشيوعيين، المسلمين منهم وغير

المسلمين، في سبيل حشد قوانا إلى الحد الأقصى من خلال تجميع التنظيمات الشيوعية الإسلامية في فرع واحد داخل الحزب الشيوعي الروسي، يرأسه مكتب الفرع. وهذا هو خط الحزب الذي كلفتنى اللجنة المركزية بنقله إليكم.»

غير أنه وقع صدام، للمرة الأولى، بين ستالين وسلطان غالييف حول نقطة استراتيجية؛ إذ بدأت تتضح، خلف ذلك النزاع الأول، وهو نزاع هامشي لم يكن قد تجاوز حد اللياقة بعد، أبعاد صراع رئيسي يتوقف عليه مستقبل الحركة الشيوعية في العالم الثالث ويتحدد على أساسه من يتولى قيادتها: الروس أم التتار؟ أو بعبارة أخرى الأوربيون أم الآسيويون؟ وانبثق من عباءة ذلك الصراع صراع آخر، أشد أهمية وأكثر تلاحقاً، يتعلق بالطابع الواحد أو اللامركزي للحزب الشيوعي الروسي. وبدا واضحاً أن المؤتمر قد انحاز إلى رأى ستالين، على نحو ما يؤكد ذلك القرار المتشدد الذي تم اتخاذه ضد القيادة القديمة للحزب الشيوعي الإسلامي، أى ضد سلطان غالييف ذاته قبل أى شىء آخر: «لقد أثيرت مشكلة الأشكال التنظيمية لحزبنا مرة تلو المرة، إلا أنها لم تجد لها حلاً. لقد قادت التنظيمات الإسلامية البروليتاريا المسلمة نحو الشيوعية بصورة خرقاء ودونما خطة محددة. ومن ثم فإنه حتى يمكن تفادى التصادمات الوطنية بين أفراد العائلة الدولية البروليتارية الواحدة لكل المقهورين، وصهر جميع القوميات في بوتقة بروليتارية شاملة، قرر مؤتمر الشيوعيين البلاشفة المسلمين ما يلي:

أولاً: يُستبدل الاسم القديم «للحزب الروسي للشيوعيين (البلاشفة) المسلمين» باسم التنظيم الإسلامي للحزب الشيوعي الروسي. وتُحول اللجان المحلية إلى «تنظيمات إسلامية» (مكاتب).

ثانياً: يُطلق على اللجنة المركزية للشيوعيين (البلاشفة) المسلمين من الآن فصاعداً اسم المكتب المركزي للتنظيمات الإسلامية للحزب الشيوعي الروسي.

ثالثاً: تنضم التنظيمات الإسلامية المحلية إلى التنظيمات العامة للحزب (اللجان) بإيفاد أحد ممثليها إليها. كما ينضم المكتب المركزي إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي على نفس النحو.

رابعاً: تنضم التنظيمات الإسلامية المستقلة في المدن الكبرى إلى التنظيم الإسلامي (للحزب) الذي يجمع الخلايا الإسلامية المحلية.

خامساً: تتبع التنظيمات الإسلامية في المصانع والورش التنظيمات العامة للحزب.»

وهكذا أصبح للحزب الشيوعي الإسلامى ارتباط وثيق بالحزب الشيوعي الروسى، فضلاً عن أن رئيس المكتب المركزى الجديد للتنظيمات الإسلامية التابعة للحزب الشيوعي الروسى، والذي جرى انتخابه فى ختام المؤتمر، هو ستالين، مندوباً عن اللجنة المركزية. أما سلطان غالييف فكان أحد أعضائها الخمسة. ومما فاقم كذلك من هذا الإخفاق الأول لسلطان غالييف ما تم من إدانة لنشاطه فى المفوضية المركزية الإسلامية. كما اعتبر المؤتمر النتائج التى حققها غير كافية وقرر إعفاءه من معظم مهام منصبه:

«لما كانت أعمال المفوضية المركزية الإسلامية لم يتم إدارتها وفق خطة محددة، فضلاً عن أن فروعها قد أنشئت بصورة عشوائية ولم توجه إليها تعليمات محددة، ولما كانت المفوضيات الإسلامية المحلية لم يتم ربطها على النحو الملائم بالمفوضية المركزية، كما أن هذه بدورها لم تتلق أية توجيهات محددة، فإن المفوضية المركزية قد عجزت عن الاضطلاع بالمهام الموكلة إليها. وعليه فإن المؤتمر يدعو المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية التابعة للحزب الشيوعي إلى إعادة تنظيم المفوضية المركزية الإسلامية».

وكان ذلك إيذاناً بالاعلان، منذ نوفمبر ١٩١٨، عن ذلك المبدأ المقدس، مبدأ المركزية بأى ثمن، وإدانة دعاة اللامركزية الأيديولوجية والتنظيمية - سلطان غالييف بعبارة أخرى - إدانة قاطعة. وهكذا فقدت المفوضية المركزية الإسلامية مهامها السياسية والتنظيمية، فضلاً عن الرقابة على المطبوعات الدعائية الصادرة باللغات الإسلامية، لصالح المكتب المركزى. كما تم إلغاء شعبتى العمل والدعاية الخارجية التابعين لها، وضم شعبتى ما وراء القوقاز وسكان المناطق الجبلية مباشرة إلى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى حين عهد بشعبة تركستان إلى حكومة جمهورية تركستان. ولم يبق سوى هيئة ذات اختصاصات مقيدة للغاية؛ وهى إدارة مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وأطلق عليها اسم «المفوضية التتيرية البشكيرية».

غير أن سلطان غالييف أعاد المحاولة، منذ ديسمبر ١٩١٨، بالمطالبة للمسلمين فى روسيا بمكانة متميزة بدا أن الرفاق الروس لا يرغبون فى منحهم إياها. ففى النداء المعنون (نداء إلى الشيوعيين المسلمين) الصادر عن المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية، والذي ظهر فى صحيفة Fizr ' Natsional ' nostey بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩١٨، نقرأ ما يلى:

إن الأحداث العالمية والنصر المرتقب للثورة الاشتراكية العالمية يفرضان علينا أن نولى أهمية خاصة لأكثر الشعوب تخلفاً فى الشرق. وواجبنا كشيعيين هو أن نهب لمساعدة أشقائنا

الصفار. كما أننا على إمام أكبر، بوصفنا شيوعيين مسلمين، بلغات وعادات شعوب الشرق، مما يجعل إلزاماً علينا أن نضطلع بدور رئيسى فى ذلك العمل المقدس... الذى يتمثل فى اجتذاب الشعوب التى تعرضت للقهر على مدى قرون إلى الأسرة الكبيرة لجموع الشعب العاملة.»

وفى ربيع عام ١٩١٩، تحدد مصير الحرب الأهلية على الجبهة الشرقية لصالح البلاشفة، فقد انضمت الوحدات القومية البشكيرية، وكانت حليفة للبيض فيما مضى، إلى جانب الجيش الأحمر، فى حين انسحبت قوات كولتشاك نحو سيبيريا. أما فى الأقاليم الإسلامية التى استولى عليها الجيش الأحمر، فقد جرى تدمير الجهاز المدنى والعسكرى الإسلامى الذى أنشأه فاهيتوف بعناية فائقة، كما أبيدت معظم الوحدات الإسلامية فى المعارك التى جرت ضد كولتشاك، ودُمرت جميع المفاوضات واللجان الإسلامية فى القولجا تقريباً، حيث قام البيض بتفريق العاملين بها أو إعدامهم رمياً بالرصاص، وشُلت حركة المجتمع العسكرى الإسلامى؛ وهكذا يمكن القول بأن المجمع المركزى العلمى فى قازان قد اختفى من حيز الوجود، وفر بعض قادته إلى سيبيريا. وأخيراً فإن قادة موسكو على وجه الخصوص، وهم أقل تعرضاً لتهديد الثورة المضادة البيضاء، قد شعروا بحرية أكبر من ذلك الوقت فصاعداً فى مواجهة حلفائهم المسلمين.

وفى مارس ١٩١٩، ووجه سلطان غالييف برفض جديد، عندما أعلن المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى (موسكو، فى الفترة من ١٨ إلى ٢٣ مارس ١٩١٩) إلغاء جميع التنظيمات الشيوعية الوطنية: «إن المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى يرى ضرورة قيام حزب شيوعى واحد، مركزى، تتبعه لجنة مركزية واحدة، تدير أعمال الحزب فى جميع أقاليم جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية. وتُعتبر جميع القرارات الصادرة عن الحزب الشيوعى (البلاشفة) الروسى وأجهزته الإدارية ملزمة لجميع تنظيمات الحزب أياً كان هيكلها الوطنى». وبعد ذلك مباشرة، تم استبدال المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية بالمكتب المركزى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق، حيث قُسم إلى فروع وطنية، إسلامية وغير إسلامية. وهكذا انتفت أية إشارة إلى الإسلام من ذلك الوقت. بل إن مبدأ وحدة العالم الإسلامى ذاته، وهو الأساس الذى استند إليه مذهب سلطان غالييف، أصبح مثاراً للشك.

ونكاد لا نعرف شيئاً عن نشاط سلطان غالييف خلال ربيع وصيف عام ١٩١٩. ورغم أنه شوهد مرات عديدة على الجبهة الشرقية حيث كانت بعض الوحدات التدريبية التابعة للجيش

الأحمر تقاتل ضد كولتشاك، إلا أنه كان يمضى معظم وقته فى التنقل بين موسكو وقازان. ولأنه لم يقبل عن طيب خاطر ذلك الرفض المزدوج من جانب مؤتمر الشيوعيين المسلمين والمؤتمر الثامن للحزب الشيوعى (ب) الروسى، فقد كان يعد لهجوم مضاد بهدف توفير الاستقلال للحركة الثورية الإسلامية، وتحريرها من السيطرة المتشددة والثقيلة للرفاق الروس الذين كانوا لا يفقهون شيئاً فى المشاكل الاستعمارية، على نحو ما أدرك وقتها.

كان سلطان غالييف يدرك، أكثر من أى وقت مضى، أن أوروبا، كما كان يردد، هى «بؤرة ثورية خامدة»، وأن العالم الاستعمارى، فى المقابل، يوفر المناخ الملائم لتلك الثورة. والواقع أن الحركة الثورية قد انتشرت فى كل من تركيا وإيران. وفى فبراير ١٩١٩، تم إنشاء حزب اشتراكى تركى شبيه بالألمية الثانية فى القسطنطينية، وتبعه فى سبتمبر الحزب الاشتراكى للعمال والفلاحين فى تركيا، الذى انشأه فى القسطنطينية بعض قدامى أسرى الحرب الأتراك فى روسيا، حيث تأثروا بالحركة الاسبارتكية(*) أثناء مرورهم عبر ألمانيا فى ١٩١٧-١٩١٨. وكان ذلك الحزب الذى انضم إلى الألمانية الثالثة يستند إلى اللينينية. كما ظهر فى نفس الفترة حزب ثورى ثالث فى العاصمة التركية، باسم الرابطة الدولية للعمال، ويتألف من بعض الاشتراكيين المنتمين إلى الأقليات، كالبلغارين، واليهود السفرديم من سالونيك، واليونانيين. وأخيراً قام مصطفى صبحى، فى يولية ١٩١٨، بإنشاء أول خلية شيوعية بين أسرى الحرب الأتراك الذين كانوا لا يزالون فى روسيا، وبدأ فى إصدار أول صحيفة شيوعية باللغة التركية، وهى صحيفة (العالم الجديد) Yeni Dünya وبدأت تركيا، وهى تعاني مرارة الهزيمة والدمار، وتزج تحت وطأة الاحتلال والتفسخ على يد من ألحقوا بها الهزيمة، مواتية تماماً لنشوب ثورة من أجل التحرر الوطنى، وكان خير شاهد على ذلك هو الحركة الكمالية التى تحولت، طبقاً للنظرية اللينينية، إلى ثورة بروليتارية، حيث كان ذلك البلد يضم نسبة كبيرة من أبناء طبقة البروليتاريا الصناعية تتجاوز ١٠٠٠٠٠ عامل.

كما بدا المناخ ملائماً كذلك فى إيران. فقد امتدت ردود فعل الاضطرابات الثورية فى القوقاز إلى ما وراء الحدود. وشهدت إيران أزمة اقتصادية واجتماعية عنيفة فى المناطق الريفية، فاقمها احتلال أجنى مزدوج، بريطانى فى الجنوب، وروسى فى الشمال. وكان حزب Adalat الاشتراكى الديمقراطى فى إيران قد انشأ منذ عام ١٩١٧ فى باكو على يد بعض

(*) سبارتكية (حركة ألمانية اشتراكية، ثم شيوعية قادها كارل لينبخت وروزا لوكسمبورغ) (الترجمة)

المهاجرين الإيرانيين، من مجاهدى حزب Hummet. ومنذ عام ١٩١٦، أصبح الإقليم الشمالى من إيران، المعروف باسم غيلان Ghilan، هو مقر إحدى حركات التحرر الوطنى، وهى حركة الجنجليين Djenguelis، المناهضة للاستعمار والإقطاع والملكية، والتى يمكن بل وينبغى - على حد اعتقاد الزعماء البلاشفة - أن تتحول إلى ثورة اشتراكية على غرار الحركة الكمالية. وتأكدت تلك الآمال الثورية بصورة أكبر عام ١٩٢٠، عندما نشأ حزب شيوعى تركى سرى فى أنقرة فى شهر يونية، بالإضافة إلى أحد الأحزاب الاشتراكية التركية الأخرى.

أما فيما يتعلق بإيران، فقد أعطى استيلاء الجيش الأحمر على ما وراء القوقاز فى أبريل ١٩٢٠ دفعة جديدة لحركة الجنجليين. إذ نزلت إحدى التشكيلات البحرية التابعة للجيش الأحمر فى أونزىلى، حيث انتهز الجنجليون ذلك للإعلان فى ٤ يونية، عن قيام جمهورية غيلان الاشتراكية السوفياتية، برئاسة الزعيم الجنجلى ميرزا كوتشيك خان، على رأس ائتلاف من القوميين والشيوعيين أعضاء حزب Adalat الفارين من باكو. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها إنشاء جمهورية «اشتراكية وسوفياتية» خارج أراضى روسيا القديمة، وحذت منغوليا نفس الخلو فيما بعد، كما تبعتها الديمقراطيات الشعبية فى أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. وفى ٢٠ يونية ١٩٢٠، عقد الشيوعيون الإيرانيون فى راشات، عاصمة الجمهورية السوفياتية الجديدة، المؤتمر التأسيسى للحزب الشيوعى الإيرانى. كما ظهرت فى نفس الوقت تقريباً جماعات شيوعية فى جميع أنحاء بلدان دار الإسلام: حيث أنشئ حزب اشتراكى مصرى بالإسكندرية، كما تم قبول أحد الأحزاب الشيوعية فى جاوة كعضو كامل العضوية فى الأمية الثالثة.

فمن يكون إذن صاحب الرؤية الصائبة تاريخياً؟

أهو سلطان غالييف الذى راهن على العالم الاستعمارى، أم الزعماء البلاشفة، الذين رفضوا البحث فى أمرهم إلا باعتبارهم موضوعاً للثورة لا سبباً لها؟ فى خريف عام ١٩١٩، عبر سلطان غالييف بحذر عن فشله فى مواجهة السياسة «الأوروبية المعتدلة» التى انتهجها رفاقه الروس فى مقالة شهيرة بعنوان «الثورة الاشتراكية والشرق»، ظهرت فى الصحيفة الرسمية لمفوضية الشعب لشئون القوميات المعروفة باسم بتاريخ ١٢ و٥ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩١٩، وفيها كتب يقول: «كلما امتدت الثورة الشيوعية، أصبح لزاماً على شعوب وبلدان بأكملها، شاءت أم أبى، أن تشارك فى ذلك الصراع. (.....) لقد حانت اللحظة الحاسمة، لا للأفراد فحسب بل

وللشعوب والدول كذلك، لكي تقرر مصيرها وتختار، دون رجعة، إلى أي جانب تنحاز. ولذا فإن عليك أن تشارك في تلك الحرب، أردت ذلك أم أبيت، وأن تنحاز إلى جانب «الحمرة» أو «البيضاء» عمداً أو بغير عمد». كان سلطان غالييف يفكر بالتأكيد في مواطنيه التتر وغيرهم من المسلمين في امبراطورية روسيا القديمة، ولكن الأبعد من ذلك أنه كان ينظر إلى دار الإسلام بأكملها، بل وعالم المستعمرات قاطبة. فقد تصدى، منذ المقالة الأولى، للهجوم على أساس اللينينية ذاته، وهو إيمانها بانتصار الثورة البروليتارية في أوروبا الصناعية:

«... بقدر ما تتضح لنا مبررات الاستراتيجية التي ننتهجها فيما يتعلق بالثورة الاشتراكية، إلا أنه من الضرورة بمكان أن نعترف بأن سياستنا تجاه الشرق تقتضى بعض التعديلات الهامة. وعلينا أن نعترف بأن كل الإجراءات التي اتخذناها، حتى وقتنا الحالى، من أجل تحديد العلاقات بين روسيا السوفياتية والشرق كانت ذات طابع عرضى ووقتى. إذ لم تكن لدينا سياسة محددة في هذا المجال. وكانت تلك السياسة، في أسوأ الحالات، انعكاساً لعجزنا المؤسف واعترافاً به، مثل انسحاب القوات الروسية من الأراضي الفارسية على سبيل المثال، بينما كانت، في أفضل الحالات، تعبيراً عن التعاطف المثالى تجاه الحركات الوطنية وبذل الوعود بمساندة الآمال الثورية للشرق، كما هو الحال بعد ثورة الأفغان ضد الانجليز على سبيل المثال. ولم يبدأ نشاطنا في اتخاذ طابع محدد بدرجة أو بأخرى إلا من اللحظة التي بدا فيها فشل الثورة الاشتراكية في الغرب واضحاً، عندما فرض علينا مجرى الأحداث ذاته (سحق السبارتكيين في ألمانيا، وإنهاء الإضراب العام احتجاجاً على التدخل في الشؤون الروسية، وسقوط الجمهورية السوفياتية المجرية) الاعتراف بتلك الحقيقة البسيطة: أنه لا يمكن للثورة الاجتماعية إحراز أى انتصار دون مشاركة من جانب الشرق. إلا أن السياسة التي ننتهجها في الوقت الحالى تفتقر إلى ذلك الطابع المحدد الذى تقتضيه قوانين التطور الصحيح لأيّة ثورة اشتراكية....»

وهو يعيد المحاولة، في المقالة الثانية، بتحليل لسياسة البلاشفة، وهو التحليل الذى لم ير فيه رفاقه الروس آنذاك سوى مجرد بدعه، وإن كان يبدو اليوم رؤية تنبؤية:

«.... غير أن الثورة قد وُجّهت في اتجاه خاطئ، من الناحية التكتيكية. فما كان يبدو مهماً في ظواهره المجردة (الحركة السبارتكية في ألمانيا، والثورة المجرية)، لم يكن سوى أمر ثانوى في السياق العام. ومرد ذلك هو أن جل اهتمام القادة الثوريين قد انصب على الغرب. إذ

كان يُنظر لتحول ثورة أكتوبر إلى ثورة اشتراكية عالمية باعتبار أنه انتقال للإرادة الثورية الروسية نحو الغرب، أى نحو ذلك الجزء من العالم الذى اتضحت فيه حدة التناقضات بين مصالح طبقة البروليتاريا والطبقة البورجوازية أكثر من غيرها، وحيث بدأ المناخ أكثر ملاءمة لتطور الثورة نتيجة لذلك. وفى المقابل، فإن الشرق الذى بلغ تعداد سكانه ملياراً ونصف من البشر المقهورين على يد البورجوازية فى أوروبا الغربية، كاد أن يسقط تماماً فى بحر النسيان. فقد امتد تيار الصراع الطبقي الدولي ليحيط بالشرق، ولم يكن لمشكلة الثورة فى الشرق وجود إلا فى عقل بعض أفراد متفرقين، تائهين كما لو كانوا مجرد قطرات من المياه فى خضم بحر الثورة متلاطم الأمواج. ونظراً للجهل المتفشى فى الشرق وما كان يوحى به من مشاعر الخوف، فقد رفض البعض التسليم بأنه يمكن للشرق أن يشارك فى الثورة العالمية. وعلى ذلك فإن اتجاه الثورة الاشتراكية الدولية نحو الغرب وحده كان خطأ فادحاً.»

وقد أضاف سلطان غالييف إلى ذلك بدعة أخرى تفوقها كثيراً، مشككاً فى قدرة العامل الأوروبي على الانتصار وحده على البورجوازية والرأسمالية بقوله: «إلا أننا لسنا على يقين من أن قوة البروليتاريا الأوروبية الغربية تكفى وحدها لسحق البورجوازية فى أوروبا الغربية بسبب بسيط، وهو أن تلك البورجوازية دولية بل وعالمية، وأن القضاء عليها يقتضى الاستعانة بالإرادة والطاقة الثورتين لمجموع البروليتاريا الدولية، بما فى ذلك البروليتاريا فى الشرق.»

ثم كان ذلك النداء الحار لإعادة توجيه استراتيجية الحركة الشيوعية الدولية نحو الشرق فى قوله: «إن الامبريالية الأوروبية الغربية، وقد حُرمت من الشرق وانفصلت عن الهند، وأفغانستان، وبلاد فارس، وغيرها من المستعمرات الآسيوية والأفريقية، سوف يقدر لها أن تتقوض وتنتهى نهاية طبيعية.» وقد بادر سلطان غالييف إلى توضيح مفهومه الاستراتيجى للثورة فى آسيا فى العدد التالى من صحيفة Fizm 'Natsional' nostey واختتم المقال الأخير فى الواقع بعبارة: «البقية فى العدد القادم»؛ إلا أن هذه البقية لم يقدر لها أن ترى النور. ونظراً للمركز المرموق الذى كان يشغله سلطان غالييف - حيث عمل نائباً لرئيس مجلس إدارة صحيفة Fizm 'Natsional' nostey آنذاك - ، فإنه كان يتعين اتخاذ القرار بحظر نشر أكثر الأجزاء أهمية فى تحليله على مستوى عالٍ، عن طريق ستالين نفسه بالتأكيد، وربما بناءً على رأى لينين. والأمر المؤسف حقيقة بالنسبة للمؤرخين هو أن يظل ذلك الجزء الأخير من أكثر المقالات التى كتبها سلطان غالييف أهمية حبيساً حتى يومنا هذا فى المحفوظات الخاصة

بأجهزة المخابرات السوفياتية.

غير أن سلطان غالييف أعاد الكرة من جديد بإرادة حديدية لا يقف أمامها شيء. ففي نوفمبر ١٩١٩، عقد في قازان مؤقراً للمسلمين بمدينة قازان، حيث تولى رئاسته وتوجيه سير المناقشات به. وقدم أحد رفاقه، وهو ميكداد بوروندوكوف، اقتراحاً للتصويت عليه في ذلك المؤتمر يدلل به على مطالبة الشيوعيين التتر بقيادة الثورة في المستعمرات.

«على شعوب الشرق أن تشارك على نحو فعال في التحرير (الشرق)، كما يتعين على الشيوعيين المسلمين الاضطلاع بدور رئيسي في ذلك. إلا أن هذه المشاركة لن تصبح فعالة إلا إذا بادرت السلطة السوفياتية واللجنة المركزية للحزب الشيوعي إلى تقديم أكبر قدر ممكن من المساعدات المادية والمعنوية. وينبغي أن تكون نقطة البداية للمشاركة في هذا العمل هي الإصلاح الجذري للقسم الشرقي في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية، بحيث يُعهد به إلى الشيوعيين المسلمين.»

إلا أن ذلك الطلب قوبل بالتجاهل التام من جانب القادة البلاشفة.

وفي ٢١ نوفمبر ١٩١٩، أثناء انعقاد المؤتمر التحضيري للمؤتمر الثاني للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق برئاسة لينين وستالين وكالينان، طالب سلطان غالييف بتطبيق القرار الصادر في ٢٣ مارس ١٩١٨ وإنشاء الدولة التتيرية البشكيرية على وجه السرعة. وإزاء رفض لينين النظر إلى ذلك الطلب بعين الاعتبار، فقد أُحيل الموضوع إلى اللجنة المركزية للحزب. وفي اجتماع ثانٍ للمندوبين، تقرر إلغاء القرار الصادر في ٢٣ مارس. وبعد بضعة أيام، أعاد سلطان غالييف محاولته في المؤتمر الثاني للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق الذي انعقد في موسكو، في الفترة من ٢٢ نوفمبر حتى ٣ ديسمبر، وتولى هو رئاسته، من قبيل التكريم غير العادي لشخصه، في حضور لينين وستالين وعدد آخر من البلاشفة. وهناك طالب بتنفيذ الوعود المتضمنة في قرار ٢٣ مارس، أو على الأقل إدراج البشكيريين الباقين خارج حدود بشكيريا الصغرى في الدولة التتيرية البشكيرية. ومرة أخرى، رفض الرفاق الروس تلك المطالب، وتم إلغاء قرار ٢٣ مارس ١٩١٨ بصورة قطعية. وتبريراً لذلك الإجراء، استشار ستالين روح العداء من جانب بعض المندوبين البشكيريين تجاه دولة يسيطر فيها التتر الأكثر تطوراً على البشكيريين. إلا أن السبب الحقيقي - وهو الخوف من القومية المحلية - بدا واضحاً من خلال التعليقات الموجهة من شخص يدعى الحريزي (وهو اسم مستعار) إلى مؤتمر التنظيمات الشيوعية لشعوب

الشرق، وذلك فى صحيفة Fizr 'Natsional' nostey الصادرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩ :
«إننا ندرك أن العديد من الرفاق ينظرون بعين الشك إلى الجدوى العملية والسياسية لإنشاء جمهوريات جديدة (. . .) وليس بوسعنا أن ننكر أن هذه الشكوك تستند إلى أسباب وجيهة. فإنشاء أية جمهورية إنما هو سلاح ذو حدين موجه صوب القومية. إذ تفقد القومية فعاليتها عندما لا تواجهها أية عقبات على الطريق، أى عندما لا تشن حرب ضدها.
هذا من جانب، إلا أن القوميين بكافة أنواعهم يستغلون ذلك، من جانب آخر، للتستر وراء العبادة الثورية للشيوعية من أجل القيام بأكثر الأعمال دناءة، فى الوقت الذى يجدون فيه التطرف الوطنى الذى يبلغ حد العدا للبروليتاريا فى الجمهوريات المجاورة.»
ورغم أننا لا نعلم على وجه اليقين من ذا الذى اتخذ لنفسه ذلك التوقيع «الحريزى» لكى يتخفى وراءه، إلا أننا نعتقد بأن تلك الملاحظات المفرضة حول «القوميين الذين يتسترون وراء عبادة الشيوعية» كانت موجهة إلى سلطان غالييف، وإن تم ذلك بصورة غير مباشرة.
وجاء المؤتمر الثانى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق لإقرار تصفية ما تبقى من استقلال للشيوعية الإسلامية. وقد برز ذلك «الحريزى» نفسه، فى مقال بصحيفة Fizr 'Natsional' nostey الصادرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩، إدانة ذلك بدعوى أنها تحبذ القومية:

«إن المطالب والنظريات القومية تظهر بشكل حتمى إذا ما تقبلنا التنظيمات الشيوعية الوطنية، طالما أن هذه الأخيرة تسعى إلى تبرير وجودها عن طريق وضع برامج سياسية خاصة. (. . .) ولا يمكن إلا فى إطار الحزب الشيوعى الروسى ضمان ألا يحيد الشيوعيون الشبان فى الشرق عن الصراط المستقيم لكى يقموا تحت نفوذ الإنتلجننتسيا من البورجوازية الصغيرة التى انقضت على حزيننا لأسباب مختلفة.»

وعقب المؤتمر، ألغيت كلمة «مسلم» وحل محلها لفظ أكثر غموضاً وحياداً وهو «شرقى». وهكذا استبدلت الفروع الإسلامية فى الحزب الشيوعى الروسى بدوائر «لغوية» وضعت تحت إشراف إدارات وطنية. وعينت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أخصائيين، من الروس بوجه عام، على رأس تلك الإدارات. ويُستنتج من تعليقات «الحريزى» أن غالبية الشيوعيين المسلمين كانوا معادين لذلك المشروع وطالبوا بأن يُعهد بتنسيق نشاط الدوائر الوطنية ليس إلى «إدارات معينة» من قبل اللجنة المركزية، وإنما إلى مكتب «منتخب» بواسطة

الدوائر المحلية. وعلى ذلك، فإن الحرب الكلامية كانت تدور حول مشكلة ثانوية في ظاهرها، إلا أنها أخفت وراءها اختلافاً جوهرياً بين الروس، أنصار النظام الواحد، والمسلمين، أنصار اللامركزية، وانبثقت من تلك الحرب الكلامية السياسة التي انتهجتها الأُممية الشيوعية في البلدان الإسلامية.

وأخيراً، فقد تصدى المؤتمر لمشكلة الثورة في الشرق، وفي البلدان الإسلامية بصفة أساسية، رغم حذف كلمات «الشعوب الإسلامية» و «البلدان الإسلامية» بعناية من مفردات اللغة. وجاء القرار النهائي غاية في النفاق - وهو ما يسميه الإيرانيون do-rouyi (الرياء) و do-gouyi (النفاق). فالواقع أنه بعد إعلان ضرورة مشاركة الشرق في الثورة الاشتراكية العالمية، بادر المؤتمر إلى وضع هذه المشاركة تحت سيطرة الحزب الشيوعي الروسي وحده، وهذا بالضبط ما سعى سلطان غاليف ورفاقه إلى تحاشيه. وقد نُشر نص القرار الصادر حول مسألة الشرق في صحيفة Fizm 'Natsional' nostey الصادرة في ٧ ديسمبر ١٩١٩:

أولاً: يرى المؤتمر أن مشكلة الثورة الاشتراكية العالمية يتعذر حلها بدون مشاركة الشرق الذي يمثل قوة اجتماعية واقتصادية لا تضارع.

ثانياً: يتعين على الحزب الشيوعي (ب) الروسي الذي يشغل حالياً، بموجب وضعه الدولي، المركز القيادي للحركة الشيوعية العالمية، اتخاذ اجراءات ملموسة في سبيل نشر الثورة في الشرق.

ثالثاً: إن العمل الثوري الذي يضطلع به الحزب الشيوعي في الشرق ينبغي أن يسير في اتجاهين. أحدهما يمليه البرنامج الثوري للطبقي للحزب الذي يوصى بإنشاء أحزاب شيوعية في بلدان الشرق تنبثق عن الأُممية الشيوعية الثالثة. والاتجاه الآخر يحدد على أساس الوضع السياسي والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي للشرق الذي يفرض عليه، حتى وقت معين، مساندة الحركات الوطنية المناهضة للامبريالية والتي تتزعمها البورجوازية، شريطة ألا تتعارض هذه الحركات مع الإرادة الثورية للبروليتاريا الدولية. رابعاً: حتى يتسنى تحقيق هذه الأهداف، يجدر تنظيم الدعاية المناهضة للامبريالية والاهتمام إلى أقصى حد بينيان الشيوعية في الشرق.

خامساً: يتولى القيام بهذا العمل الجهاز المركزي للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق، الذي يقوم بإنشاء دوائر إقليمية وفروع تخضع لسلطة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

الروسي.

سادساً: حتى يمكن حشد الطاقات اللازمة لإثارة الميول الثورية في الشرق، يجدر تركيز العمل داخل الجمهوريات السوفياتية الشرقية التي أنشئت بالفعل أو سيجرى إنشاؤها مستقبلاً (تركستان، كيرجيزيا، وغيرها).

سابعاً: في سبيل تحقيق هذه الأهداف، ينبغي الشروع على الفور في إعداد أشكال محددة للعمل، وتثبيت دعائم الصلات بين هذه الجمهوريات التي ستمثل المراكز الثورية للشرق في المستقبل.

ثامناً: يرى المؤتمر ضرورة اتخاذ الإجراءات المحددة التالية كنقطة بداية:

(١) التعجيل بإعداد عمال الحزب ومجالس السوفيات للاضطلاع بمهامهم في الشرق.

(٢) إعداد مستشرقين سوفيات.

(٣) إنشاء جيش أحمر بروليتاري شرقي، يشكل جزءاً من الجيش الأحمر الدولي.

(٤) تكثيف إعداد القادة العسكريين الأحمر.

ويعتبر المؤتمر الثاني للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق منعطفاً هاماً في الحياة السياسية لسلطان غالييف. وهو كذلك صاحب أعلى منصب يشغله مسلم داخل تنظيم الحزب الشيوعي الروسي، فضلاً عن كونه أحد المستشارين ذوي الكلمة المسموعة لدى ستالين، ظاهرياً على الأقل، وإن كان في الواقع على خلاف مع رفاقه الروس حول معظم النقاط المتعلقة بالثورة في الشرق. إذ يظهر بمظهر «شبه المنشق»، كما أن مقالاته وتصريحاته العامة تتعارض مع وجهات النظر الرسمية. وعلى ذلك، فإن سلطان غالييف قد اعتقد، في أبريل ١٩٢٠، بعد قيام الجيش الأحمر بغزو ياكو، بأن الوقت قد حان للإعلان من جديد أن الأقاليم الإسلامية المحيطة بروسيا السوفياتية هي نقطة الإنطلاق نحو انتشار الشيوعية في الشرق الإسلامي. وفي إحدى المقالات الهامة المنشورة بصحيفة Fizm 'Natsional' nostey بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٢٠، والمخصصة لإعلان جمهورية أذربيجان السوفياتية، كتب يقول:

«إن إضفاء الطابع السوفياتي على أذربيجان هو أمر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للبيان الشيوعي في الشرق الأدنى (.....) وإذا كانت تركستان الحمراء قد لعبت دور المرشد الثوري لكل من تركستان الصينية، والتبت، وأفغانستان، والهند، وبخارى، وخيفا، فإن أذربيجان السوفياتية بما فيها من بروليتاريا قديمة محنكة وحزب شيوعي قوي، وهو حزب

الهمة، سوف تكون المنارة الحمراء لبلاد فارس، وبلاد العرب وتركيا (. . . .) كما أن كون اللغة الآشورية من اللغات المتداولة لدى الأتراك فى استانبول، والفرس فى تبريز، والأكراد، والشعوب التركية فيما وراء بحر قزوين، والجيورجيين والأرمن، من شأنه أن يضاعف من أهمية السياسة الدولية التى تنتهجها أذربيجان السوفياتية. فمن هناك، سوف يمكننا مناقشة الانجليز فى فارس، والوصول إلى بلاد العرب، وتوجيه الحركة الثورية فى تركيا حتى تتحول إلى صراع طبقي مستقل بدرجة أو بأخرى. »

وقد نوقشت مشاكل الثورة فى المستعمرات، ودور الشيوعيين المسلمين كنتيجة لاحقة لذلك، مرتين فى عام ١٩٢٠: فى شهر يولية أثناء المؤتمر الثانى الذى عقدته الأهمية الشيوعية (يولية - أغسطس ١٩٢٠) فى موسكو، والذى حضره سلطان غاليف كعضو فى الوفد الروسى - وإن لم يكن له فيه أدنى دور - ، وفى شهر سبتمبر على وجه الخصوص خلال المؤتمر الأول لشعوب الشرق فى باكو الذى لم يحضره، وإن كان قد تصدى للدفاع عن آرائه اثنان من المقربين له، وهما الكازاخستانى تورار ريسكولوف والتركستانى ناربوتا بيكوف، اللذان اتهمهما ستالين فيما بعد باعتبارهما «غالييفيين قوميين بورجوازيين»، حيث جرى إعدامهما عام ١٩٣٨.

وقد نُشرت تعليقات عديدة حول مؤتمر باكو، حيث اعتُبر فى بعض الأحيان - وخلاقاً للحقيقة - محاولة من جانب الأهمية الشيوعية لنقل الحركة الثورية إلى الشرق من خلال الدعوة إلى الجهاد ضد الامبريالية الغربية. إلا أننا لو أجرينا تحليلاً للتقرير الموجز الصادر عن المؤتمر على ضوء الصراع الخفى الذى تصدى فيه سلطان غاليف ورفاقه، على مدى ما يقرب من عامين، للبلاشفة الروس، لتأكد لنا أن نوايا زعماء الأهمية الشيوعية الحاضرين فى باكو كانت مختلفة تماماً. فقد رأى سلطان غاليف ورفاقه، من وجهة نظرهم، أن مؤتمر باكو ينبغي أن يكون نقطة انطلاق لحرب التحرير الكبرى من جانب «شعوب الشرق المقهورة» ضد الغرب. أما قادة الأهمية الشيوعية فكانوا يعتقدون أن النداء الموجه إلى الشرق لا يُقصد من ورائه سوى طلب العون المؤقت للبروليتاريا الصناعية الغربية فى صراعها ضد البوجوازية، عن طريق إضعاف القوى الاستعمارية الأوروبية، وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا.

وقد شدد تورار ريسكولوف، المندوب الكازاخستانى لإقليم سير - داريا، وهو يطرح مشكلة الثورة فى أى بلد مستعمر، على دور البورجوازية الصغيرة الراديكالية المحلية فى حركة

ينبغي أن تكون حركة للتحرر الوطنى وثورة اشتراكية فى آن واحد:
« لا يمكننا أن نعتد فى الشرق على ثورة شيوعية خالصة. فهذه الثورة سوف تكتسب الطابع الوطنى للبورجوازية الصغيرة، إلا أنها سوف تتطور بالضرورة إلى حركة اشتراكية. (. . .) وطالما أن التنظيمات الثورية العمالية فى الشرق لا تزال ضعيفة، فإنه سوف يتعين على « الديمقراطيين البورجوازيين الصغار » تولي قيادتها. »
أما ناريتا بيكوف، مندوب تركستان الذى لا يمثل أى حزب معين، فقد أكد، انطلاقاً من وجهات نظر سلطان غالييف على وجه الدقة، أن مستقبل الثورة العالمية فى الشرق لا العزب:
« إن السلطة السوفياتية لن تجد لها حليفاً خيراً من الجموع الكادحة فى الشرق. فعلى مدى ثلاثة أعوام، ورغم النداءات المتكررة من جانب رفاقنا، لا تزال البروليتاريا فى أوروبا الغربية - خيرة عناصر الثورة العالمية - غير قادرة على أن تحزم أمرها لتقديم العون لنا بصورة جادة.

لقد أثبت الفشل الذريع لإضراب ٢١ يولية أن البروليتاريا فى أوروبا الغربية لا تستطيع أن تمد يد العون إلى الثورة الروسية؛ ومن ثم فإنه يتعين المبادرة دون إبطاء إلى تنظيم الشرق بصورة عقلانية وطبقاً للأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية الملتهمة له. وليس هناك من سبيل آخر أمام السلطة السوفياتية. »

وقد أكد ناريتا بيكوف، مثله فى ذلك مثل سلطان غالييف، على ضرورة مواصلة الشيوعية طبقاً للظروف الخاصة للشرق، وإتاحة الفرصة أمام الشيوعيين المسلمين لتبوء مركز متميز فى صرح الاشتراكية: « إن الاختلاف جد كبير بين الشرق والغرب، فضلاً عن تباين المصالح فيما بينهما، وهكذا فإن التطبيق المباشر للشيوعية سوف يواجه بمقاومة. وعلينا أن نوائم النظام السوفياتى حتى يمكن للملايين المسلمين تقبله. فالمسلمون لن يتخلوا عن السلطة السوفياتية شريطة الاعتراف بمصالحهم. »

إلا أن ادعاءات المندوبين المسلمين قوبلت جميعها بالرفض من جانب قادة الأهمية الشيوعية الحاضرين فى المؤتمر، زينوفيف وراديك وبيلا-كون. والواقع أن المؤتمر قد نبذ فكرة إنشاء جبهة وطنية دائمة تتولى إدارتها البورجوازية الصغيرة التى كان سلطان غالييف والمقربون إليه يعتبرونها حجر الزاوية لأى توسع شيوعى فى الشرق. وقد أعلن المؤتمر، بناءً على اقتراح من زينوفيف وبيلا كون، ضرورة التزام بين الثورتين، التحرر العالمى من الامبريالية والثورة

الاجتماعية ضد الإقطاع والبورجوازية على الصعيد المحلى. فقد صرح زينوفيف بقوله: إننا نساند الحركة الوطنية التركية، ولكننا نضطلع فى الوقت ذاته بواجب مقدس هو استنفار الفلاحين المقهورين فى تركيا للكفاح ضد الأثرياء والطغاة جميعاً.»

أما ولتمان - بافلوفيتش، وهو البلشفى الوحيد الذى تلقى تدريباً يؤهله كمستشرق متخصص مع دراية بالعالم الإسلامى، فقد كان أكثر صراحة فى التعبير بقوله: «إذا لم يفسر النضال الوطنى فى فارس والهند وتركيا إلا عن استيلاء الرأسماليين وذوى الأملاك فى هذه البلدان على السلطة، فإن الجموع الشعبية تكون قد خرجت من المعركة صفر اليدين.» وتناول بيلا - كون، من جانبه، وهو القائد الشيوعى المجرى الذى أحبط الثورة الشيوعية فى المجر بصورة مذهلة، وكان قد كُلف بعرض القضايا «المتعلقة بسلطة السوفييات فى الشرق» والتي اعتمدها المؤتمر، ذلك مؤكداً: «إن مجرد التحرر من نير الغزاة الأجانب لن يكفل وحده (للجموع الشرقية) الحرية الحقيقية، بل عليها أن تتخلص من طغيانها، البورجوازية الوطنية.»

كما شددت غالبية المندوبين الروس والأوروبيين كذلك على ضرورة أن يُعهد بقيادة الحركة الثورية فى المستعمرات لا إلى البورجوازية الراديكالية الصغيرة، وإنما إلى طبقة الفلاحين الفقراء، وإن كانت هذه الأخيرة، نتيجة لضعفها السياسى، قد عجزت عن البرهنة على جدارتها بذلك الشرف. فقد صرح بيلا كون، رغم افتقاره لمساندة طبقة الفلاحين فى المجر قبل ذلك بعدة أشهر، قائلاً: «إن ديكتاتورية البروليتاريا فى الشرق، حيث لا وجود لطبقة العمال الصناعيين، هى تعبير عن ديكتاتورية الفلاحين الفقراء. (. . .) ومن ثم فإن طبقة الفلاحين ينبغى أن تكون هى العنصر القيادى فى مجالس السوفييات.»

وأخيراً، فقد أكد الجميع الأولوية المطلقة للثورة البروليتارية فى الغرب على الثورة الاستعمارية: «علينا ألا نغفل تلك الحقيقة البديهية، وهى أنه لن يتسنى لشعوب الشرق الظفر بحريتها دون الاتحاد مع البروليتاريا الغربية.» وكما يقول بافلوفيتش، فإن «خلاص الشرق ليس له من سبيل سوى انتصار البروليتاريا الغربية.»

وهكذا فإن مؤتمر باكو، رغم النداءات الداعية إلى الجهاد المقدس، قد مثل تراجعاً تكتيكياً فيما يتعلق بالمؤتمرات المعقودة من قبل التنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق. فاقترح التحالف بين البروليتاريا الغربية وطبقة الفلاحين المعدمين فى الشرق كان يفتقر إلى الواقعية تماماً. ومن ثم فإن مؤتمر باكو، برفضه أى شكل من أشكال التعاون الدائم مع البورجوازية

الوطنية، وبإيالاته أهمية قصوى لطبقة الفلاحين الفقراء وأولوية مطلقة للثورة في الغرب، قد مثل عودة إلى التشدد المذهبي بدرجة أكبر الأمر الذي ترتب عليه تقليص الإمكانيات الثورية في الشرق. وهكذا تلاشى حلم الشيوعيين التتر في اندلاع «ثورة مستمرة» في آسيا من شأنها أن تتيح لهم القيام، يوماً ما، بدور الوسيط بين الأهمية الشيوعية والحركات الثورية المحلية. ومن المحتمل أن يكون سلطان غالييف قد خلص، حتى قبل انتهاء المناقشات في مؤتمر باكو، إلى نتيجة مؤداها أنه لن يتسنى له نقل مطالبه الشيوعية - الوطنية في إطار الحزب الشيوعي الروسي، وإنما عليه البحث عن تنظيم آخر. وقد وقع اختياره، دوغما انفصام عن رفاقه البلاشفة، على تنظيم الشبيبة الشيوعية (Komsomol). وعقد في موسكو، في الفترة من ١٢ إلى ١٨ سبتمبر ١٩٢٠، وبمعاونة رفاقه من المكتب المركزي للتنظيمات الشيوعية في بلدان الشرق، المؤتمر الروسي الجامع الأول للشبان الشيوعيين من شعوب الشرق، حيث ضم حوالى مائة من المندوبين يمثلون أكثر من ٦٠.٠٠٠ من الشبان الشيوعيين في الشرق. وقد قرر المؤتمر إنشاء مكتب مركزي شرقي يتبع تنظيم الشبيبة الشيوعية ويضطلع بمهمة «توجيه الدعاية للأفكار الشيوعية بين شباب الشرق» و «يعتبر بمثابة هيئة فرعية تابعة للجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية». وهذا المكتب المركزي، المؤلف من تسعة أعضاء تحت رئاسة سلطان غالييف، أنيطت به إدارة سلسلة من «المكاتب الشرقية» التي أنشئت في إطار اللجان الإقليمية والمحلية وتلك المختصة بالمقاطعات التابعة لتنظيم الشبيبة الشيوعية في كل من بشكيريا وتركستان وكيرجيزيا. كما تقرر أن تخصص لهذه المكاتب إدارة مستقلة وأن تتبعها دوائر للصحافة والنشر. وقد أثار سلطان غالييف للمرة الأولى، في ذلك المؤتمر الذي جرت وقائعه تحت شعار «وحدة الشعوب الإسلامية في الشرق»، فكرة إنشاء أمانة للمستعمرات الشيوعية بصفة مستقلة عن الأمانة الشيوعية وهو ما أصبح أحد النقاط الرئيسية لبرنامج بعد عام ١٩٢٣. إلا أن محاولاته «الانفصالية» اصطدمت، للمرة الثانية، بالحذر المشوب بسوء النوايا من جانب رفاقه الروس. إذ لم يكف المؤتمر يختتم أعماله، حتى بادرت مجلة Fizm 'Natsional' nostey إلى نشر مقالة تتهم فيها الشبان الشيوعيين المسلمين بارتكاب «أخطاء جسيمة» لإباحتهم «المناورات الشائنة» (urodliuye) الرامية إلى إنشاء جهاز تنظيمي شبه مستقل لكل قومية على حدة داخل اتحاد الشبيبة الشيوعية. وعندئذ تدخلت اللجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية الروسية، الأمر الذي أدى إلى فشل مشروع المكتب الشرقي. بيد أن سلطان غالييف

ورفاقه نجحوا فى أن يجعلوا من تنظيمات الشبان الشيوعيين فى الجمهوريات الإسلامية بروسيا السوفياتية معاقل حقيقية للشيوعية الوطنية، لا سيما فى تترستان حيث بلغوا حد السيطرة التامة على تنظيم الشبيبة الشيوعية الجمهورى.

وعلى ذلك، فإن مشاريع سلطان غاليف قد باءت جميعها بالفشل فى غضون عامين اثنين. وحُرم الشيوعيون المسلمون من أى تنظيم مستقل بدعوى الفعالية والمركزية. فقد جعل ممثلو الأُمّية الشيوعية فى مؤتمر باكو من الصعب، إن لم يكن من المستحيل فى وقت ما، نشر الاشتراكية خارج حدود روسيا السوفياتية. وأخيراً قامت الحكومة المركزية، من منطلق خشية الجامعة التركية، بتفكيك الجامعة التترية البشكيرية فى القولجا - الأورال بإنشاء جمهوريتين مستقلتين صغيرتين بدلاً من دولة إسلامية كبرى.

ولعلنا نتساءل عن الأسباب التى دعت قادة موسكو، لاسيما ستالين، إلى المبادرة على الفور برفض نظريات سلطان غاليف. ونسوق فيما يلى بعضاً من هذه الأسباب على نحو ما نعتقد:

- على الصعيد الفكرى أولاً. أن القادة البلاشفة، بنشأتهم الغربية، لم يكونوا على دراية بالشرق، فضلاً عن عدم اهتمامهم بحركة ثورية لا تساند البروليتاريين الصناعيين.
- وعلى الصعيد السياسى كذلك. أن سلطان غاليف كان يسعى إلى استغلال الأراضى الإسلامية فى روسيا، وقازان على وجه الخصوص، كأداة للتوسع الثورى فى آسيا، وهو ما كان من شأنه أن يجعل من الشيوعيين التتر السادة المطلقين الحقيقيين فى الأُمّية الشيوعية. ولعل فى ذلك ما يفسر لنا لماذا تحمس المسلمون الذين تغلب عليهم صفة القومية على الشيوعية للانضمام إلى النظام الجديد، على أمل أن يتيح لهم دورهم فى آسيا التمتع بثقل يعادل وزن روسيا الأوربية فى اللعبة السياسية. إلا أننا ندرك كذلك حذر الروس من هؤلاء الحلفاء الذين لا يوثق بهم أيديولوجياً.
- وأخيراً على الصعيد النفسى. فإن تشدد ستالين وغيره من الزعماء الشيوعيين الروس كان مشبعاً بروح بيروقراطية تأبى على المحيط الإسلامى أن تكون له أجهزة وطنية مستقلة أو لا تتوافق مع الجهاز المركزى.

وفى خريف عام ١٩٢٠، ألقت الحرب الأهلية أوزارها وحقق الجيش الأحمر انتصارات على جميع الجبهات. كما آلت الأقاليم الإسلامية فى امبراطورية القيصرية القديمة إلى سلطة

البلاشفة منذ ذلك الوقت: فتم فتح أذربيجان في أبريل ١٩٢٠، وبخارى في سبتمبر، بينما
فُتحت كرميه في أكتوبر، وخيفا في ديسمبر. ولم يبق سوى الثوار المسلمين وحدهم في مواجهة
الوحدات الحمراء في القوقاز الشمالية وفي تركستان. وامتدت هاتان الثورتان بقيادة العناصر
الدينية الأكثر تحفظاً حتى عام ١٩٢١ في داغستان وحتى عام ١٩٢٨ في تركستان. ورغم أن
السلطة السوفياتية أحرزت انتصاراً في جميع المناطق الأخرى، إلا أن ذلك النصر امتزج بالمرارة.
فقد اجتاحت الدمار والاستنزاف أنحاء روسيا، لا سيما الأقاليم الإسلامية في فولجا الوسطى،
وفي كرميه، والقوقاز، وتركستان. وكانت الخسائر في الأرواح البشرية مفرغة، كما صاحبها
حدوث مجاعات، وتوقف شبه تام لوسائل المواصلات، إلى جانب الدمار الاقتصادي، واختفاء
طبقة الصفوة بعد قتل أبنائها أو لجوئهم إلى الخارج، فضلاً عن تدمير المؤسسات التقليدية
الإسلامية: كالمدارس والمساجد. وهكذا تقوض الجهاز الإداري والسياسي الذي أرسى سلطان
غالييف وملا نور فاهيتوف دعائمه في إقليم الفولجا الوسطى، في خضم المعارك التي اكتسحت
كل شيء فلم تبق ولم تذر. كما اختفت معظم المفوضيات واللجان والمكاتب الإسلامية التي
أنشئت في ١٩١٨-١٩١٩ من حيز الوجود، وأبديت الوحدات الحمراء الإسلامية خلال الهجمات
الضارية التي شنتها ضد التشيكوسلوفاك وكولتشاك. أما الحزب الشيوعي الإسلامي فلم يعد
له وجود، وتحطم حلم إنشاء دولة إسلامية تترية بشكيرية كبرى. وأخيراً فإنه بعد القضاء على
البيض، لم يعد القادة السوفييات بحاجة إلى حلفائهم المسلمين.

وهكذا فإن محصلة ذلك النشاط المحموم على مدى أعوام الحرب كانت تبدو سلبية تماماً
بالنسبة لسلطان غالييف. إلا أن هذه السلسلة من الفشل قابلتها جزئياً ظاهرة جديدة، طرأت في
نهاية الحرب الأهلية وغداة تلك الحرب: وهي انضمام المسلمين إلى الحزب الشيوعي الروسي
بأعداد كبيرة. والواقع أن القادة البلاشفة قد أدركوا تماماً مدى ضعف السلطة في المحيط
الإسلامي. وكانوا بحاجة إلى مهلة حتى يمكنهم تدعيم تلك السلطة. واقتضى الأمر إخماد
ثورات البسماتشين والطرق الصوفية في شمال القوقاز تحقيقاً لذلك الغرض. وتواكب هذه
المهلة فترة السياسة الاقتصادية الجديدة حيث استمرت حتى عام ١٩٢٨. وخلال تلك الفترة،
استطاع المسلمون حديثو العهد بالشيوعية، بفضل هيمنتهم على الأحزاب الشيوعية المحلية،
إدارة شؤون جمهورياتهم دون تدخل كبير من جانب موسكو. وترك لهم ستالين، مفوض الشعب
لشؤون القوميات، حرية القيام بذلك، رغبة منه في تعزيز الوفاق بين الروس وسكان البلاد

الأصليين. وهكذا وصل إلى السلطة أعضاء جميع الأحزاب السياسية القومية الإسلامية في فترة ما قبل الثورة بالجملة، أعضاء حزب الهمة في أذربيجان، وأعضاء حزب ألاش - أوردا الكازاخستاني، إلى جانب الكریميين أعضاء حزب ملی - فركيست، والبخاريين الشبان، والخيفيين الشبان في آسيا الوسطى. وكان زعماءهم، الكازاخستانيون أحمد باي طورسون، وعلى بوكيخانوف، والتركستانيون فيظ الله خودجايف، وأكمل إكراموف، وتورار ريسكولوف، والكریمی والى إبراهيموف، وغيرهم كثيرون، يعتنقون بدرجة أو بأخرى آراء سلطان غالييف حول ضرورة أن يتوخى المسلمون الذين تحولوا إلى الشيوعية الحذر من الحزب الشيوعي الروسي. وعلى مدى الأعوام الثلاثة الفاصلة بين انتهاء الحرب الأهلية وإقالة سلطان غالييف للمرة الأولى من عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٣، نقل الشيوعيون القوميون المسلمون جهودهم، بعد إقصائهم عن إدارة شؤون المركز في موسكو وعن سياسة روسيا السوفياتية في العالم الإسلامي، إلى جمهورياتهم الوطنية، حيث حاولوا أن يجعلوا منها معاقل وطنية مع إبعاد رفاقهم الروس عنها بقدر المستطاع، وحققوا في ذلك نجاحاً ساحقاً في كثير من الأحيان. وترتب على ذلك انتقال الصراع الدائر داخل الأحزاب الشيوعية المحلية بين المركزية الروسية من جانب والتطلعات الاستقلالية للمسلمين من جانب آخر، إلى المحيط الإسلامي بدلاً من موسكو.

وفي أعقاب مؤتمر باكو، أصبحت الاتصالات بين موسكو والحركات الثورية في الشرق، وبصفة رئيسية في تركيا وإيران، حكراً على الروس وغيرهم من «الأوروبيين»، في حين ظل الشيوعيون المسلمون على الحياد بصورة قاطعة، الأمر الذي ألحق أبلغ الأضرار بالحركة الثورية في الشرق. وأصبح تصدير الثورة إلى عالم المستعمرات، ولا يزال إلى اليوم، من اختصاص الروس. ففي عام ١٩٢٠، نزل فيلق كامل من الجيش الأحمر في أوتزيلي، بدعوى مساعدة الجونجيليين في حربهم ضد نظام الكاجاريين و «الامبريالية الإنجليزية». ولما كان يتألف من الروس بالكامل، فقد التزم الحياد عندما شن الجونجيليون هجومهم الكبير على طهران. ولم تلبث الجبهة المشتركة بين القوميين الجونجيليين والشيوعيين، وهي التجربة الأولى من نوعها في تاريخ الحركة الشيوعية الدولية، أن انهارت وتقوضت أركانها. وبادر الزعيم الجونجيلي ميرزا كوتشيك خان، اعتقاداً منه بأن حلفاء الشيوعيين كانوا يناوون لتولى زعامة الجبهة والشرع في تصفية القوميين، إلى قتل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإيراني. وبعد ذلك مباشرة تم إجلاء فيلق الجيش الأحمر عن غيلان، وفي سبتمبر ١٩٢١، ألحق جيش الشاه الهزيمة

بجيش الشوار. كما لقي كوتشيك خان حتفه متأثراً بالصقيع أثناء محاولته عبور جبال تاليش للجوء إلى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. أما مصطفى صبحى ورفاقه الأتراك الذين قاموا بتأسيس الحزب الشيوعى التركى فى باكوفقد اتجهوا، من جانبهم، إلى تركيا، اعتقاداً منهم أن نفوذهم سيتيح لهم إجبار كمال أتاتورك على تحويل ثورته الوطنية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية. وكان رحيلهم فى سبيل هذه المهمة بموافقة القادة البلاشفة، ومن بينهم لينين وستالين. إلا أنه لدى وصولهم إلى تريبزوندا، قام العسكر بإلقاء القبض عليهم وقتلهم بالحراوب ثم إلقاء جثثهم فى البحر. وانتشرت الأقاويل فى موسكو بأن تلك المذبحة لم يُقصد بها الإساءة إلى قادة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية الذين أعلنوا بوضوح، منذ ذلك الوقت، أنهم يفضلون إقامة أنظمة «بورجوازية» محايدة فى تركيا كما فى إيران أو أفغانستان، عن الاندفاع فى مغامرات ثورية. وفى عام ١٩٢٢، أعلن فى تركيا أن الشيوعية غير مشروعة، واختفى الحزب الشيوعى من الساحة السياسية التركية.

غير أنه من الخطأ الاعتقاد بأن سلطان غالييف ورفاقه فقدوا كل اتصال لهم بالعالم الإسلامى الخارجى. إذ لم يتم إسدال ستار حديدى منيع إلا بعد عام ١٩٢٨، وهو تاريخ إدانة سلطان غالييف للمرة الثانية. وخلال الأعوام العشرة الأولى من النظام السوفياتى تسريت النظريات الجريئة للشيوعيين الوطنيين المسلمين إلى عالم المستعمرات من خلال عدة قنوات. وهناك لقيت تلك النظريات صدى أفضل بكثير من فرضيات الماركسية التقليدية التى بدت فى نظر عالم المستعمرات بتأكيدھا على الصراع الطبقي، و «الدولانية البروليتارية»، فضلاً عن التدمير العنيف للأسرة والمجتمع التقليدى، والهجوم السافر على الدين الوطنى، وحلم التصنيع الذى يستحيل تحقيقه، كما لو كانت تحمل نفس الوجه تماماً مثل أوروبا. وكان هناك العديد من الشيوعيين الآسيويين، ومعظمهم مسلمون، فى موسكو فى ذلك الوقت، يعقدون مقارنة بين الفرضيات «الغالييفية»، كما بدىء فى تسميتها، والفرضيات التى تتبناها الأهمية الشيوعية بصفة رسمية. وكان الأوروبيون المسيطرون تماماً على الأهمية الثالثة هم وحدهم من يملكون حق تقرير استراتيجيتها الاستعمارية، حيث رفضوا أن يتولى إدارة الحركة الشيوعية فى البلدان المستعمرة حزب قومى بورجوازى واشتراكى غير بروليتارى فى آن واحد. إذ اقترح زعماء الأهمية الشيوعية على أعضائه الجدد القادمين من بلدان آسيا، بدلاً عن ذلك، تكوين أحزاب شيوعية «بروليتارية» بمساعدة روسيا السوفياتية تمثل الطبقة العمالية التى لا وجود لها. وبعبارة أخرى،

كان على الشيوعيين فى آسيا أن ينتهجوا دون تبصر نهج الثورة التى حققت انتصاراً فى روسيا وإن كانت قد أخفقت فى ألمانيا والمجر. إلا أن هذا البرنامج كان يفتقر إلى أية جاذبية، فضلاً عن تعذر تطبيقه، وما ترتب عليه من إخضاع الثوريين الشرقيين لتبعية موسكو لفترة غير محددة.

وكان سلطان غالييف ورفاقه يدركون أن النموذج الذى وضعوه للثورة الآسيوية يمكن أن يلقى قبولاً أكبر. كما كانوا متفائلين للغاية عام ١٩٢٠، رغم كل ما كابده من صد وما واجهه من فشل، بأن أفكارهم سيقدر لها النصر فى النهاية. ففى أحد الخطابات المؤرخة ٢١ فبراير ١٩٢٠ (وهو الخطاب الذى صادرتة اللجنة الاستثنائية (التشيكا))، كتب سلطان غالييف إلى رفيقه إليمدار بايمبيت، أحد قدامى الاشتراكيين الثوريين الذين انضموا إلى الشيوعيين، ما نصه: «إن المركز (موسكو) يسعى ولا ريب إلى إحداث انشقاق داخل حركتنا (الشيوعية التترية). غير أنه علينا ألا نترك أنفسنا نهياً لليأس. لقد اخترنا الطريق الصحيح. وإننى لعلنى يقين من أن النصر سوف يكون حليفنا. » (مقتبس عن ج. قاسموف، Pantiurkistkaia kon, trevevolutsiia i ee Agentoura Sultangalievsh China, ص ٩٥، ١٩٣٣، قازان)

ومن جهة أخرى، فإن مركز سلطان غالييف كان قوياً على ما يبدو بحكم كونه من قادة مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وأحد معاونين المقربين لجوزيف ستالين، حيث كان على صلة يومية به. كما كان كذلك، إلى جانب تحرير صحيفة Fizm 'Natsional' nostey وغيرها من المطبوعات الصادرة عن مفوضية الشعب لشؤون القوميات، ممثل كرميه فى مجلس القوميات التابع لمجلس السوفيات الأعلى، وعضواً باللجنة المركزية التنفيذية لمجلس السوفيات الأعلى فى الجمهوريات التترية، منذ سبتمبر ١٩٢١، ثم رئيساً للمجمع التترى قبل مجلس مفوضى الشعب فى موسكو منذ يونية ١٩٢٢، وبالتالى الممثل الرسمى لتترستان قبل الحكومة السوفياتية. وهكذا فإنه كان يشغل، حتى إلقاء القبض عليه للمرة الأولى، مركزاً متميزاً فيما يمكن أن نسميه اليوم بالصفوة البيروقراطية السوفياتية حيث كان يتمتع بسلطة حقيقية.

وأخيراً، فإن سلطان غالييف كان أستاذاً يشار له بالبنان فى الجامعة الشيوعية لعمال الشرق، التى أنشئت عام ١٩٢١ فى موسكو. وكانت تلك المؤسسة البارزة ملتقى لقادة الأهمية الثالثة، حيث كان المنتظرون التقليديون أمثال بوخاران، وزينوفيف، وبافلوفيتش، يجلسون جنباً إلى جنب مع المنشقين الشرقيين ذوى النفوذ مثل تورار ريسكولوف، وناريمان ناريمانوف، وأحمد

باى طورسون، والهندي مويندرا-ناث روى، والهولندي سنيغلييت، والإيراني سلطان-زاد، وجميعهم تأثروا بشدة بأفكار سلطان غالييف. وقد برز من طلبة الجامعة ثوار شبان من جميع أنحاء آسيا، أصبح بعضهم زعماء في بلادهم فيما بعد، مثل الإندونيسي تان ملكة، والياباني من كاتاياما، والصيني ليوشاو - تشى، والفيتنامي هوتشى - منه.

وعلى ذلك فقد نقل سلطان غالييف جهوده إلى الجمهورية التترية، إلا أن أهدافه كانت تفوق بكثير حدود تلك الدولة الصغيرة، حيث كان التتري لا يمثلون بالكاد سوى نصف عدد السكان. ومن ثم فقد اقترب، في مرحلة أولى، من مواقع القوميين البورجوازيين التتري، أعداء الأمس، وكرس كل نشاطه للتصدي في كل مكان لما أسماه «النزعة الوطنية الروسية الكبرى»، محاولاً استغلال مركزه في مفوضية الشعب لشؤون القوميات لإنشاء نواة لتنظيمات الحزب ومجالس السوفيات في تترستان كما في غيرها من الجمهوريات الإسلامية، بالاستعانة برفاقه وأصدقائه المختارين بصفة عامة من بين معاونيه القدامى في المجمع المركزي العسكري الإسلامي. ويمكننا التسليم بأن سلطان غالييف كان يعد، منذ ذلك الوقت، لما أصبح يعرف فيما بعد باسم «الحزب الاشتراكي الشرقي»، حيث تألف مجلس قيادته من الشيوعيين التتري. كان رفاق سلطان غالييف يمثلون حتى عام ١٩٢٣ أغلبية قادة الحزب الشيوعي التتري. ونذكر من بين هؤلاء، برهان منصوروف، رئيس اللجنة المركزية التنفيذية في تترستان، وآياز موهتاروف، مفوض الصحة العامة، ووالى إسحاقوف، مفوض الزراعة، ورؤوف صابروف وحسنوف، أعضاء مجلس رئاسة اللجنة المركزية التنفيذية، ومكداد بوروندوكوف، مفوض التعليم الوطني، وجيلفيه بورناشيف، وقاسم منصوروف، وإسحق كازاكوف، وأ. مقصودوف، وش. جسمانوف... وغيرهم. وكان «الغالييفيون» في تترستان شيوعيين حقيقيين وورثة للحركة الإصلاحية الراديكالية في آن واحد، أي أنهم كانوا «يمينيين» على الصعيد الداخلي، وإن كانوا «يساريين» فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. فقد اجتمعت فيهم على نحو متسق تماماً شيوعية محدثة مع وطنية قوية إلى الحد الذي جعلهم يخشون احتمال عودة القوات الروسية المناهضة للثورة. وفي ذلك يقول بوروندوكوف: «علينا أن ننشئ جمهوريةنا المستقلة وأن نحافظ عليها بأي ثمن، إذ قد تتعرض السلطة السوفياتية للهجوم من جانب كولتشاك جديد؛ وربما ظهرت ثورة مضادة جديدة يكتب لها الانتصار. ولن يقدر للأمة التترية الخلاص من القهر إلا إذا أصبحت لنا دولتنا الوطنية. حينذاك.» وعلى ذلك، فإن تترستان الصغرى ينبغي أن تكون، من

وجهة نظرهم، لا مجرد مركز ثوري فحسب، وإنما معقلاً للقومية التتارية كذلك. إذ كان هدفهم الرئيسى هو «إضفاء الطابع التتارى» على الجهاز الإدارى فى جمهوريتهم، وهو ما يقتضى اتحاد جميع طبقات الأمة، بما فى ذلك البورجوازية. وقد تبين فى هذا الصدد أن القادة الشيوعيين التتار أكثر «انجهاً إلى اليمين» من سلطان غالييف ذاته. إذ كانوا ينكرون بصورة قاطعة، ربما أكثر منه، وجود البروليتاريا المحلية، وحتى إذا سلموا بهذا الوجود، فإن ذلك كان لتأكيد تعارض المصالح ليس بين البروليتاريا والبورجوازية التتارية، وإنما بين البروليتاريين التتار والروس. كما كانوا يرفضون قطعياً التسليم بالصراع الطبقي فى المناطق الريفية، بدعوى أن «الفلاح التتارى من التخلف على نحو يحول دون وصوله إلى الاشتراكية». إلا أن «إضفاء الطابع التتارى» على قازان لم يكن سوى خطوة أولى. فقد كان الهدف النهائى الذى سعى إليه سلطان غالييف بإصرار هو أن يجعل من قازان مركزاً ثقافياً وسياسياً ضخماً، يمكن أن يحل محل موسكو كعاصمة للشيوعية الشرقية ذات يوم. وفى هذا الصدد، فإن تصريحات القادة الشيوعيين التتار لا تدع مجالاً للشك:

«إن إنشاء الجمهورية التتارية، على نحو ما صرح به فى الأول من يونية عام ١٩٢٠ «فيرديف»، أحد الرفاق المخلصين لسلطان غالييف، فى مؤتمر العمال التتار بمدينة قازان، يجرى فى نفس الوقت الذى لم تعد فيه القسطنطينية محط أنظار شعوب الشرقين الأدنى والأوسط». كما كتب إسحق كازاكوف فى مجلة Izvestija Ts.I.K. الصادرة فى قازان (٢٥ يونية ١٩٢٢) يقول:

«إن الجمهورية التتارية سوف تكون قلعة العمال المسلمين من جميع أنحاء الشرق فى مواجهة المخططات الجشعة للامبرياليين الغربيين». وليس ثمة شك فى أن الروس يندرجون بين هؤلاء من وجهة نظره. وقد تناول هذا رأى بتحديد أكبر فى نفس المجلة بعد ذلك بيومين فى قوله: «إن خططنا الكبرى ترمى إلى توحيد عمال الشرق والغرب فى جبهة ثورية واحدة مركزها الجمهورية التتارية.»

بل كان لبعض هذه التصريحات طابع «تركى جامع» على نحو لا يقبل المنازعة، مثل تلك المقالة التى ظهرت دون توقيع فى العدد الخامس العام ١٩٢٣ من صحيفة 'Fizn 'Natsional' nostey، والتى ربما تكون صادرة عن سلطان غالييف أو بوحى منه، حيث نقرأ فيها ما نصه: «إن قازان، عاصمة الجمهورية التتارية، هى فى الوقت ذاته مركز مشرق جمهورية روسيا

الاتحادية الاشتراكية السوفياتية بأكملها، من الفولجا إلى المحيط الهادى، فالشرق كله يقطنه الأتراك.»

كما أعرب سلطان غالييف بالفعل عن أمله فى أن تحل قازان محل موسكو كمركز ثورى للشرق قاطبة، وذلك فى خاتمة المقالة المنشورة فى صحيفة Fizm 'Natsional' nostey (العدد ٢٤ (١٢٢) الصادر فى ٥ نوفمبر ١٩٢١) بعنوان «التتروثورة أكتوبر»، بقوله:

«وفى النهاية، فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى الأهمية التى تمثلها الجمهورية التترية لتطور الثورة الاشتراكية فى الشرق، نظراً لخطورة الدور الذى يلعبه العنصر التتري فى هذا الصدد. فكل القوى الثقافية التى تتشكل وتأخذ طريقها إلى حيز الوجود فى تترستان فى هذه اللحظة سوف تكون، مستقبلاً، هى رائدة التطور الثقافى لحدودنا الشرقية التى لا تزال متخلفة بعد.»

«بل إننا نشهد منذ الآن تترستان وقد أصبحت مقصداً من جميع بقاع روسيا، ومن الأورال، وسيبيريا، وآسيا الوسطى، وخيفا، وبخارى، بل وحتى من أقاصى أفغانستان، لاستجلاب عمال تتر إلى الحد الذى أدى إلى استنزاف تترستان. وعلى ذلك فإنه يجدر بنا، عند تقييم الذكرى الرابعة لثورة أكتوبر ومشاركة التتري فى هذه الثورة، أن نشير إلى أن المجموع العمالية والطبقات التترية الفقيرة التى لم يكن لها دور فى الثورة تعمل الآن على نشرها فى بلدان الشرق.»

وفى تلك الفترة ذاتها، كان أحد رفاق سلطان غالييف، ويدعى تورار ريسكولوف، وهو قومى كازاخستانى قديم انضم إلى الحزب الشيوعى فى سبتمبر ١٩١٧، يسعى إلى إنشاء تنظيم شيوعى إسلامى مستقل فى تركستان. ففى يناير ١٩٢٠، خلال المؤتمر الإقليمى الخامس للحزب الشيوعى فى تركستان المنعقد فى طشقند، نجح ريسكولوف فى الحصول على موافقة المندوبين الحاضرين على تعديل اسم «جمهورية تركستان المستقلة» إلى «الجمهورية التركية»، وتغيير اسم «الحزب الشيوعى لتركستان» إلى «الحزب الشيوعى التركى». وكان لتأكيد الهوية الوطنية بدلاً من الهوية الإقليمية نتيجة عملية: إذ اقتصرت عضوية الحزب الشيوعى الجديد على مواطنى الحكومات التركية فى آسيا الوسطى، باستثناء الروس وغيرهم من الأوربيين. وقد اصطبغ اقتراح ريسكولوف بصبغة قومية وتركية جامعة لم تخف على القادة البلاشفة فى موسكو، حيث رأوا فيه محاولة انفصالية. وهكذا أدانوا مشروع ريسكولوف فى ٢٤ فبراير

١٩٢٠. وتأكد ذلك القرار رسمياً في ٨ مارس ١٩٢٠ بقرار أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (ب) الروسي أعلنت فيه أن: «الحزب الشيوعي في تركستان ما هو إلا تنظيم إقليمي يتبع الحزب الشيوعي الروسي، وتعتبر تركستان جمهورية مستقلة عن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية. وكان ذلك إيذاناً بانتصار النزعة الأحادية والامتناع من جديد عن الإشارة من قريب أو بعيد للشيوعية الإسلامية أو التركية.

اتجهت جهود رفاق سلطان غالييف في الجمهوريات الإسلامية إلى عدة اتجاهات: تنظيم الشباب حول أيديولوجية قومية لا ماركسية - لينينية، وتطوير التعليم وتدريس اللغات والآداب الوطنية بروح تركية جامعة لا دولانية بروتارية، وأخيراً الحفاظ بقدر الإمكان على القيم الاجتماعية والثقافية للإسلام. وكان لتلك الجهود جميعها هدف واحد، وهو حماية المجتمع الإسلامي في روسيا السوفياتية من هيمنة الثقافة الروسية عليه. وجاء ذلك استمراراً للكفاح الذي بدأه المصلحون في نهاية القرن السابق. إذ لم يتغير شيء سوى الشكل الخارجي لهذا الكفاح. إلا أنه من المؤكد أن الماركسية حلت محل المسيحية الأرثوذكسية، كما استبدل المبرر بالمفوض السياسي، إلا أن خطر الترويس ظل قائماً كما كان قبل ثورة أكتوبر، إن لم يكن أكثر. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أضيف إلى التطلعات التركية الجامعة من جانب الإنتلجنسيا التتارية فيما قبل الثورة، شعور لدى الشيوعيين المسلمين، بالريبة تجاه روسيا، والخشية من ظهور تأثير اقتصادي وثقافي يكون من شأنه إعادة الهيمنة القديمة لتلك القوة العظمى على نحو غير مباشر. ولم يكن هذا القلق من نصيب «الغالييفيين» وحدهم، فقد ظهر كذلك في كتابات أحد الشيوعيين التقليديين، وهو غالمجان إبراهيموف، حيث نجد، في أحد الكتيبات الصادرة في قازان عام ١٩٢٧ وإن كانت قد تمت صياغتها منذ عام ١٩٢١ بعنوان - الثقافة التتارية... إلى أين؟ - يعارض الترويس الثقافي ويؤيد الجامعة التركية بقوله:

« لا ينبغي لأية ثقافة أن تهيمن على ثقافة الشعب التتارى، وإنما يجب أن تأخذ طريقها إلى التطور بحرية استناداً إلى اللغة الوطنية (.....). إلا أنه طالما أن الشعوب الناطقة باللغة التركية تنتمى جميعها إلى أسرة واحدة، فإن ذلك يجعل لزاماً علينا أن نحفظ بصلات وثيقة مع أشقائنا الذين يعيشون خارج ترستان (.....) ومع كافة الشعوب التركية الأخرى كذلك. »

وبفضل نشاط «الغالييفيين» في ترستان، لم يترتب على ثورة أكتوبر إثارة أية اضطرابات في المجال الثقافي، وعلى مدى عدة أعوام، ظل الكتاب الإصلاحيون في فترة ما

قبل الثورة يسيطرون على الأدب التتري، مما كفل استمرار الأيديولوجية التركية الجامعة للبورجوازية التقدمية القديمة، بفضل الحماية الفعالة لمقوضية الشعب لشؤون التعليم الوطنى بزعامة «الغالييفى» بوروندوكوف. وحتى عام ١٩٢٤، استمر الأدب التتري فى نشر المواضيع التقليدية المأثورة لدى الإصلاحيين، مثل إبراز النهضة البورجوازية فى صورة مثالية، والواحدة الروحية للشعوب الإسلامية والتركية، وتمجيد الماضى الوطنى، لا سيما «العصر الذهبى لخانة قازان» - معبراً عنه برمز الملكة سويوم - بيك، بطلة المقاومة أثناء الغزو الموسكوى، وهى الموضوعات التى أضيف إليها التصوف الإسلامى المستوحى من الصوفية. ومن جهة أخرى، فإن العديد من الكتاب المسلمين فى فترة ما قبل الثورة، من التتر والبشكير على حد سواء، رفضوا بصورة قاطعة الانضمام إلى النظام الجديد واستمروا على عدائهم السافر له. ومن بين هؤلاء الشاعر ساجى رامبييف، وهو اشتراكى قديم تحول إلى «رجعى» بعد انتصار البلاشفة، والروائى - الشاعر ذاكر رامبييف (واسمه المستعار «درمون»)، وهو أبيتورى(*) متشكك وصوفى، شديد العداء للبلاشفة التى كان يشبهها بأنها «رجس من عمل الشيطان»، وهو كذلك فاتح أميرهان، وثورى إصلاحى قديم «استغرق فى التصوف الإسلامى» بعد عام ١٩١٧. ورغم أن البعض قد استقبل انتصار الشيوعية بترحاب بالغ، إلا أنهم سرعان ما انفصلوا عنها، مثل الشاعر شيخ الزاد بابيش، وهو اشتراكى ثورى يسارى، انضم إلى البلاشفة فى أكتوبر عام ١٩١٧، غير أنه انفصل عنها فى عام ١٩١٩ وقضى نحبه وهو «مناهض للثورة». واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن ينضم كتاب آخرون من أصل بورجوازي إلى السلطة السوفياتية عن قناعة بدرجة أو بأخرى. فقد ظل الشاعر الرمزى هادى تاكلتاش قومياً حتى عام ١٩٢٤، قبل أن يتحول، تحت تأثير ماياكوفسكى، إلى متاضل بروليتارى وعدو لدود للبورجوازية. أما مادجيت جافورى، وهو إصلاحى قديم آخر، ومؤسس الأدب البشكيرى، فقد ظل على مدى أعوام «أيديولوجى البورجوازية»، حيث لم ينضم إلى الحزب إلا عام ١٩٣٠.

وأخيراً، فقد انضمت مجموعة هامة، من بينهم بعض كتاب اللغة التترية المعروفين، إلى الحزب، منذ بدايات الثورة، إلا أن ذلك كان بغرض نشر الأفكار القريبة من «الغالييفية» داخل الحزب. ونذكر من هؤلاء، ضمن آخرين عديدين، كافى نجمى، أحد الكتاب القلائل من أصل بروليتارى ممن اشتركوا تطوعاً فى الجيش الأحمر عام ١٩١٩، وإن كانت أعماله قد عكست

(*) أبيتورية (مذهب الانغماس فى الملذات) (الترجمة)

حتى عام ١٩٢٤، بتأثير النزعة القومية، «الجماليات والتشاؤمية البورجوازية». ورغم انضمامه إلى الحزب، إلا أن «نجمي» كان أحد قادة الجماعة الأدبية المعروفة باسم، "Oktiabr" واتحاد الكتاب البروليتاريين في تترستان اللذين أدينا بعد عام ١٩٢٠ باعتبارهما «أوكاراً للغاليفيين». كما نذكر كذلك من بين هؤلاء فاتح كريمي، أحد أنصار التقارب بين الشيوعية والإسلام، ويرى أنه «لا ينبغي للمسلمين أن يكونوا بلاشفة، ولا مناشفة، بل يجب أن تكون لهم دولتهم المستقلة»، ومن بينهم أيضاً جادل شاه (عادل شاه) كوتوي، أحد الغاليفيين النشطين، حيث جرى رد اعتباره إليه بعد طول انتظار وقُبلت عضويته من جديد في الحزب عام ١٩٤٣، وكذلك اثنان من الشعراء على وجه الخصوص، هما فتحي بورناش، أحد أرباب القلم البارزين باللغة التترية، وعضو بالحزب الشيوعي، إلى جانب كونه أحد رفاق سلطان غاليف وقد تولى، فيما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٤، نشر أفكاره بحماس شديد بين الشباب التتر، وأحمد جومиров، الذي نجح في التوفيق بين الشيوعية والجامعة الإسلامية، وكانت قصائده تحظى بشعبية كبيرة لدى تنظيمات الشبيبة الشيوعية.

ومن جهة أخرى، فقد شهدت الأعوام الأولى للنظام السوفياتي انطلاقة اللغة التترية، حيث أصبحت هي اللغة الرسمية المعمول بها بموجب مرسوم أصدرته اللجنة المركزية التنفيذية في تترستان بتاريخ ٢٥ يولية ١٩٢١. وقد أولى أنصار سلطان غاليف أهمية قصوى للمشكلة اللغوية، على اعتبار أن تطوير اللغة المحلية هو العامل الرئيس في تعزيز الكوادر الوطنية، أو «إضفاء الطابع التتري» على البلاد بعبارة أخرى. فقد صرح برهان منصوروف بقوله:

«إن استخدام اللغة التترية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة، هو الضمان الوحيد الذي لا بديل عنه للالتحام السريع من جانب قوى الشعب الوطنية بهنيان مجالس السوفيات والحزب والنقابات، أي بالهياكل العليا للاقتصاد، ومن ثم بالشيوعية.»

وعلى ذلك، فقد جرى استنساخ اللغة التترية بالحروف العربية، بعد إجراء التعديلات الضرورية طبقاً لمشروع أعد في مؤتمر الكتاب والصحفيين التتر في قازان، وتصدى التتر بشدة للدفاع عن حروف الهجاء القديمة في مواجهة مشاريع التحول إلى اللغة اللاتينية. وكانت تترستان هي آخر المعاقل المناهضة لللاتينية، كما لم تتوقف مقاومة «دعاة التعريب» الذين ألصقت بهم تهمة «الوطنية البورجوازية» و «مشايعة سلطان غاليف» إلا بعد عام ١٩٣٠. وفي عام ١٩٢٤، رفض مؤتمر العاملين في حقل تعليم اللغة التترية في موسكو اتباع نهج

أذربيجان من حيث اعتمادها حروف الهجاء اللاتينية. وبعد عام ١٩٢٤، شارك العديد من «الغالييفيين» في المجادلات القلمية التي شهدتها الصحف في ترستان ضد حروف الهجاء اللاتينية. وفي مؤتمر الدول الناطقة باللغة التركية الذي انعقد في باكو في شهرى فبراير ومارس من عام ١٩٢٦، كان الوفد التتري، برئاسة غالمجان شرف، هو الوحيد الذى دافع عن الخط العربى، مستعيناً فى ذلك بحجج ذات طابع «تركى جامع». وفى عام ١٩٣٠، فى الوقت الذى اعتمدت فيه جميع الشعوب التركية الأخرى فى روسيا حروف الهجاء اللاتينية بالفعل، قام أثنان وثمانون من الكتّاب والمعلمين التتري بتقديم التماس إلى موسكو يطلبون فيه الاعتراف بحروف الهجاء العربية باعتبارها حروف الهجاء الرسمية فى ترستان. إلا أن طلبهم قوبل بالرفض، بطبيعة الحال، من جانب السلطات السوفياتية التى بادرت، منذ ذلك الوقت، إلى إعلان أن حروف الهجاء العربية هى حروف «كهنوتية» و «رجعية».

ويمكن تقدير القوة المذهبية والتنظيمية «للحركة الغالييفية» بحجم النفوذ الذى مارسته على مدى عدة أعوام على تنظيم الشبيبة الشيوعية فى ترستان، حيث كان يخضع تماماً لسلطة «اليمينيين» منذ انعقاد مؤتمره الإقليمى الأول، فى ١٦ أغسطس ١٩٢٠، الذى جرى خلاله انتخاب مكتب إقليمي لتنظيم الشبيبة الشيوعية فى ترستان يتألف من أربعة أعضاء هم غالم كيلديشيف، ونوريس مختاروف، وفتحى بورناش، وشامل جوسمانوف، وكلهم مناضلون قدامى فى الجناح الراديكالى للحركة الوطنية التترية، انضموا إلى النظام الجديد منذ ١٩١٩-١٩٢٠، وتحولوا إلى رفاق وأصدقاء لسلطان غالييف. وكان تأثير سلطان غالييف على الشبان المسلمين أوضح ما يكون فى مؤتمر تنظيمات الشبيبة الشيوعية الشرقية فى موسكو، كما بدا كذلك أوضح ما يكون فى المؤتمر الرابع لتنظيم الشبيبة الشيوعية التتري، عندما نجح رفاقه فى احتكار المناصب القيادية لا فى الجهاز الجمهورى وحسب، بل وكذلك فى جميع لجان المناطق والأقاليم، وفرض سيطرتهم المطلقة على صحافة تنظيم الشبيبة الشيوعية فى الجمهورية التترية Qzyl Shärq Yäshläre (شبيبة الشرق الأحمر) و Qzyl Yäshlär (الشبيبة الأحمر)، بل وحتى على صحيفة تنظيم الشبيبة الشيوعية الصادرة باللغة التترية فى موسكو Yana Eshche (العامل الشاب)، وكان رئيس مجلس إدارتها راشد فاليدوف، أحد المدافعين بشدة عن آراء سلطان غالييف.

وفى الوقت ذاته، سعى سلطان غالييف إلى بسط نفوذه على الشبان المسلمين خارج

تترستان، من خلال إنشاء عدة الاتحادات طلابية وإدارتها، مثل اتحاد الطلبة التتر في أوف، واتحاد الشبان التتر في سامفوربول في كريميه، الخ، حيث أصبحت هذه الاتحادات في غضون بضعة أعوام مستقلة في الواقع عن التنظيم المركزي للشبيبة الشيوعية. وكان الهدف من ذلك الإجراء المعقد هو جعل تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى مستقلاً من الناحية الأيديولوجية عن الحزب الشيوعي الروسي، على نحو ما يتضح من إحدى المقالات التي كتبها برهان منصوروف ونُشرت في صحيفة Qzyxl Shärq Yäshläre «إننا نعلق آمالاً كبيرة على شبابنا التترى. (. . .) وغايتنا هي أن نفتح الطريق أمامه نحو الحرية والاستقلال.» وكان واضحاً للجميع قرائه أن المقصود بذلك هو الاستقلال عن الروس.

كما سعى زعماء تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى كذلك إلى إثارة الشعور الوطني لدى الشبان المسلمين عن طريق ترسيخ التعلق بالماضي في عقولهم، والذي يُعتبر الأساس الجوهرى للقومية، والعقبة الكأداء التي تحول دون الهيمنة على الشباب التترى من خلال روح «الدولانية البروليتارية». وقد تناول فتحى بورناش، كاتب الافتتاحيات في صحف تنظيمات الشبيبة الشيوعية في قازان، هذا الموضوع بقوله:

«ينبغي توعية الشباب التترى بماضيها. إذ يتعين على شبابنا التعرف على الأعلام البارزة في تاريخنا والتعلق بالثقافة الوطنية للشعوب التركية. وعلينا أن نركز جهودنا بوجه خاص على الشبان الذين لم تتح لهم فرصة الالتحاق بمدارس تحفيظ القرآن والذين لا يفقهون شيئاً، من جراء ذلك، في تاريخ الشعوب التركية التتريّة أو آدابها.»

وأخيراً فإنه من المعروف أن قادة تنظيم الشبيبة الشيوعية تصدوا للدفاع عن آراء سلطان غاليف حول ضرورة تجانس المجتمع الإسلامى. وهذا هو المعنى الذي تناوله أحمد جوميروف في إحدى مقالاته المنشورة بصحيفة Qzyxl Shärq Yäshläre (بالعدد ١١-١٢)، والتي يؤكد فيها «إن عدم وجود طبقة البروليتاريا عند التتر لا يجعل هناك ضرورة لتقسيم تنظيم الشبيبة الشيوعية إلى أجنحة لليمين أو اليسار». وقد حاول خصوم «الحركة الغاليفية» مراراً وتكراراً انتزاع قيادة تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى من «اليمينيين»: إذ سعى «اليساريون» خلال المؤتمر الجمهورى الخامس لتنظيم الشبيبة الشيوعية، بتأييد من رفاقهم الروس، إقصاء «اليمينيين» بالصاق تهمة «القومية البورجوازية» بهم، ولكن دون جدوى. ورداً على ذلك الهجوم من جانبهم، يعلق س. رمزى على القرارات الصادرة عن المؤتمر بقوله: «إن أولئك الذين

يزعمون أن القومية تبث سمومها داخل جمهوريتنا، وفي نفوس الشباب على وجه الخصوص، والذين يؤكدون أن تنظيم الشبيبة الشيوعية في تترستان قد انفصل عن الجماهير، إنما يسلمون أنفسهم لمكيدة سياسية دنيئة. فقد برهن المؤتمر من جديد على أن الهجمات الفوغائية الحقيرة الموجهة ضد الجمهورية التترية لا أساس لها من الصحة.»

وحتى بعد إقصاء سلطان غالييف من الحزب الشيوعي عام ١٩٢٣، ظل رفاقه يسيطرون على تنظيم الشبيبة الشيوعية التتري، بل ويذكر س. فهرى أنه حتى أثناء وجود سلطان غالييف في السجن بتهمة قيامه بأنشطة مناهضة للثورة، قام مكتب اللجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية التتري بالتصويت على اقتراح تقدم به فتخى بورناش يقضى بمنح كل من لينين وسلطان غالييف لقب «عضو شرفي في تنظيم الشبيبة الشيوعية». كما كان سلطان غالييف يتطلع أكثر من ذلك إلى منحه لقب «الثوري الأعظم في الشرق.»

ورغم أن سلطان غالييف ورفاقه قد سلموا بالماركسية كأساس للعمل السياسي، إلا أنهم اختلفوا كذلك مع رفاقهم الروس عندما رفض هؤلاء الاتجاه إلى معاداة التقاليد. فقد كانوا لا يريدون الانفصام عن ماضيهم الوطني، ولا عن ثقافتهم الوطنية، بل ولا حتى عن ديانة أجدادهم. ومن ثم فقد سعوا، منذ وصولهم للسلطة، إلى حماية رجال الدين الإصلاحيين الذين استقبل بعضهم إعلان الجمهورية التترية بحماس، على أمل أن يلعبوا دور الوسطاء بين السلطة السوفياتية وجموع الفلاحين المسلمين. ولم يتردد القادة الغالييفيون، إبان المجاعة التي وقعت عام ١٩٢١، في طلب العون من ذوى النوايا الطيبة جميعهم، بما فيهم الملات، كما تم في نفس الوقت، وبمبادرة شخصية من سلطان غالييف، إنشاء «لجنة مركزية لرجال الدين الإسلامى لمساعدة ضحايا المجاعة» في موسكو، يرأسها ملا ترجيمانوف. كما جرى كذلك، خلال الفترة القصيرة التي احتفظ فيها أنصاره بالسلطة في تترستان، تأسيس لجنة خاصة للشريعة قبل مفوضية الشعب للشؤون القضائية في تترستان. وأخيراً، فإنه طوال المدة التي بقى خلالها سلطان غالييف في مفوضية الشعب لشؤون القوميات، انتهجت السلطات المركزية والجمهورية موقف الحذر تجاه الدين الإسلامى، مما أسهم في تهدئة مشاعر التذمر من جانب الشعوب الإسلامية، فضلاً عن توطيد دعائم النظام السوفياتى في تلك الفترة الحرجة بالنسبة له. كما جرى كذلك تخفيف الدعاية المناهضة للإسلام، في قازان كما في موسكو، ومن ثم فقد أثير موضوع ذلك التسامح خلال الدعاوى القضائية ضد الغالييفيين عام ١٩٢٩ باعتباره أحد

الادعاءات الرئيسية في صحيفة اتهامهم. بل إن ذلك قد حدث في الوقت الذي انطلقت فيه الدعاية ضد الكنيسة الأرثوذكسية، وبدأت مطاردة رجال الدين المسيحي باعتبارهم «مناهضين للثورة».

وقد بحث سلطان غاليف مشكلة العلاقة بين الإسلام والماركسية في مقال مستفيض يعد من أعظم ما خلفه لنا، بعنوان (أساليب الدعاية المعادية للدين بين المسلمين)، وقد ظهر في صحيفة Fizr 'Natsional' nostey يومى ١٤ و ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، ونشرته مفوضية الشعب لشؤون القوميات في موسكو في صورة كتيب عام ١٩٢٢. وكان هذا المقال، الذي لم يكن أى من الملات الإصلاحيين لينكره، والموجه بصفة خاصة إلى رفاقه الروس، تحذيراً صريحاً ضد تجاوزات الدعاية المعادية للدين. وقد حدد سلطان غاليف موقفه كماركسى وملحد في مقدمة موجزة بقوله:

«ليس ثمة شك، بطبيعة الحال، في الضرورة التي تمثلها الدعاية المضادة للدين بالنسبة لنا نحن الشيوعيين، لا بين المسلمين في روسيا فحسب، وإنما خارج حدودها كذلك. إن جميع الأديان تتساوى في ذلك من وجهة نظرنا. وعلى هذا الأساس، فإن المشكلة واضحة ولا تتطلب أى تحليل. (.....)

ومن ثم، فإن عليك أن تعرف عدوك حتى يمكنك الانتصار عليه. فمحاربة أية قوة مهما كان شأنها دون معرفة بها، إنما يعنى مسبقاً إن لم يكن الهزيمة، فالفشل على أقل تقدير. «ثم ينتقل سلطان غاليف بعد ذلك إلى وصف العدو، وهو ما يعتبر في الواقع مدحاً يكاد يكون سافراً للإسلام، ولقيمه الثقافية والاجتماعية، إلى جانب دوره في التاريخ العالمى.

«إن العامل الحاسم في تحديد وضع الإسلام إنما يكمن في شبابه. إذ يُعتبر الإسلام، من بين جميع «الديانات العظمى» في العالم، أكثرها فتوة، ومن ثم أشدها صلابة وقوة من خلال ما يمارسه من نفوذ. وقد أقر جميع علماء الإسلام الأوروبيين الجادين بهذه الحقيقة. فالإسلام هو الذى حافظ أكثر من غيره على العوامل الاجتماعية والسياسية، في حين أبرزت الديانات الأخرى قيمة العناصر الأخلاقية والدينية على وجه الخصوص. أما الشريعة الإسلامية فهي مدونة للقوانين والضوابط القانونية التى تحكم كافة أوجه الحياة الدنيوية للمؤمن. فهي تتضمن إرشادات حول كيفية أداء الصلاة، والسلوك فى العمل، وفى المجتمع، والأسرة، وخلال الحياة اليومية، شاملة أدق التفاصيل.

وتكفى الإشارة في هذا الصدد إلى صيغة الأمر في التوجيه الذي يقدمه حديث الرسول الكريم «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، وكذلك الأمر بالاشتغال بالتجارة والكسب، وإلزام الوالدين بتعليم الأبناء حتى سن الإدراك، وتقنين الزواج المدني، وحظر الملكية الخاصة للأراضي والمياه والغابات، وإدانة الخرافات، وتحريم الشعوذة، والميسر، والبذخ، والتبذير، والتحلي بالذهب ولبس الحرير، واحتساء الخمر، والربا، وأكل لحم البشر. (وكانت لهذه النقطة الأخيرة أهميتها في أفريقيا)، ووضع نظام تفصيلي وتقديم للضرائب العينية والنقدية (الزكاة، والعشر، إلخ.).

بل إن قانون الأحوال الشخصية والتركات في الإسلام ذاته يتضمن مبادئ إيجابية، فقد ساعد، أثناء إعداده بل وحتى بعد ذلك، على تنظيم الأوضاع القوضوية للعرب الوثنيين. وهكذا فإن علماء الإسلام يرون، على سبيل المثال، أن حديث الرسول الكريم حول تعدد الزوجات إنما يعبر عن الرغبة في الحد من ذلك.

ولأن الإسلام كدين ينطوي على دوافع اجتماعية وسياسية، فهو يتغلغل بعمق يفوق ما عده من ديانات في نفوس المؤمنين به. ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان، بل من الخطورة، أن يتم التصدي له. ولعل خير دليل على ذلك هو المركز الشخصي لرجال الدين الإسلامي، والذي كان يفوق في قوته أوضاع ممثلي الديانات الأخرى.

ولنأخذ، على سبيل المثال، وضع رجال الدين الإسلامي لدينا هنا في روسيا. فبينما نجد عند الروس كنيسة واحدة تخدم عدداً يتراوح بين ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ من السكان، كان للمسلمين مسجد لكل ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة، حيث يخدمه ثلاثة على الأقل من رجال الدين، الملا ومعاونيه والمؤذن.

كما تتضح قوة رجال الدين الإسلامي كذلك من وضعهم الاجتماعي والسياسي بالنسبة إلى السكان المسلمين. إذ كان الملا يضطلع في آن واحد بدور رجل الدين (المنوط بأداء الشعائر الدينية)، والمعلم (حيث كان لكل ملا مدرسة دينية، أو كُتّاب، ملحق بالمسجد)، والحارس القضائي (القائم بتنظيم التركات، وتسجيل أحكام الأحوال المدنية، إلخ.)، والقاضي (العالم بأمور الزواج والطلاق والميراث)، بل والطبيب في بعض الأحيان.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان رجال الدين الإسلامي يتم تنصيبهم بالاختيار، وهو ما جعلهم في وضع أفضل وبالتالي أكثر قوة من الكهنة الروس على سبيل المثال. فقد كانت للقس

الروسى، المعين من قبل السلطات العليا، سلطة أقل، ولا رب، على رعيته مما لدى الملا التترى أو العالم الأزيكى فى محله. إلا أن هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم رغم ذلك «خدماً للشعب» ويعيرون اهتماماً أكبر لرغباته. كما كانوا أكثر ديمقراطية وأشد قريباً من الشعب، فضلاً عن تمتعهم بهيبة أكبر ونفوذ أقوى مما كان يمارسه البابا على الفلاح الروسى.»

أما السمة الثانية التى يتفوق بها الإسلام على المسيحية فهى، من وجهة نظر سلطان غاليف، الطابع المميز له باعتبار أنه «دين مضطهد»:

«إن العالم الإسلامى فى مجمله قد تعرض للاستغلال طوال القرن الأخير على يد الامبريالية فى أوروبا الغربية. وقد ترك ذلك أثره العميق على ديانة المسلمين. إذ ينظر المسلمون إلى ذلك العداء مع الغرب بوصفه صراعاً سياسياً، أو حرباً موجهة ضد الإسلام فى مجموعته. ومن جهة أخرى فإن العكس مستحيل، حيث يرى المسلمون أن العالم الإسلامى كل لا يتجزأ، دون تمييز بين القوميات أو القبائل.

ولذلك كان الإسلام كدين، ولازال، من وجهة نظر المسلمين على الأقل، من الديانات المضطهدة، المرغمة على الوقوف موقف الدفاع. وبعبارة أخرى، فإن التطور التاريخى للإسلام يشجع مختلف الجماعات من المؤمنين به على التحلى بروح التضامن، فضلاً عن تعزيز قوة الدعوة إليه. ومن شأن هذه الظروف أن تجعل من الصعب شن حملة مناهضة للإسلام.»

ويخلص سلطان غاليف من ذلك إلى نتيجة عملية مؤداها: «إن شن دعاية خرقاء معادية للإسلام من شأنه أن يهدد باستثارة الماضى القريب فى نفوس المسلمين، حيث كان المبشرون يناضلون ضد الإسلام، ولن يترتب على ذلك سوى نتائج سلبية إلى حد كبير. (٠٠٠٠) ومن ثم فإن الوضع الخاص للإسلام، الذى يتضح من خلال ما يتمتع به من حيوية كبيرة تُعزى إلى تأخر ظهوره من جهة، وإلى الوضع النفسى للسكان المسلمين المضطهدين أو الذين تحرروا بالكاد من الجور والظلم (المسلمين فى روسيا) من جهة أخرى، يقتضى انتهاج طرق وأساليب جديدة للدعاية ضد الدين.»

وهو يرى أن هناك ثلاثة أساليب رئيسية لذلك:

١. ضرورة استبعاد البيروقراطية والعدوانية بأى شكل من الأشكال. إذ لا ينبغى أن تكون المشكلة هى محاربة الدين، وإنما الدعاية ضد هذا الدين. ومن ثم فإنه علينا أن نجرد خصومنا نهائياً من الأسلحة التى يمكنهم محاربتنا بها. كما يجب أن نعلن بوضوح أننا

لا نحارب أى دين كدين فى حد ذاته، بل أن غاية ما نسعى إليه هو نشر معتقداتنا الإلحادية، وهذا هو حقنا الطبيعى. وليس ثمة نهج آخر لمعالجة هذه المشكلة على نحو يكفل عدم الخلط بيننا وبين المبشرين الروس الرجعيين. كما يتعين علينا أن نوضح للمسلمين أن نشر الدعاية المضادة للدين ليس استمراراً لنشاط أتباع بويدونوستيف والمنسكى، وإنما أنصارهم من المثقفين الذين لازالوا يقومون بهذا العمل حتى عهد قريب.

٢. وعلينا بعد ذلك أن نبعد عن صفوفنا نهائياً المبشرين القدامى، إذا كان هؤلاء قد استطاعوا التغلغل فيها، وأن نعهد إلى الشيوعيين المسلمين بمهمة تنظيم الدعاية المضادة للدين. ولا يُسمح «للمفسدين»، لاسيما المشعوذين، بالاشتراك فى هذا العمل. إذ أنه من شأن ذلك أن يقلل من اعتبارنا فى نظر السكان المسلمين.

٣. ثالثاً، أن الدعاية المضادة للدين تقتضى قدراً كبيراً من الحنكة وينبغى إدارتها بأسلوب عملى. إذ لا يكفى نشر كتيبات أو مقالات صغيرة تحمل عناوين مصطنعة (لن يقرأها أحد) أو عقد مؤتمرات فى هذا الشأن. وإنما ينبغى بث الإثارة فى الحياة اليومية من خلال القدوة والعمل؛ أو بعبارة أخرى استبدال الإثارة الكلامية بالتحريض الفعلى. كما يجب ألا يدرك الشخص الذى يراد التأثير عليه أنه ثمة استعدادات تُتخذ لإخضاعه للدعاية المناهضة للدين. وبغير ذلك، فإن شعوره بالفزع والنفور مسبقاً من شأنه أن يؤدى إلى تحوله عنا. »

وأخيراً، فقد أكد سلطان غالييف على ضرورة تنوع الدعاية المضادة للدين تبعاً لدرجات التطور الاجتماعى والثقافى للأقاليم الإسلامية المختلفة. واختتم مقاله بملاحظة استشرافية: «ومجمل القول إنه ينبغى علينا أن نؤكد مجدداً أن الإسلام بجوهره وتاريخه يختلف عن غيره من الأديان، ومن هنا يجب استنباط أساليب دعائية أخرى لمحاربته. إلا أنه يتعين كذلك إقرار أساليب خاصة لكل قومية إسلامية على حدة طبقاً لخصائصها الجغرافية والتاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية المحددة؛ فما يصلح للتر لا يصلح للكيرجيزيين، وما يلائم المسلمين فى روسيا لا ينطبق على أفغانستان أو بخارى، والعكس صحيح. بل يجب استحداث تكتيك ملائم لكل منهم، يتوافق مع حالتهم النفسية ومع عقلياتهم. كما ينبغى أن تكون إحدى المهام العاجلة للعمل الذى نقوم به فى مجال التحريض الدعائى فى الشرق، هى الدراسة

المتعمقة والتفصيلية لهذه المشكلة ميدانياً، إلى جانب تناولها بالتحليل الجاد فى صحافة الحزب. وبدون هذا الجهد، فإنه لن يمكننا الوقوف على أرض صلبة وثابتة، أو حل المشاكل التى تعترض سبيلنا، بل لن يمكننا مطلقاً الخروج من حالة التخبط العقلى التى نعيشها حالياً.»

إلا أن المؤكد أنه لم يتم أخذ أى من التوصيات التى قدمها سلطان غاليف بعين الاعتبار. فعندما انطلقت الحملة الكبرى المناهضة للإسلام عام ١٩٢٨، كانت واحدة فى جميع الأقاليم الإسلامية، كما اقتضت إدارتها على الروس وغيرهم من «الأوروبيين».

وربما كانت تلك المقالة التى كتبها سلطان غاليف حول الدعاية المضادة للدين هى أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى إقالته بعد ذلك بعامين. والواقع أن ستالين قد استشف منها عزم سلطان غاليف على إرساء أسس «شيوعية إسلامية» تختلف عن الماركسية - اللينينية، ومن ثم فهم غير مقبولة بالقطع.

أما الدافع الثانى للانشقاق بين ستالين وربيبه السابق فهو انطلاقة القومية، واتجاه كراهية الأجانب المناوئ للروس فى تترستان الذى يعزى إلى سلطان غاليف. ففى بلاد التتر، وهو إقليم متعدد القوميات ينوء بتركة ثقيلة من التحيز العنصرى والدينى، فضلاً عن تقوض أركانه نتيجة للحرب الأهلية، كانت المصادمات بين المجتمعين الإسلامى والروسى حتمية وشبه مستمرة. كما اتهم الروس القادة التتر بإيلاء أهمية مبالغ فيها «للمعمل الوطنى»، وإلصاق تهمة «التزمت الوطنى الروسى» بكل شىء، وأخيراً إثارة المسلمين ضد موسكو. فقد صرح الشيوعى الروسى «فوكس» خلال المؤتمر الإقليمى الثانى للحزب الشيوعى (ب) الروسى فى تترستان بقوله: «لا يمكننا التسليم بأن تتحول الروح الثورية للجموع الكادحة المضطهدة فى الجمهوريات الشرقية التى حررتها ثورة أكتوبر العظمى إلى مجرد ثورة قومية. كما أنه من غير الممكن أن نقبل تحول حق الشعوب فى تقرير مصيرها، ذلك الحق الذى جرى الإعلان عنه للمرة الأولى فى تاريخ البشرية فى روسيا السوفياتية، إلى مجرد تزمت وطنى.» كما اتهم التتر، من جانبهم، موسكو بأنها «تمنح الاستقلال بيد ثم تسحبه باليد الأخرى»، ووجهوا انتقادات عنيفة إلى السلوك «البيروقراطى غير الفعال» للسلطات الروسية المحلية، كما يتضح من إحدى المقالات التى كتبها آياز مقصودوف ونُشرت فى عدد ٩ يناير ١٩٢٢ من صحيفة Tatarstan Khäbärläre الصادرة فى قازان تحت عنوان «المفسدون السياسيون» (Politikany)، وهو ما يبرهن، ضمن دلائل أخرى، على أن البيروقراطية السوفياتية قد بلغت، منذ عام ١٩٢٢، حداً من

عدم الفعالية لا يختلف كثيراً عن الوضع الراهن:

«إن القادة الروس لا يخدمون السكان المحليين؛ بل إنهم على العكس يتسببون في إلحاق أضرار جسيمة بهم، عن طريق الحيلولة دون قيامنا باتخاذ إجراءات فعالة. كما أن الأمور العاجلة تظل معلقة نتيجة للبطء البيروقراطي. فهم يرجعون إلى موسكو في أتفه الأمور، متخطين بذلك التنظيمات المحلية. وعلى ذلك فإنه حان الوقت لكي نقول لتلك الجماعة التي لا تهتم كثيراً بمصالح الجموع الوطنية: «احملوا عصاكم وارجلوا»».

ومن ذلك يتضح أن هناك جواً من الشك المتبادل قد خيم على العلاقات بين التتر والروس. وسرعان ما تحولت القومية التتيرية التي لاقت تشجيعاً في البداية، ثم تقبلتها السلطات المركزية فيما بعد، إلى عقبة تعترض بتيان الاشتراكية. إذ تشير إحدى المقالات التي كتبها س. ديمانستان وظهرت، في أبريل عام ١٩٢٢، في صحيفة Fizm 'Natsional' nostey إلى أن قادة موسكو كانوا يدركون تلك الحقيقة تماماً:

«لقد أخذت القومية في الشرق طريقها نحو الانطلاق التام. ولا يمكن التصدي لهذه الحركة الطبيعية على الوجه الأكمل، وإن كانت الضرورة تقتضي أن يتم توجيهها. فالخطر الرئيسي الذي يتهددنا في الشرق إنما ينشأ عن تطور القومية هناك بأسرع مما يمكن لطبقة العمال إدراكه. وإذا ما أسأنا تقدير هذه المشكلة، فإن ثمة صراعاً يمكن أن ينشأ وينتهي بانتصار الاتجاهات الانفصالية البورجوازية.»

وكما تنبأ «ديمانستان»، فإن الشقاق كان أمراً حتمياً، لا سيما بعد ما حدث في مارس ١٩٢٣ - أي قبل شهر بالكاد من إلقاء القبض على سلطان غالييف - حيث أدت الانطلاقة العنيفة للقومية إلى إثارة التنظيم التتري للحزب الشيوعي (ب) الروسى في قازان. فقد قام منصوروف، مقرر لجنة المنطقة، وهو صديق شخصى لسلطان غالييف، بطرح بعض التوصيات للتصويت بشأن «أساليب عمل الحزب بين التتر»، وهى مستوحاة من نظريات سلطان غالييف. ومرة أخرى، عاد الشيوعيون التتر من جديد إلى إنكار وجود البروليتاريا الوطنية، ومعارضة الصراع الطبقي، مع الزعم بأن استحداث اللغة التتيرية فى إدارة مجالس السوفيات والحزب بدلاً من اللغة الروسية ينبغى أن يكون حجر الزاوية فى السياسة الوطنية اللينينية.

الفصل الخامس الإلحادى

الفصل الخامس

الإلحادى

يحدد المؤرخون السوفيات، ومن بعدهم قلة نادرة من المؤرخين الغربيين المهتمين بمغامرة سلطان غالييف، نقطة التحول فى حياته السياسية بربيع عام ١٩٢١، بعد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى الروسى. إذ فتح ذلك المؤتمر الطريق أمام وحدة الحزب بتصديه للاتقسامات والمعارضة داخل الحزب، كما شن الهجمات الرسمية الأولى ضد «الانحرافات القومية»، على نحو ما أعلنه القرار الختامى للمؤتمر:

«إن الشيوعيين الوطنيين، الذين لم يتحرروا بعد من أطياف الماضى، يبالغون فى تقدير أهمية الخصوصية الوطنية. (. . .) فهم يهملون مصالح طبقة العمال ويخلطون بينها وبين ما يسمونه بالمصالح الوطنية. كما أنه لا يمكنهم تمييز إحداها عن الأخرى، أو توجيه عمل الحزب نحو الجموع الكادحة وحدها. ولعل فى ذلك الوضع ما يفسر ظهور القومية الديمقراطية البورجوازية التى تأخذ فى الشرق أحياناً شكل الجامعة الإسلامية والجامعة التركية.»

ومنذ ذلك الحين، وإزاء اختلاف سلطان غالييف مع سياسة القوميات التى انتهجها ستالين، فإنه لم يكن أمامه سوى ملاذ واحد، وهو المعارضة، إلا أنه طالما أن تلك المعارضة لم تكن مشروعة، فقد لجأ إلى العمل السرى.

ومن الأرجح، غير أنه لا يمكن الجزم بذلك طالما أن سجلات الشرطة السرية السوفياتية غير متاحة للباحثين الأجانب - ولن يظل الحال على ذلك مستقبلاً ولا ريب، أن سلطان غالييف قد وضع فى غضون هذين العامين بالقطع مذهب الخاص بالثورة فى أوساط المستعمرات، والشيوعية الوطنية الإسلامية. وفى المقابل، فإنه من المؤكد أن أفكاره التى صاغها فى خضم العمل لم تكن نتاج تأمل نظرى يستند إلى مناقشات أو قراءات الكتاب الماركسيين، وإنما كانت محصلة تجربته الشخصية كمنظم. ورغم قدرته الفائقة على وضع النظريات، إلا أن سلطان غالييف كان مناضلاً كذلك قبل أى شىء، واختلقت نظرياته عن تلك التى وضعها البلاشفة بما لها من طابع واقعى وعملى. فقد تعارضت الاستراتيجية التى اعتنقها مع الخط الرسمى للحزب فى عدة نقاط، من أهمها نبذ الصراع الطبقي داخل المجتمع الإسلامى. وكان

سلطان غاليف يعتقد، مثل غالبية الثوار الآسيويين من معاصريه أو من جاءوا بعده، أن الثورة في العالم الثالث ينبغي أن تكون في آن واحد ثورة اشتراكية موجهة ضد «المستغلين المحليين»، أي البورجوازية والإقطاعيين ذوي الأملاك، ورجال الدين الإسلامي «الرجعيين»، وثورة وطنية موجهة ضد الهيمنة الأجنبية. إلا أنه أدخل تصحيحاً إلحادياً هاماً على تلك الفرضيات التي يمكن القول باختصار إنها متشددة تماماً، بإعلانه أنه لما كان هيكل المجتمع الإسلامي لا يسمح بالمواجهة بين الثورتين، فإنه من غير المجدي، بل من الخطورة بمكان، تشجيع تفتح الوعي الوطني وإثارة الوعي الطبقي في ذات الوقت، وأنه طالما أن الأولوية المطلقة هي للتحرر الوطني، ينبغي تأجيل موعد الثورة الاشتراكية. وكان يستند في تبرير ذلك الرأي إلى هيكل المجتمع المحلي، مؤكداً أن طبقة الفلاحين الفقراء والبروليتاريا الإسلامية كانت لا تزال عاجزة عن تولي السلطة، وذلك نتيجة ضعفها عددياً وأيديولوجياً، رغم الطابع المتجانس أبداً والذي كان يميز ذلك المجتمع المحلي. فقد كان يرى أن أقل فلاح روسي أو ألماني أكثر ثراءً من أغنى أغنياء الكولاكيين التتر.

وعلى ذلك، فإنه كان من الأفضل «الحديث لا عن الاضطهاد الطبقي الذي يمارسه الكولاكيون المحليون على غيرهم من الفلاحين التتر، وإنما بالأحرى عن تأخر طبقة الفلاحين التتر في مجموعها بوجه عام».

وقد عبر أحد معاوني سلطان غاليف المقربين ويدعى فاليدوف، مفوض الشعب لشؤون الزراعة في الجمهورية التترية، عن نفس الفكرة بأسلوب أكثر عنفاً بقوله: «إن الأغبياء اليساريين يريدون استحداث الشيوعية في بلدنا تترستان، ذلك البلد الزراعي والإقطاعي. ياله من تحريف للشيوعية!» كما كتب محرر افتتاحية صحيفة Qzyl Tatarstan الصادرة في قازان، في معرض جداله مع صلاح أتناجولوف، أحد «اليساريين»، ويوحى من فرضيات سلطان غاليف، يقول:

«إن الرفيق صلاح يهاجم كل من ينكر وجود البروليتاريا التترية البشكيرية. وهو يبذل ما في وسعه، استناداً إلى اعتبارات مدروسة، لإقناعنا أن هذه البروليتاريا ذات تاريخ طويل وأن التناقضات الطبقيّة قد ظهرت في مجتمعنا قبل ثورة ١٩٠٥ بوقت طويل. إلا أن هذا الرأي لا يستند إلى أي أساس، سوى بعض هذيانات باطلة ثم استنباطها في أحد دواوين العمل ولا صلة بينها وبين الواقع. والحقيقة أنه من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن العامل التتري البشكيرى يملك

أى شعور طبقى. « كما أكد بعض «الغالييفيين»، تنفيذاً لهذه الدعاوى، خلال المؤتمر التنظيمى التترى للحزب الشيوعى الروسى فى قازان عام ١٩٢٣، غياب الطبقة العمالية التترية. «إن بعض الرفاق يجزمون بوجود البروليتاريا التترية. إلا أن ذلك غير صحيح لأنه لا أثر لها (. . .) فوجود العمال التتر يكاد يكون معدوماً، بخلاف المناورات غير المؤهلة التى قلما يمكن تمييزها عن الفلاحين. إن البعض يدعونا إلى الاعتماد على البروليتاريا المحلية. غير أنه لا يمكننا القيام بذلك إلا إذا كان لدينا حتى ولو ثلاثة آلاف عامل مؤهل، ولكننا لم نبلغ هذا الرقم بعد. . . »

وقد خلاص «الغالييفيون» من هذه الاعتبارات النظرية إلى نتيجة مؤداها أنه لا يمكن للطبقة العمالية أو لطبقة الفلاحين المحلية أن تزعم بقدرتها على توفير كوادى قيادية للنظام الجديد. وعلى ذلك، فقد كان التتر مهددين بالخطر، فإما التخلّى عن جميع مناصب القيادة السياسية للروس - وهم وحدهم من كانوا يملكون «بروليتاريا» حقيقية، أو إسناد تلك المناصب ذاتها إلى عمال محليين غير متطورين، ويفتقرون إلى الكفاءة، بما يجعلهم مجرد ألعوبة فى أيدى الروس. وفى كلتا الحالتين، فإن الثورة سوف تفقد مغزاها المتمثل فى التحرر الوطنى، وهو الهدف الرئيسى للشيوعيين المحليين، ولن يتبقى منها سوى هدف الثورة الاشتراكية، وقلما كان يحظى بأى اهتمام من جانبهم. كما أنه فى الحالتين كذلك، سوف يكون من شأن وجود كوادى سياسية روسية أن يؤدى إلى إعادة وصاية موسكو على التتر.

كان لدى سلطان غاليف شعور عميق بعدم الثقة لا تجاه الروس وحدهم، وإنما كذلك فى الغرب بوجه عام، بل وامتد هذا الشعور بعدم الثقة، والذي يمثل أحد العناصر الأساسية فى فكره السياسى، ليشمل البروليتاريا الأوروبية التى كان يراها قادرة تماماً على مواصلة السياسة «الاستعمارية» القديمة للبورجوازية لحسابها الخاص. فقد صرح فى عام ١٩١٨ بقوله:

«لنأخذ، على سبيل المثال، حالة البروليتاريا الانجليزية، (وإن كان تفكيره يتجه بدرجة أكبر إلى البروليتاريا الروسية)، وهى أكثرها تطوراً. فإذا ما قُدِّر لإحدى الثورات أن تحقق انتصاراً فى إنجلترا، سوف تواصل هذه البروليتاريا استغلال المستعمرات وانتهاج سياسة الحكومة البورجوازية الحالية، من منطلق اهتمامها باستغلال المستعمرات. وعلى ذلك فإنه حتى يمكننا أن نتجنب تعريض عمال الشرق للقهر، علينا أن نوحّد الجموع الإسلامية فى حركة شيوعية محلية مستقلة.»

وقد أعرب سلطان غالييف في وقت لاحق، عام ١٩٢٣، عن اعتقاده بأن عدو الشعوب المستعمرة لا يتمثل في بورجوازية القوى الامبريالية، وإنما في المجتمع الصناعي برمته، وعلى ذلك فقد اقترح استبدال التناقض الماركسي الكلاسيكي «الرأسمالي - المستغل» بتناقض «خاص بالعالم الثالث»، «صناعي - متخلف». وانطلاقاً من ذلك، فقد خلص إلى أنه لن يتسنى للشعوب الإسلامية أن تتحرر حتى تقوم بتنظيم تكتلها الأثمي الاستعماري الخاص، على أن يكون مستقلاً عن الأهمية الثالثة التي تخضع، مثل سابقتها، لسيطرة ممثلي المجتمعات الصناعية، أو حتى معارضا لها. ولتحاشي أن تؤدي ثورة أكتوبر، منذ البداية، إلى إعادة الوصاية الروسية على المسلمين، فقد رأى سلطان غالييف أن يتم الانتقال إلى الاشتراكية على مراحل تدريجية.

وقد كتب أحد رفاقه، وهو الكريمي أحمد أوزنباشلي، عام ١٩٢٢ في الصحيفة الشيوعية التي كانت تصدر في كرميه بعنوان Yeni Dünya (العدد ١٢)، في سامفيروبول يقول:

«ربما كان للنظام السوفياتي، الذي يمثل ديكتاتورية الطبقة العمالية وحدها، مبرراته في روسيا، حيث بلغ رأس المال الصناعي أوج تطوره (٠٠٠٠) إلا أن هذا النظام ذاته لا يصلح لتطبيقه على الجموع الإسلامية البدوية، أو تلك التي دخلت لتوها عصر الرأسمالية التجارية.

«إننا نريد... اجتياز مراحل التطور الاقتصادي بصورة بطبيعية، لا أن نعبرها دفعة واحدة من أجل الوصول إلى أشكال للحكم لن يمكننا فهمها، أو استيعابها... كما يتعين علينا أن نعتنق مبدأ السلطة الوطنية لا السلطة الطبقية في كل من تركستان. وكيرجيزيا، وبشكيريا، وكذلك في القوقاز، وترستان، وكرميه.»

وعلى ذلك فإن سلطان غالييف كان يرى أنه من الضرورة بمكان، في المرحلة الأولى للثورة، المحافظة بأي ثمن على الكوادر المحلية النادرة والتي تتمتع بالقدرة على تقرير مصائر الشعوب الإسلامية، أي المثقفين أيّاً كان أصلهم الاجتماعي، سواء كان أرستقراطياً، أم بورجوازيّاً، بل وحتى رجال الدين الإصلاحيين، بغية الحيلولة دون استمرار الوصايا الروسية. كما كان يقول بأنه لا ينبغي أن نسقط تماماً الصراع الطبقي داخل المجتمع الإسلامي، بل أن نوقف تطوره حتى يجيء اليوم الذي يمكن فيه للكوادر الوطنية البوليتارية أن تخلف الكوادر البورجوازية في نهاية الأمر.

«طالما أن الشعوب الإسلامية لا تنقسم إلى طبقات اجتماعية متنافسة، ولا وجود فيها

للبروليتاريا الصناعية بعد، فإنه يستحيل أن تقوم فيها ثورة بروليتارية. وإنما يتعين الاكتفاء في الوقت الحالي بثورة «سوفياتية»، دون صراع طبقي.»

وحتى يتسنى له إقناع رفاقه البلاشفة الروس بأفكاره الهرطقية، فإن سلطان غالييف قد أيدّها بفرضية أقرب إلى الماركسية التقليدية، وهي «انتقام المظلومين من الظالمين»، حيث دافع عنها للمرة الأولى في مارس ١٩١٨ أمام المؤتمر الإقليمي للحزب الشيوعي الروسي في قازان بقوله:

«إن الشعوب الإسلامية المستعمرة هي جميعها شعوب بروليتارية، فمادامت جميع طبقات المجتمع الإسلامي تقريباً قد تعرضت للاضطهاد فيما مضى على يد الاستعماريين، فإنه يحق لها جميعاً أن تلقب باسم الطبقات البروليتارية.» (٠٠٠٠) وعلى ذلك فإن الشعوب الإسلامية هي شعوب بروليتارية. إلا أنه ثمة اختلاف ضخم، من وجهة النظر الاقتصادية، بين البروليتاريا الانجليزية أو الفرنسية، على سبيل المثال، والبروليتاريا الأفغانية أو المراكشية. ومن ثم فإنه يمكننا الجزم بأن الحركة الوطنية في البلدان الإسلامية تتسم بطابع الثورة الاشتراكية.»

بل إن رفاقه قد ذهبوا مؤخراً إلى ما هو أبعد من ذلك، بإعلانهم أن الشعوب الإسلامية هي الشعوب الوحيدة البروليتارية بحق في روسيا. وعلى سبيل المثال، فقد صرح والي إسحاقوف، أحد زعماء الحزب الشيوعي في تترستان، ونائب رئيس إدارة التخطيط بالجمهورية، فضلاً عن كونه من الرفاق المخلصين لسلطان غالييف، عام ١٩٢٦ بقوله: «إن التثر أكثر ثورية من الروس من الناحية الموضوعية، فقد تعرضوا للاضطهاد على يد القيصرية بصورة أعنف من الروس.» وعندما انضم سلطان غالييف إلى المعارضة بعد عام ١٩٢٣، طرح فكرة إنشاء «جبهة موحدة للمضطهدين»، تضم جميع طبقات المجتمع الإسلامي، باستثناء البورجوازية الكبيرة وحدها وقلّة نادرة من الإقطاعيين، مؤيداً بذلك الفكرة الإسلامية التقليدية حول الأمة كمجتمع للمؤمنين حيث تتمتع جميع الأحزاب أو معظمها بمكاسب الثورة.

إلا أن نظريات سلطان غالييف لم تكن فريدة تماماً. فقد سعى بعض القادة الشيوعيين غير الروس في نفس الفترة إلى حماية شعبهم من عودة «التطرف الوطني الأمبريالي لروسيا العظمى»، الذي اعتبروه أمراً حتمياً. وكانت لثلاثة منهم على وجه الخصوص رؤية استشرافية للعالم الاستاليني، وهم الأوكراني ميكولا سكريبنيك، والجيورجيان فيليب ماخارادزيه، وبودو

مديفانى. وهؤلاء الثلاثة جميعهم من البلاشفة القدامى، انضموا إلى الحزب قبل ستالين، وهم دولانيون متشددون وماركسيون حقيقيون لا يرقى الشك إلى أفكارهم «القومية البورجوازية». كما أسهموا بحماس، مثل سلطان غاليف قاماً، بدور فعال فى الثورة والحرب الأهلية. وحتى عندما تغلبت الثورة التى كُلت بالنصر أخيراً على آخر معاقل المقاومة المناهضة للثورة عام ١٩٢٠، أعرب هؤلاء عن مخاوفهم من المستقبل. والواقع أن شكل الحزب البلشفيكى قد شهد تغيرات عميقة خلال العامين الأخيرين من الحرب الأهلية. إذ وجد البلاشفة الدولانيون القدامى، ومن بينهم مثقفون من أصل بورجوازي، ومسؤولون حكوميون تلقى معظمهم تعليمه فى جامعات ألمانيا ويتحدثون الألمانية كلغة للتخاطب فى كثير من الأحيان، أنفسهم وجهاً لوجه أمام واقدين جدد ناضلوا من أجل الثورة، وهم روس فى غالبيتهم، من أصل عمالى أو ضباط صف قدامى فى الجيش القيصرى. ورغم جهلهم واستخفافهم بدقائق فن الجدل والحوار، إلا أنهم كانوا يتسمون بالطموح والواقعية، فضلاً عن القدرة على ارتكاب أسوأ الفظائع على المستويين الشخصى والجماعى، ومن ثم فقد التفوا تلقائياً حول ستالين. ومنذ ذلك الوقت، لم يخفوا مشاعر الغطرسة والازدراء بل والكراهية تجاه الغرباء. وقد لاحظ من يتمتعون بفكر ثاقب من بين القادة البلاشفة غير الروس ظهور ذلك الجيل الجديد من «البلاشفة الشبان» بشيء من التخوف. فقد رأوا فيهم أسوأ عيوب التطرف الوطنى للشعبية الروسية القديمة التى تبجلها الديناميكية البروليتارية فى الوقت الحالى. كما كانت تربط سلطان غاليف علاقة معرفة شخصية بكل من سكرينيك وماخارادزه ومديفانى، وثلاثتهم وقعوا ضحايا لستالين فيما بعد، ومن الأرجح، وإن لم نكن على يقين من ذلك، أنه قد أتاحت له فرص عديدة للتناقش معهم حول استراتيجية موحدة للتصدي لرفاقهم الروس. والواقع أن الأوكرانيين والجيورجيين والتتر قد اتخذوا مواقف تكاد تكون متطابقة حول معظم المسائل الجوهرية التى تتعلق بمستقبل شعبهم؛ وعلى رأسها استقلال حزبهم الشيوعى، إلى جانب الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لأقاليمهم ثم، وبدرجة أقل، حق غير الروس فى تعديل السياسة الخارجية لروسيا الجديدة وللأمية الشيوعية. إلا أن مطالبهم لم تتضمن، فى البداية على الأقل، الانفصال عن موسكو بأى شكل من الأشكال. بل اكتفوا بالمطالبة بأن يتم الاعتراف، داخل الحركة الشيوعية، بما أسموه (الذاتية الوطنية) الأوكرانية أو الجيورجية أو التترية، حيث رأوا أنها أكثر ملاءمة للتقاليد الوطنية وللظروف الاجتماعية لشعوبهم من النموذج الروسى.

غير أن أهم مشكلة واجهتهم، وشكلت موضوعاً للخلاف فيما بعد، كانت تتعلق بالمطالبة باستقلال لجان الأحزاب الجمهورية. وقد تناولنا في موضوع سابق محاولات سلطان غاليف في سبيل إنشاء حزب شيوعي (بلشفيكي) إسلامي وفشله في هذا المجال. كما تقدم الجيورجيون، من جانبهم، بنفس الطلب إلى المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي (ب) الروسي في أبريل عام ١٩٢٣، ولكن بشكل مختلف. فقد أدرك فيليب ما خارادزيه، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في جيورجيا، وكان يتمتع بخبرة أكبر من سلطان غاليف فيما يتعلق بدقائق الحزب البلشفيكي، أنه لا مجال لوجود حزب شيوعي جيورجي حر أو حتى مستقل، ومن ثم فقد قصر مطالبه على مجرد استقلال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في جيورجيا، حيث طالب بأن يكون لها وحدها حق اختيار وترقية كوادر الحزب. وأيد ما خارادزيه في ذلك بودو مديفاني، رئيس مجلس مفوضي الشعب في جيورجيا، وهو أصغر سناً وأكثر تشدداً من سابقه، حيث اتهم الرفاق أعضاء اللجنة المركزية للحزب البلشفيكي بالتدخل في الشؤون الداخلية للحزب الشيوعي في جيورجيا عن طريق نقل الكوادر الشيوعية الجيورجية إلى موسكو بصورة تعسفية، مضيفاً قوله: «وهو ما اعتبره الجيورجيون مصدراً دائماً للإزعاج». إلا أن مطالب الجيورجيين قوبلت جميعها ولا ريب بالرفض التام من جانب ستالين.

أما في أوكرانيا، فقد تقدم ميكولا سكريبنيك نفسه بطلب إنشاء تنظيم شيوعي مستقل عن الحزب البلشفيكي الروسي للمرة الأولى في أبريل ١٩١٨ إلى مؤتمر الحزب الشيوعي في أوكرانيا الذي انعقد في تاجانروج. وقد دافع المؤتمر عن مبدأ استقلال الشيوعية في أوكرانيا، مطالباً بإنشاء حزب شيوعي في أوكرانيا المستقلة لا يرتبط بالحزب الشيوعي الروسي إلا بواسطة اللجنة الدولية التابعة للأمية الشيوعية. إلا أن هذا القرار لم يقدر له أن يرى النور. فبعد استعادة الجيش الأحمر لأوكرانيا، اعتباراً من عام ١٩٢٠، خضع الحزب الشيوعي تماماً لسيطرة الروس أو الأوكرانيين المروسين الذين ينتمون أصلاً إلى أوكرانيا الشرقية.

إلا أن التشابه بين مطالب سلطان غاليف وادعاءات الشيوعيين الوطنيين الجيورجيين والأوكرانيين قد اتضح بدرجة أكبر في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وكان الجيورجيون هم الأكثر جرأة، بدفاعهم عن فكرة الاقتصاد الجيورجي المستقل، انطلاقاً، على حد قول بودو مديفاني، من أن «تبعية جيورجيا لموسكو من الناحيتين الاقتصادية والمالية هي نهاية أي استقلال سياسي». كما اتهم الأوكرانيون موسكو، ممثلين في شخص ميخائيلو

فولوبوف، وهو أحد الاقتصاديين من رفاق سكرينيك، بممارسة سياسة القوة المظمية تجاه أوكرانيا، تلك السياسة التي لا تختلف كثيراً عن سياسة القياصرة، فضلاً عن معاملتها باعتبارها مستعمرة تخضع للاستقلال. ومن ثم فقد اقترحوا إعادة توجيه علاقات التبادل التجاري التي تربط أوكرانيا بالبلدان الرأسمالية في أوروبا الوسطى. وقد وُجّهت إلى فولوبوف تهمة الانشقاق القومي البورجوازي، وأجبر القادة الشيوعيون الأوكرانيون على التراجع عن أية مطالب للاستقلال الاقتصادي في المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الروسي عام ١٩٣٠. وكانت التضحية، على امتداد الاتحاد السوفياتي، بالاقتصاد المحلي من أجل المصالح العليا للمركز. فقد اصطلحت الأهداف اللامركزية للقادة المحليين، والتي كان من شأنها أن تضيء على الشيوعية السوفياتية لمسة إنسانية، بالأحادية المركزية التي انتهجها ستالين.

هذا وقد اقتربت المطالب الثقافية للشيوعيين الأوكرانيين كثيراً من الاستراتيجية الإسلامية الجامعة التي وضعها سلطان غالييف. وتعرض العديد من واضعي النظريات البارزين لهذه المطالب بالشرح والتوضيح فيما بين الأعوام ١٩٢٠ و ١٩٣٠، وعلى رأسهم شومسكي وميكولا خفيلوفسكي، وهم من أنصار «إضفاء الطابع الأوكراني» على الجهاز الإداري في أوكرانيا، وتوجيه الثقافة الأوكرانية تجاه أوروبا بدلاً من موسكو. إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. وأقدم سكرينيك على الانتحار مدفوعاً باليأس عام ١٩٣٣، كما لقي معظم رفاقه حتفهم بتهمة القومية، وذلك في خضم حملات التطهير الدموية للحزب الشيوعي في أوكرانيا التي أعقبت وفاته.

غير أن الشيوعية الوطنية الإسلامية قد تجاوزت التطلعات القومية للشيوعيين الجيورجيين والأوكرانيين على صعيدين. فقد طالب سلطان غالييف ورفاقه بمنح الشيوعيين المسلمين حق إقامة علاقات مباشرة مع الحركات الثورية في الشرق الإسلامي، بدءاً بالأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط، كالحزب التركي والإيراني والمصري، دون حاجة إلى وساطة من جانب الحزب الشيوعي الروسي أو الأهمية الشيوعية.

كما طالب سلطان غالييف، قبل إلقاء القبض عليه للمرة الأولى ببضعة أسابيع، بمنح مواطنيه التتر الحق في حمل لواء الثورة إلى جميع أنحاء الشرق، وذلك في صحيفة Fizi 'Natsional' nostey عام ١٩٢٣، ص ٢٥ بقوله: «إن العمال التتر، وهم يقطنون مساحة شاسعة تمتد من فولجا الوسطى وحتى سيبيريا وآسيا الوسطى، هم خير من يحمل الزخم الثوري

إلى أرجاء الشرق.» كما طالب رفيقه، اللزجينى نجم الدين أفنديف - سامورسكى، السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى داغستان، وعضو الحزب الشيوعى الروسى منذ عام ١٩١٧ الذى أعدمه ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام، بنفس الشرف لمسقط رأسه داغستان بقوله:

«إن داغستان من البلدان الشرقية التى نجحت فى المحافظة على علاقاتها بالبلدان الشرقية المجاورة. ومن ثم فإنه يمكن - بل ويتعين - أن تكون بمثابة جسر يربط الاتحاد السوفياتى بالشرق، كما ينبغى أن تصبح، أكثر من أى إقليم آخر فى الاتحاد السوفياتى، قناة لنشر الأفكار الشيوعية فى الشرق الأدنى.» (فى داغستان، موسكو، ١٩٢٤، ص ص ١١٧-١١٨).

إلا أن هذه الادعاءات التى كان من شأنها أن تعهد إلى المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بدور قيادى فى الحركة الثورية للبلدان المستعمرة فى آسيا وأفريقيا، كانت غير مقبولة ولا ريب من وجهة نظر القادة البلاشفة جميعاً. فقد انضم كل من تروتسكى وزينوفيف وبخاران إلى ستالين هذه المرة. إذ رأوا فى الشيوعية الشرقية بدعة مستهجنة قد تؤدى إلى تحريف كامل للماركسية، ولم تصبح فكرة الذاتية الآسيوية للشيوعية حقيقة ملموسة حتى ظهور ماو تسى تونج.

أما الاختلاف الثانى بين سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين، الأوكرانيين أو الجيورجيين على حد سواء،، والذى جعل نظرياته الإلحادية تمثل خطورة بالغة بالنسبة للقيادة البلشفية فى موسكو، فقد كان ذا طابع عملى لا سياسى. ففى حين شن الأوكرانيون والجيورجيون حرباً سياسية سافرة ضد رفاقهم الموسكويين، نجد أن الشيوعيين المسلمين الأكثر واقعية أو الأشد تشاؤماً فيما يتعلق باحتمالات انتزاع أية تنازلات من الروس قد اتجهوا، منذ عام ١٩٢٠ بل وربما قبل ذلك، إلى النضال السرى. ومن المعروف، فى واقع الأمر، أن العديد من الساسة المسلمين، وهم من الزعماء القوميين القدامى الذين انضموا إلى النظام السوفياتى، قد تبنوا للمرة الأولى، فى ربيع عام ١٩١٩ فى كل من طشقند وقازان وبشكيريا، فكرة إنشاء حزب سرى اشتراكى وإن كان معادياً للروس. ورغم أننا نجهل أسماء هؤلاء المبشرين، إلا أنه من الأرجح أن يكون سلطان غالييف وأحمد زكى فاليدوف، رئيس المجلس العسكرى الثورى ومفوض الشعب للشؤون الحربية فى الجمهورية البشكيرية، ضمن هؤلاء. وفى نوفمبر من نفس العام، اجتمع بعض القادة الاشتراكيين المسلمين الذين لا نعلم أسماءهم جميعاً، من طشقند

وبخارى وقازان وكازاخستان وبشكيريا، سراً فى موسكو تحت رئاسة سلطان غالييف. وقرروا، اقتناعاً منهم بأن القادة البلاشفة لن يسمحوا مطلقاً باستقلال الشيوعية الإسلامية، إنشاء حزب اشتراكى إسلامى مستقل عن الحزب الشيوعى الروسى وعن الأهمية الثالثة فى آن واحد. ونذكر من بين هؤلاء المتآمرين الأوائل أسماء ثلاثة: أحمد زكى فاليدوف، وعبد الحميد أريفوف، وكان آنذاك مفوض الشعب للشؤون العسكرية فى جمهورية بخارى، وجانيزاكوف ممثل جمهورية تركستان. ومن الأرجح كذلك أن يكون من بين المتآمرين أحمد باى طورسون وعلى بوكيخانوف، وهما من زعماء الحزب الكازاخستانى فى آلاش أورد، إلى جانب الأوزبكستانيين فيظ الله خوجاييف، الذى شغل فيما بعد منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى أوزبكستان، وعثمان خوجاييف، مفوض الشعب للشؤون المالية فى جمهورية بخارى. وقد اجتمع بعضهم فى مؤتمر شعوب الشرق الذى انعقد فى باكو فى سبتمبر ١٩٢٠، حيث قاموا بإعداد القوانين الأساسية للحزب السرى الذى لم يكن يحمل أى اسم بعد.

وفى عام ١٩٢٠ كذلك (طبقاً لبعض المصادر السوفياتية مثل بيترز، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى أوزبكستان، فى صحيفة براقدا فوستوكا Pravda vostoka الصادرة فى طشقند يومى ١٦ و ١٨ ديسمبر ١٩٣٤)، جمع سلطان غالييف فى موسكو الأوزبكستانيين نظام الدين خوجاييف وطورسون خوجاييف، والبشكيرى أحمد زكى فاليدوف، والكازاخستانى أحمد باى طورسون، وأسس تنظيمًا سرّيًا أطلق عليه اسم (الاتحاد والترقى)، بهدف ثلاثى وهو إنشاء نواة للجهاز السوفياتى من خلال الكوادر الإسلامية التركية، ووضع اليد على المنشآت التعليمية فى الجمهوريات الإسلامية بغرض تحويلها إلى مراكز للجامعة التركية والجامعة الإسلامية، وإقامة صلات مع مختلف الحركات المناهضة للثورة، لا سيما البسماتشين، بغية الإطاحة بالنظام السوفياتى وإقامة «دولة بورجوازية تركية جامعة» بدلاً منه.

وبعد ذلك مباشرة، فى يناير ١٩٢١، اجتمع بعض الشيوعيين القوميين المسلمين فى بخارى. فهل كان سلطان غالييف ضمن هؤلاء؟ ليس هذا بالأمر المستبعد، فقد كانت مهامه فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات تقتضى منه التنقل باستمرار فى أنحاء الاتحاد السوفياتى. وتقرر فى هذا الاجتماع إطلاق اسم جماعة الاشتراكيين فى تركستان على تلك الجماعة السرية، وهى التى عُرفت بعد ذلك ببضعة أعوام باسم الحزب الاشتراكى فى تركستان، -

Erk (الإرادة)، حيث احتفظ بطابع السرية.

غير أننا لا نعرف الكثير عن الفترة الأخيرة من الحياة الرسمية لسلطان غالييف. فقد اتهمه ستالين عام ١٩٢٣ بأنه قام منذ عام ١٩٢٠ بإنشاء تنظيم سرى «إجرامى، ومناهض للثورة، ومعاد للبروليتاريا الروسية». كما اتهمه على وجه التحديد بالعمل على الإطاحة بالنظام السوفياتى بالتعاون الوثيق مع زعماء حركة البسماتشين الذين كانوا يناضلون خلال نفس الفترة، بقوة السلاح، ضد الجيش الأحمر فى تركستان، بل وحتى بالاشتراك مع تنظيمات معادية للسوفيات من المهاجرين المقيمين فى تركيا وإيران، وأخيراً بمحاولة «الإضرار بحركة تحرير المستعمرات من نير الامبريالية».

ولا ريب أن الأسلوب المستخدم فى تلك الاتهامات، والذي يتضمن بعض العبارات الشهيرة من أقوال فتشنسكى مثل «الأفاعى الفاسقة» و «الجرذان اللزجة»، وغير ذلك من سيل الإهانات التى صبها ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام على خصومه التروتسكويين أو غيرهم قبل أن يحكم عليهم بالإعدام، لا يستند إلى أى أساس فى الحقيقة. وواقع الأمر أن سلطان غالييف لم يكن يسعى بعد، حتى عام ١٩٢٣، إلى الانفصال عن الحزب الشيوعى الروسى، كما أن الصلات التى احتفظ بها ولا شك مع الخصوم المحتملين للنظام، أى غيره من الشيوعيين المسلمين الذين انخدعوا مثله بالتوجيه الروسى الصرف لثورة أكتوبر على نحو مبالغ فيه، بل وربما البسماتشين كذلك، لم تكن تستهدف بعد إنشاء تنظيم مناهض للثورة، بل مجرد «جبهة للمتذمرين». ومن هنا فإنه لا يمكننا الحديث، حتى إقصائه من الحزب، إلا عن «انشقاق» سلطان غالييف، لا عن حركة «غالييفية» منظمة.

وفى مارس ١٩٢٣، اعترضت الإدارة السياسية للدولة (الجى بى يو) رسالة من سلطان غالييف إلى رفاقه فى أوبا، ينتقد فيها من جديد سياسة القوميات التى انتهجتها الحكومة السوفياتية بمقارنتها بسياسة الحكومة القيصريّة، كما يشكو فيها من عدم الوفاء بالوعود المبذولة فى عام ١٩١٧ بقوله:

«يمكننى أن أؤكد لكم بالقطع، استناداً إلى دراية وثيقة بالحكومة المركزية، أن سياسة الحكومة فى مواجهة الشعوب غير الروسية لا تختلف كثيراً عن السياسة الامبريالية القديمة التى انتهجها الروس العظام. إن الوعود المبذولة عام ١٩١٧ لم تتحقق. ومن ثم فإنه يتعين علينا، فى المؤتمرات المقبلة (للحزب الشيوعى ومجالس السوفيات)، أن ننضم إلى

الكازاخستانيين والتركستانيين لإنشاء جبهة موحدة من أجل الدفاع عن مصالحنا الوطنية. «
وفى ذات الوقت، ثارت أزمة قومية عنيفة فى الجمهورية التترية التى أصبحت إقطاعية
شخصية له بفضل نشاط رفاقه. وقامت الأغلبية التترية، خلال المؤتمر الإقليمى السابع للحزب
الشيوعى الروسى فى قازان، بالتصويت على اقتراح مستوحى من فرضيات سلطان غالييف
يقضى بإقصاء المستوطنين الروس و «إضفاء الطابع الوطنى» على الجهاز الإدارى للجمهورية
بصورة جذرية، ورفض المضى قدماً، طبقاً لما كان يراه الرفاق الروس، فى تطهير الحزب الشيوعى
والإدارة من جميع العناصر غير البروليتارية التترية. ومن ثم فإن الاقتراح كان بمثابة تمرد سافر
ضد موسكو.

وقد شارك سلطان غالييف فى المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى الروسى فى الفترة من
١٧ إلى ٢٥ أبريل ١٩٢٣، باعتباره مجرد مندوب له صوت استشارى، وهو ما يكاد يصل إلى
حد الطرد. ولم يلبث أن ألقى القبض عليه فى موسكو بأمر شخصى من ستالين صدق عليه كل
من تروتسكى وكامينيف وزينوفيف. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يأمر فيها ستالين
باعتقال أحد الشيوعيين ممن يشغلون مركزاً بارزاً فى الهيكل التنظيمى للحزب. كما كان ذلك
مؤشراً على الانفصال بين البلاشفة، الذين تضامنوا جميعاً هذه المرة، وبين الثوريين المسلمين،
بعد أن استمر التعاون بينهم على مدى ستة أعوام.

الفصل السادس التأمري

الفصل السادس التآمرى

حتى يتسنى لنا فهم الفصل الأخير من حياة سلطان غالييف، فإنه يجدر بنا الرجوع قليلاً إلى الوراء، عشية المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى الروسى.

إذ يرى أى مراقب لظواهر الأمور أن التعاون بين ستالين ورفاقه المسلمين عام ١٩٢٢ قد جرى دون مصادمات على ما يبدو. إلا أنه على الرغم من الابتسامات المتبادلة بين الرفاق، كان ستالين يشن هجماته ضد الشيوعيين المسلمين خلف ستار التعاون الشخصى. فقد جرى بأمر منه تطهير الحزب الشيوعى فى بخارى رأساً على عقب، وكان يتألف برمته من الإصلاحيين القدامى الذين انضموا إليه، مما جعل منه أحد المعاقل الرئيسية للشيوعية الوطنية. إذ تم شطب ١٤٠٠٠ عضو من قوائم الحزب، حيث لم يبق منه سوى تنظيم هيكلى يضم ١٥٦٠ عضواً أغلبيتهم من الروس. كما شددت موسكو، فى ذات الوقت، قبضتها على الأجهزة الإدارية فى الجمهوريتين الخاضعتين للحماية: بخارى وخورزم، ضد إرادة الكوادر المحلية. وفى نهاية عام ١٩٢٢، تم اتخاذ الإجراءات الأولى لتقسيم آسيا الوسطى طبقاً للحدود العرقية لا التاريخية، وهى العملية التى انتهت عام ١٩٢٥ بإنشاء الجمهوريات الوطنية، أوزبكستان، وكازاخستان، وكيرجيزيا، وتركمانيا، وطاجيكستان، وكانت تلك هى نهاية أحلام الشيوعيين المسلمين فى إقامة جمهورية تركستان الإسلامية والتركية الموحدة. وفى أبريل ١٩٢٣، خلال المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى (ب) الروسى، تفجرت بوضوح أولى الصراعات الكبرى بين ستالين والشيوعيين الوطنيين، إلا أنه لو لم يكن المسلمون مستهدفين مباشرة، لما كان أى من القائدين التترى أو التركستانى الحاضرين للمؤتمر، سلطان غالييف وريسكولوف، قد بادروا بالهجوم، رغم اتهامها بالانشقاق. وقد سيطرت على المؤتمر مناقشات لاذعة بين ستالين وأتباعه المخلصين جريجورى أوردجونيكيدزه وماميا أورا خيلا شفىلى من جانب، وبين «المؤسسين التاريخيين» للشيوعية الجيورجية من جانب آخر، فيليب ماخارادزه وبودو مديفانى، اللذين وجهت إليهما تهمة عصيان أوامر اللجنة المركزية للحزب، فضلاً عن المطالبة بمطالب اقتصادية «غير مقبولة» وممارسة «الامبريالية» تجاه القوميات الصغيرة التى تقطن جيورجيا، مثل الأبخازيين والأوسيتيين، وأخيراً حماية ممثلى الطبقات المالكة القديمة. وكانت المناقشات المتخبطة التى

دارت في المؤتمر، والتي اتسمت بالإسفاف في كثير من الأحيان، تخفى وراءها مشكلتين أساسيتين لم يكن أمرهما ليخفى على أى من المندوبين الحاضرين. فقد تلقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى جيورجيا، ومعها ضمناً اللجان المركزية لجميع الأحزاب الأخرى بما فيها تلك الخاصة بالجمهوريات الإسلامية، أوامر تقضى بالامتنثال بدقة ودون تراجع على أى نحو، لتوجيهات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى. بل والأخطر من ذلك أنه قد حدث تغير جذرى فى طابع «المشكلة الوطنية» ذاته داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. إذ لم يعد ما أسماه لينين «التطرف الوطنى للقوة الروسية العظمى» يمثل الخطر الأول، بل تراجع إلى المكانة التالية خلف «القومية المحلية». وبالتالى فقد أصبح بالإمكان مهاجمة الشيوعية الوطنية وجهاً لوجه، سواء كانت جيورجية أو أوكرانية أو إسلامية. وأدرك سلطان غاليف، الذى حضر مناقشات ذلك المؤتمر الثانى عشر ملتزماً الصمت على نحو سلبى، أن ذلك لم يكن سوى إعلان ضمنى لإدانته. وقد اختتم المؤتمر أعماله فى ٢٥ أبريل، وبعد ذلك ببضعة أيام، فى نهاية شهر أبريل أو مستهل شهر مايو من عام ١٩٢٣ - لا أحد يعلم على وجه التحديد، تم إلقاء القبض على سلطان غاليف بواسطة إدارة الجى بى يو، إلا أنه من المؤكد أن ذلك قد حدث قبل ٢٥ مايو، إذ اتهمته الصحيفة التترية Eshche (العامل) التى كانت تصدر فى قازان، وهى الجريدة الرسمية للجنة المنطقة التترية، بالخيانة فى عددها الصادر بتاريخ ٢٥ مايو.

غير أنه لم يتم الإعلان عن اعتقال سلطان غاليف إلا بعد ذلك ببضعة أشهر، خلال المؤتمر الرابع الذى عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى مع العمال المسؤولين بالجمهوريات والأقاليم الوطنية، والذى انعقد فى موسكو برئاسة ستالين وحضره جميع القادة الشيوعيين المهمين من غير الروس. وكانت المناقشات عاصفة، على ما يبدو، إذ رفض بعض الرفاق قبول الترجمة الرسمية، محاولين إنقاذ سلطان غاليف دون جدوى، استناداً إلى مزاياه كثورى. إلا أن هذا المؤتمر لا يزال من الألفاظ التى يكتنفها الغموض حتى يومنا هذا، حيث لم يتم نشر التقرير الموجز الصادر عنه، ولا النص الكامل لإدانة سلطان غاليف. ولا نعلم عن هذا المؤتمر شيئاً سوى الخطاب الذى ألقاه ستالين والقرار الختامى المتعلق بما أصبح يُعرف من ذلك الوقت فصاعداً باسم «الحركة الغاليفية». وقد استهل ستالين خطابه بالاعتذار بدهاء أمام رفاقه فى اللجنة المركزية على قيامه بحماية «أحد الخونة»، مع الزعم بنقص الكوادر فى الجمهوريات الشرقية بقوله:

«إن الجمهوريات والأقاليم الشرقية لا تضم سوى قلة من المثقفين ورجال الفكر، أو حتى أولئك الملمين بالقراءة والكتابة، وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة. فكيف لا نحيطهم بالرعاية إذن؟ إنها الجريمة ألا تُتخذ في الشرق كافة الإجراءات الضرورية لحماية هؤلاء الرجال الصالحين من الفساد والحفاظ عليهم من أجل الحزب. إلا أن لكل شيء حدوداً. وهذه الحدود قد تم تجاوزها بانتقال سلطان غالييف من معسكر الشيوعيين إلى معسكر البسماتشين. فقد انتهى وجوده بالنسبة للحزب منذ تلك اللحظة. بل إنه كان يتقبل السفير التركي أكثر من قبوله للجنة المركزية لخزينا.»

ولا يمكننا إدراك ما يلمح إليه ستالين من اتصالات جرت بين سلطان غالييف والسفير التركي. إلا أن الاتهام الأكثر تحديداً هو «التآمر» وإجراء اتصالات مع البسماتشين وأحمد زكى فاليدوف، الزعيم البشكيرى الذى كان قد انضم لتوّه إلى المتمردين فى آسيا الوسطى، بل وحتى مع «الامبريالية الدولية». ولم يدع القرار الختامى مجالاً للشك حول خطورة تلك الاتهامات. ونورد فيما يلى النص الكامل لهذا القرار:

«بعد الاطلاع على تقرير اللجنة المركزية للرقابة فيما يتعلق بمسألة الحركة الغالييفية، يرى المؤتمر ما يلى:

أولاً: أن سلطان غالييف، وقد عينه الحزب فى أحد المناصب المسؤولة (عضواً فى مجتمع مفوضية الشعب لشؤون القوميات)، قد استغل موقعه والعلاقات التى أقامها، بفضل هذا المنصب، مع العمال المحليين، لإنشاء تنظيم غير مشروع، بالتعاون مع بعض العمال فى الجمهوريات والأقاليم (الأعضاء فى الحزب أو الذين لا ينتمون لأى حزب)، الذين لم يكتسبوا الخبرة الكافية بعد، فضلاً عن عدم ثباتهم على مبدأ، بغرض معارضة الإجراءات المتخذة من جانب الأجهزة المركزية للحزب. كما لجأ فى ذلك إلى أساليب تآمرية وإلى استخدام معلومات سرية بهدف التزييف المتعمد لقرارات الحزب فيما يتعلق بالسياسة الوطنية.

ثانياً: أن سلطان غالييف حاول استغلال هذا التنظيم المناهض للحزب من أجل تقويض ثقة القوميات التى قاست الظلم فيما مضى فى البروليتاريا الثورية، كما حاول الإضرار بوحدة هاتين القوتين، والتى تمثل أحد العناصر الأساسية لوجود السلطة السوفياتية وتحرير شعوب الشرق من الامبريالية.

ثالثاً: أن سلطان غالييف قد سعى إلى توسيع نطاق تنظيمه خارج حدود اتحاد الجمهوريات السوفياتية، محاولاً إقامة علاقات مع أنصاره في بعض البلدان الشرقية (فارس وتركيا)، وجمعهم حول برنامج سياسى معارض لسياسة القوميات في ظل السلطة السوفياتية.

رابعاً: أن الأهداف المناوئة للحزب والمناهضة للثورة التي تبناها سلطان غالييف بشكل موضوعى، بل وحتى المنطق المحرك لنشاطه المعادى للحزب، قد أدت به إلى الخيانة، وإلى التحالف مع القوى الحقيقية المضادة للثورة والتي تناضل للإطاحة بالنظام السوفياتى. ومن ثم فإنه قد سعى إلى الارتباط بالبسماتشين في تركستان وبخارى الذين يحظون بتأييد الامبريالية الدولية، من خلال أحد زعمائهم، وهو زكى فاليدوف.

خامساً: وعلى ذلك فإن المؤتمر يرى أن الأعمال الإجرامية التي ارتكبها سلطان غالييف تجاه وحدة الحزب والجمهورية السوفياتية، وهى الأعمال التي أقربها تماماً فى اعترافاته، تختم عليه الانفصال عن الحزب الشيوعى.

سادساً: يسجل المؤتمر أن التحول القومى من جانب بعض العمال المحليين فى الجمهوريات والأقاليم هو رد فعل فى مواجهة التطرف الوطنى الروسى الأعظم الذى تجلى فى سلسلة كاملة من الأخطاء التي ارتكبها الرفاق الروس على النطاق المحلى. وعلى ذلك فإن مقاومة هذا التزمت الوطنى هو أحد الأهداف الرئيسية للحزب. ويمكننا أن نعتبر نشاط سلطان غالييف، فى مرحلته الأولى على الأقل، تعبيراً عن هذا التحول القومى فى أسوأ صورته. إلا أن المؤتمر يرى لزماً عليه، فى الوقت ذاته، الإشارة إلى أنه كان يمكن تجنب النشاط المعادى للحزب والمناهض للسوفيات من جانب سلطان غالييف أو تحييده على الأقل فى الوقت المطلوب داخل إطار الحزب، لو كان العمال المحليون أنفسهم فى الجمهوريات الشرقية، لا سيما فى تركستان وبشكيريا حيث شهدت «الحركة الغالييفية» شيئاً من التوسع، قد شتوا حرياً منظمة وضارية ضد التحول القومى.

سابعاً: وعليه، فإن المؤتمر يرى أن أحد مهام حزبنا هى إنشاء كوادردولانية وشيوعية بين العمال المحليين فى الجمهوريات والأقاليم الوطنية، يتم اختيارها من بين الأوساط البروليتارية وشبه البروليتارية على وجه الخصوص، وتكون من المرونة بحيث يمكنها اجتذاب عناصر الإلتلجنتسيا المحلية إلى عمل مجالس السوفيات، وهى العناصر التي

تتسم بشيء من الولاء، إلى جانب تمتعها بالخبرة الكافية لمقاومة التأثيرات المنشفية
البورجوازية والقومية، ولقيادة النضال بفعالية ضد التحول القومي، وضد مخلفات عدم
التكافؤ الوطني التي من شأنها تعزيز هذا التحول في الوقت نفسه.

ثامناً: على التنظيمات الشيوعية داخل الجمهوريات والأقاليم الوطنية أن تمارس رقابة صارمة
بغية الحفاظ على الإطار التنظيمي والأيدولوجي للحزب. وفي حين يتعين على الحزب
النظر بعين الاعتبار إلى الاتجاهات الوطنية بل وحتى القومية، عندما يكون من شأن هذه
الأخيرة أن تؤدي إلى إثارة القطاعات الشعبية العريضة، فإنه لا ينبغي له السماح لهذه
الاتجاهات ذاتها بإفساد أي من أجزائه التنظيمية. إذ لا ينبغي لأي شيوعي المطالبة
بتعديل السياسة الوطنية إلا في داخل تنظيم الحزب وفي إطار الخط المرسوم للحزب. »

وتشير إقالة سلطان غالييف إلى مرحلة في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي، شهدت
انفصلاً بين ستالين وبين أولئك الشيوعيين المسلمين الذين كانوا يأملون استغلال ثورة أكتوبر
لإرضاء نزعاتهم الوطنية الخاصة. كما كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها إلقاء القبض
على أحد القادة الشيوعيين المحليين وإقصاؤه من الحزب استناداً إلى مثل هذه الأسباب. ولم
يكن ذلك الإجراء المدوي الذي جرى اتخاذه في أعقاب المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي
الروسي حيث احتلت المشكلة الوطنية مكاناً بارزاً، سوى بداية للهجوم الطويل الذي شنه
ستالين على مدى أعوام ضد الشيوعيين الوطنيين. وهكذا اكتسبت إدانة سلطان غالييف قيمة
رمزية. فقد أصبح تقييم التحولات التركية والإسلامية الجامعة في الماضي والمستقبل يتم مروراً
به. ويوضح التصريح الذي أدلى به فاليريان كوبييتشيف في المؤتمر الرابع ذلك على النحو
التالي:

« إن بعض الرفاق يعتقدون بأنه من الخطأ استخدام تعبير «الحركة الغالييفية» للإشارة
إلى تحول ما. وهم بذلك إنما يحاولون تجاهل الأسباب الداعية إلى عقد هذا المؤتمر. كما يزعمون
بأن سلطان غالييف ظل يعمل في الحزب دون أن يقترب أي جرم، وأن كل ما فعله هو التراسل
مع غيره من الرفاق، وهو أمر قانوني، ثم كبا كبوته فجأة. إلا أن مثل هذا التبسيط للمشكلة من
شأنه أن يجعل دراستها غير مجدية. فسقوط سلطان غالييف لا يُعزى للأسف إلى تركيب حالته
النفسية وحدها، أو إلى قوانين علم النفس التي قد تؤدي إلى تحول عضو بالحزب إلى مجرم
فجأة. وهذه المسألة برمتها هي ظاهرة نموذجية يجدر بنا دراستها بجدية وإحفاقها حق قدرها

(. . .) فقد مهدت لتحول سلطان غاليف إلى المعارضة سلسلة كاملة من الحقائق البديهية داخل حزينا، فى قلب الحقيقة الروسية. »

غير أن سلطان غاليف لم يمثل أمام القضاء لمحاكمته. فقد أدلى، طبقاً لما أوردته الصحافة السوفياتية، باعترافات كاملة، كما قطع على نفسه عهداً بالرجوع إلى حيدة الصواب، وهى الاعترافات والوعود التى أنقذته من حبل المشنقة وفقاً لبعض المصادر. ورغم إطلاق سراحه بعد ذلك بقليل، إلا أنه ظل مستبعداً من الحزب، كما قضت اللجنة المركزية على رفاقه القدامى بقطع أية صلة تربطهم به.

وتُعتبر الفترة الواقعة بين إقصاء سلطان غاليف من الحزب الشيوعى وإلقاء القبض عليه للمرة الثانية فى نوفمبر ١٩٢٨، هى أكثر الفترات الجديرة بالاهتمام فى حياته دون شك، وإن كانت أقلها شهرة. فالمصادر السوفياتية لا تفيدنا بأكثر من أنه قد عاد، بعد إبعاده عن الحزب رغم إطلاق سراحه، إلى مزاولة عمله الصحفى حيث عمل حتى عام ١٩٢٨ فى مختلف دور النشر الرسمية، ومن أبرزها Gosizdat فى موسكو. وطبقاً لمصادر أخرى، قيل إلى الحذر كذلك، فقد تم ترحيل سلطان غاليف إلى جيورجيا، وإلقاء القبض عليه من جديد عام ١٩٢٤، ثم نقله إلى موسكو. وعقب الإفراج عنه، بعد ثمانية أشهر من السجن، « من أجل ما أسداه لقضية الثورة من خدمات »، عاش إذ ذاك فى العاصمة السوفياتية. وهذه المعلومات، وإن كانت تفتقر إلى الدقة، تتفق فى نقطة واحدة: فعلى الرغم من خضوع سلطان غاليف للمراقبة، إلا أنه قام فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨ بممارسة نشاط مكثف مذهبياً وتنظيماً فى آن واحد، كما استغل تلك الأعوام الخمسة فى وضع نظرية جديدة لثورة المستعمرات، إلى جانب إنشاء تنظيم سرى « مضاد للثورة ».

هذا وليس من السهل تصوير الجانب النفسى لسلطان غاليف خلال الأعوام الأخيرة لحياته العملية. إذ لم يترك الاعتقال والسجن أثراً كبيراً فيه. والأرجح كذلك أنه لم يتعرض لسوء المعاملة. إذ أن كونه من الشخصيات البارزة فى الحزب الشيوعى، رغم سقوطه، قد منحه الحق فى بعض الامتيازات. كما أن أجهزة الشرطة فى عهد ستالين لم تمارس التعذيب على المعارضين « التروتسكويين » أو « اليمينيين » إلا فى وقت لاحق، بعد عام ١٩٣٤. وعلى أى الحالات، فقد ظهر فى يولية عام ١٩٢٣ بمظهر من لم يتعرض لمعاناة القهر فى غياهب السجون. كان فى الثالثة والأربعين من عمره، شاباً يتسم بلياقة بدنية فائقة وحدة ذهن فريدة. ورغم تمتعه

بروح ثورية متقدمة، إلا أنه لا يمكننا أن نطلق عليه لقب شيوعى، مع استمراره فى الاستشهاد الدائم بالماركسية على نحو ما كان يفعل وهو لا يزال بعد ضمن قادة الحزب. وقد خلس على ما يبدو، من صراعه مع ستالين، إلى قناعة مؤداها أن الوفاق جد مستحيل بين الشرق والغرب، وأن الثورة البلشفية ليست سوى آخر المحاولات من جانب الغرب، وأكثرها خطورة، لفرض هيمنتها، كما أن القادة السوفييات ما هم إلا امتداد للسياسة الامبريالية التى انتهجها أسلافهم فى العصر القيصرى. وبعد خروجه من السجن، أخذ يشن معركة جديدة ضد رفاقه الروس القدامى بنفس الحماس الذى أظهره من قبل فى مواجهة مواطنيه «القوميين البورجوازيين» وضد الجيوش البيضاء.

وليس هناك من سبيل للتعرف على الفكر السياسى لسلطان غالييف بعد عام ١٩٢٣ إلا من خلال الانتقادات التى وجهها له خصومه، الذين يخلطون عمداً بين أفكاره الشخصية وأفكار رفاقه، وهى تختلف عن معتقداته فى بعض الأحيان أو عن آراء بعض القادة القوميين البورجوازيين الأصليين التى أعربوا عنها فى المهجر، وهو أمر ليس بذى أهمية. المهم هو أن أولئك المسلمين الثوريين الذين أتوا إلى الشيوعية تحذوهم إرادة قومية لتحرير الإسلام من أية تأثيرات خارجية وخدعهم اتجاه الثورة، قد انضوا، فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨، تحت لواء أيديولوجية عُرِفَت منذ ذلك الوقت فصاعداً باسم «الحركة الغالييفية»، وهى الأيديولوجية التى سوف يقدر لها أن تصبح، حتى عام ١٩٣٦ بل وحتى بعد ذلك، السلاح المذهبى لجميع حركات المقاومة الإسلامية فى مواجهة النظام المركزى فى موسكو. فقد مثلت «الحركة الغالييفية» أحد الانتقادات الأولى، بل وأكثرها جرأة وخطورة على الإطلاق، ضد سياسة الحزب الشيوعى الروسى والأهمية الشيوعية. إذ تعاضم تأثيرها فى جميع الجمهوريات الإسلامية داخل الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، حيث ظلت على مدى أعوام تشهد تطوراً مستمراً، وإن كانت قد ابتعدت عن الشيوعية بل وحتى عن الفكرة المبدئية لمؤسسها، لكى تقترب من القومية السابقة على الثورة على نحو مطرد.

وقد تناولت الدراسات السوفياتية التى نُشرت بعد عام ١٩٣٠ حول سلطان غالييف والحركة الغالييفية «برنامج» الذى قام بوضعه فى خريف عام ١٩٢٣ ونُقل إلى اللغة التترية خلال فترة غير معلومة فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨ تحت عنوان (تأملات حول أسس التطور الاجتماعى السياسى والاقتصادى والثقافى للشعوب التركية). (Türk khalklarynyng

sotsial-söyasi, iktisadi, h m kultura yshl rynyng nigizl re karashlar
 التتريه) ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان هذا «البرنامج» قد تم طبعه بالصورة اللاتقة، أم
 أنه لم يجر تعميمه إلا بصورته المخطوطة. إلا أن الخطوط العريضة لهذا البرنامج، بل وحتى
 مقتطفات كبيرة منه، تتضمنها المجموعة القيمة المعنوية Kantr-Rivolutsion Soltan
 galieftchelekk  qarshy, والمكرسة بصفة خاصة «للحركة الغالييفية» وكذلك في أحد
 أعمال أ. أرشارونى و خ. جابد اللين بعنوان: Ocherki panislamizma i pantiurkisma v
 Rossii، حيث يعالج فى الفصل الرابع (ص ص ٧٦-٩١) تحول سلطان غالييف، والعمل الذى
 قدمه ل. روينشتاين تحت عنوان: V bor'be za leninskouy'ou natsional 'nouy 'ou
 politikou، والذى يعرض فيه كفاح الحزب ضد رفاقه فى تترستان. ويتضح لنا من المضمون
 المذهبى لهذا البرنامج أن سلطان غالييف وأتباعه المخلصين كانوا يزعمون، رغم تأكيدهم على
 إخلاصهم للماركسية، أن «الشيوعيين فى روسيا وأوروبا قد احتكروا لأنفسهم المادية
 الجدلية(*) دون وجه حق»:

«لقد زعم أنصار سلطان غالييف بأن المادية الجدلية التى يطلقون عليها اسم «المادية
 الفعالة» ليست نتاج الفكر الأوروبى، وإنما جرت صياغتها للمرة الأولى فى الشرق، وبالتحديد
 على يد المنغوليين أبناء جنكيز خان. وعلى ذلك فهى تمثل جانباً من التراث التقليدى للشعوب
 التركية المنغولية.»

غير أننا لا نعلم تفاصيل أدق حول هذه المحاولة المثيرة للاهتمام من أجل ربط المادية
 الجدلية بتقاليد امبراطورية جنكيز خان، ولا يمكننا تقييم ذلك المذهب الذى يتضح من خيبة
 الأمل العميقة التى أصيب بها الإصلاحيون القدامى وهم يرون الثورة الروسية تغتال أهدافهم،
 إلا من خلال الاستراتيجية الخاصة بالحركة الغالييفية. فقد رأى أنصار سلطان غالييف أن
 الثورة الاشتراكية لم تكن قادرة، على الصعيد الدولى، على حل مشكلة عدم التكافؤ
 الاقتصادى بين الشعوب المستعمرة والبلدان الأصلية الصناعية. إذ صرح سلطان غالييف فى
 برنامجة بقوله:

«إننا نعتقد بأن الخطة الرامية إلى استبدال الديكتاتورية العالمية لإحدى طبقات المجتمع
 الأوروبى (البورجوازية) بالديكتاتورية العالمية لعدوها (البروليتاريا)، أى لطبقة أخرى فى هذا

(*) مادية جدلية (مبدأ يقول بأن المادة هى كل الموجود وأن مظاهر الوجود نتيجة تطور متصل فى القوى المادية)
 (الترجمة).

المجتمع الأوروبي ذاته، لن تؤدي إلى إحداث تغييرات ملموسة في مصير الشق المظلوم من البشرية (الشعوب المستعمرة). وحتى إذا ما كان ثمة تغيير، فإنه لن يكون نحو الأفضل وإنما للأسوأ.»

أما على الصعيد الداخلي، فقد رأى سلطان غاليف ورفاقه أن السياسة الاقتصادية الجديدة هي عودة إلى النظام السابق على عام ١٩١٧، وبداية «تصفية الثورة الاشتراكية في روسيا»، فضلاً عن قدوم طبقة جديدة من القادة الشيوعيين وصفهم بأنهم «بونابرتيون» و«دعاة للجامعة التركية»، وأنهم قد حولوا الحزب الشيوعي إلى تنظيم يتألف من الروس ويخضع لسيطرتهم، أي «حزب روسي جامع». كما رأوا كذلك في كل ما تقوم به حكومة موسكو من تصرفات «الامبريالية الروسية عينها» بمعنى الكلمة. فقد أصبح الحزب الشيوعي الروسي، من وجهة نظرهم، «مجلس قيادة الامبريالية الروسية الحمراء»، و«عدو العمال الشرقيين»، الذي يحول دون الانطلاق السياسي والثقافي والاقتصادي للشعوب التركية الإسلامية، ويسعى إلى إعادة «روسيا الواحدة التي لا تتجزأ». والمؤكد أن هذه الهجمات الشرسة ضد الحزب الشيوعي وضد السياسة العامة للحكومة السوفياتية لم تكن إلا تعبيراً عن النزعة القومية التتارية في أكثر صورها تطرفاً وكراهية للأجانب. إلا أن أنصار سلطان غاليف لم يشاركوه جميعاً هذا التشدد، رغم أنه كان انعكاساً لعقلية عدد كبير من الشيوعيين المسلمين في تلك الفترة. إذ كانوا يرون أن الثورة الروسية فقدت كل مغزى لها منذ عام ١٩٢٣.

وثمة وثيقة فريدة في حوزتنا تتيح لنا - لحسن الحظ - تقييم موقف سلطان غاليف بعد عام ١٩٢٣. وهي برنامج الحزب السري التركستاني المعروف باسم Erk، والذي أنشأه بعض الشيوعيين المسلمين الذين أصيبوا بخيبة الأمل من بجراء السياسة «الامبريالية» و«الاستعمارية» التي انتهجتها موسكو بصورة مطردة. ويتضمن ذلك البرنامج الذي ربما جرى وضعه فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٦، عدة نقاط مستوحاة من نظريات سلطان غاليف مباشرة. فقد سعى قادة الحزب، مثل هذا الأخير، إلى اعتناق الاشتراكية لثلاثة أسباب جوهرية: أولاً: بسبب «القيمة التربوية» للاشتراكية، أي قدرتها على التعبئة والترابط الاجتماعيين؛ ثانياً: لأنهم رأوا ضرورة القضاء على التخلف الثقافي والاجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي بصفة عامة وفي آسيا الوسطى على وجه الخصوص بأسرع وقت ممكن، كما اعتقدوا أن الماركسية جديدة أكثر من أي مذهب آخر بالعمل على نقل حضارة العصور الوسطى

إلى العالم الحديث، ثالثاً: وأخيراً، لأنهم اعتبروا أن الحركة الاشتراكية الدولية هي وحدها القادرة على حماية تركستان من النفوذ «الاستعماري» للروس. ورغم أن أحداً من الاشتراكيين الأجانب لم يهب لنجدتهم عام ١٩٢٠ وما تلاه من أعوام، إلا أن رؤيتهم كانت استشرافية. فبعد وفاة سلطان غالييف بخمسين عاماً والتصفية الجسدية لقادة حزب Erk، ألا تبدو الصين الشيوعية هي العقبة الكبرى التي تحول دون تقدم روسيا تجاه المحيط الهندي؟

وقد انضم قادة الحزب إلى سلطان غالييف في انتقاداتهم لما أسموه «الاستعمار السوفيياتي الجديد». إذ كتب ريسكولوف، الشيوعي التركستاني وصديق سلطان غالييف، يقول:

«لقد عهد انقلاب أكتوبر بالسلطة العليا إلى البروليتاريا. إذ لم يكن هناك من سبب، على ما يبدو، لعدم الثقة (بين الروس والمسلمين). إلا أن العكس تماماً قد ثبت للأسف بعد عامين من ممارسة حكومة العمال والفلاحين للسلطة في تركستان. فقد تحقق المسلمون من أن المثل الأعلى للثورة لا يتفق بأي حال من الأحوال مع السياسة الفعلية المطبقة على الصعيد المحلي.»

كما كتب سلطان غالييف، من جانبه، في إحدى الرسائل السرية التي وجهها إلى المتعاطفين معه عام ١٩٢٣-١٩٢٤ يقول:

«إن روسيا لا يمكنها على الإطلاق المضي قدماً على طريق الثورة، إلا أنه ليس بوسعها التنازل للماركسية أكثر من ذلك، أو العودة إلى المواقع السابقة على الثورة. وليس أمامها سوى مخرج واحد، وهو الاتجاه شيئاً فشيئاً نحو المواقع اليمينية، لتمهد الطريق بذلك لنظام يتولى مقاليد اليمينيين.»

وفي معرض الحديث عن تصوره لمستقبل روسيا السوفياتية على وجه التحديد يقول:

«إنني أتوقع احتمالين لتصفية الثورة الاشتراكية في روسيا:

أولاً: التحول التدريجي للحزب الشيوعي والسلطة السوفياتية إلى رأسمالية الدولة والديمقراطية البورجوازية.

ثانياً: انهيار السلطة السوفياتية في أعقاب نشوب صراع مسلح بينها وبين البورجوازية الغربية.

وفي حالة تحول السلطة السوفياتية إلى رأسمالية الدولة، فإن العناصر الوطنية المتطرفة

«اليمينية» (الروسية)، التي لا تزال على عدائها للحزب حتى وقتنا الحالى، سوف تبادر حتماً إلى تولي مقاليد السلطة ووضع حد للتجربة الثورية، وذلك بتصفية أجهزة السلطة الفعلية، أى مجالس السوفيات والحزب الشيوعى.»

بل إن قادة حزب Erk قد قنادوا فى ذلك، ولا تزال بعض جوانب برنامجهم سارية إلى وقتنا الحالى:

«إن الأمة التى هزمت تركستان هى الأمة الروسية. ومن ثم فإن السياسة الاستعمارية الروسية تتميز عن السياسة الاستعمارية الانجليزية أو غيرها من القوى الأوروبية الأخرى بما تسعى إليه من ترويس كامل وقطعى للأقاليم المحتلة. فقد وضعت الامبريالية الروسية نصب عينيهما تحويل تركستان إلى إقليم روسى صرف، فضلاً عن استبدال الأغلبية المحلية بأغلبية من المهاجرين الروس القادمين من روسيا الأوروبية، واتخاذها قاعدة للانطلاق نحو غزوات جديدة للإغارة على آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية. وتحقيقاً لذلك، فقد شرعت الامبريالية الروسية فى إبادة وتقتيل الأهالى، فى أعقاب الثورات التى كان الامبرياليون أنفسهم هم المحرضون عليها. (.....) إذ لقي مليونان من المواطنين حتفهم جوعاً عام ١٩١٧-١٩١٨. (.....) وما فتئ الروس الذين احتكروا الإعلام الموجه إلى الشعوب المتحضرة الأخرى يرددون أنهم قد وجدوا فى تركستان المحتلة أرضاً بكرأ، يقطنها بعض النهمج مثل الهنود الحمر فى أمريكا، المعادين لأى شكل من أشكال التقدم الاقتصادى، وأنه لا يمكن فرض الثقافة إلا بقوة الغزاة، كما أن قدر هؤلاء المواطنين هو الاندثار «الطبيعى»، على أن يحل محلهم «الحكام الشرعيون» للبلاد، أى المستوطنون، حتى يمارسوا الهيمنة على الأهالى «بصورة قانونية» ويحولوا ذلك البلد الهمجى إلى أمريكا أخرى.»

ولم يكن المسلمون هم وحدهم الذين حملوا على «الاستعمارية»(*) السوفياتية. فقد وصف أحد البلاشفة القداماء، وهو جريجورى سافاروف، الذى أوفده لينين إلى آسيا الوسطى عام ١٩٢١ لمراقبة سلوك التنظيمات السوفياتية المحلية فى مواجهة المسلمين المحليين، الفظائع التى ارتكبها الحكام الجدد لآسيا الوسطى بصراحة منقطعة النظير. ومن ثم فإنه يمكن اعتبار تصريحاته انعكاساً لكتابات أنصار الحركة الغالييفية:

«إن الهوة سحيقة بين المدنية الروسية الخاضعة لسيطرة مجالس السوفيات والجموع

(*) استعمارية (نزوع دولة إلى استعمار البلدان الأخرى) (المترجمة).

المحلية (. . . .) بل إنه يمكن تحديد موقف الجموع الأخيرة تجاه السلطة السوفياتية بعبارة وجيزة هي: «متى تحين ساعة الخلاص من الحرية (svobodka) الروسية؟» إذ كانت الحرية الروسية بالنسبة لهم هي المرادف للمجاعة والموت، وغارات فرسان الحرس الأحمر، فضلاً عن المجازر العشوائية، والمصادرات الجماعية، والاستيلاء على الممتلكات بصورة تعسفية....» (Kolonial'naia Revolutsiia - opyt Turkestana موسكو، ١٩٢١، ص ١٢٥).

وكان سلطان غالييف يرى أنه في ظل هذه الظروف، وأياً كان السبب المباشر لإنهاء التجربة الاشتراكية في روسيا، فإن «الشعب الروسى سوف يضطلع من جديد بدوره كشعب مسيطر»، مما سيفقده كل حق أدبى له في قيادة شعوب الاتحاد الأخرى. إذ يقول في برنامجه: «إن روسيا القديمة، التى واصلت نموها في صورة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لن يقدر لها الاستمرار. ومن ثم فإن روسيا السوفياتية لا تعدو أن تكون ظاهرة عابرة ووقتيّة، وسوف تختفى سيطرة الشعب الروسى على غيره من الشعوب، لتحل محلها حتماً ديكتاتورية هذه الشعوب على الشعب الروسى».

ولم يكن سلطان غالييف يرى إلا حلاً واحداً لتحاشى إحكام قبضة الغرب من جديد على الشعوب الإسلامية: وهو فرض سيطرة العالم المستعمر النامى على القوى الأوروبية، الصناعية والاستعمارية: «إننا نعتقد أن العوامل المادية التى يتوقف عليها تحول البشرية لا تتحقق إلا بإرساء ديكتاتورية البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة على الحواضر الصناعية.» كما اهتم كذلك بالتأكيد على أن روسيا السوفياتية تندرج ضمن تلك العواصم الأخيرة. فقد صرح بقوله: «حتى يتسنى للبلدان المستعمرة تحقيق هذه الخطة العظيمة، فإنه يتعين توحيدها في «أمية استعمارية»، شيوعية، وإن كانت مستقلة عن الأمية الثالثة، بل وحتى معارضة لهذه الأخيرة، يسيطر عليها ممثلو الدول الصناعية. وهذه الأمية الاستعمارية ينبغي أن تشمل كافة الشعوب المقهورة في آسيا وأفريقيا وأمريكا...»

ويُستثنى من ذلك الاتحاد السوفياتى، وهو قوة شيوعية وإن كانت صناعية، في حين تندرج الأقاليم الإسلامية في روسيا ضمن هذه الأمية.

ومن الأرجح أن سلطان غالييف، وهو يضع خطته الرامية إلى إقامة «أمية استعمارية»، أن يفكر قبل أى شيء آخر في مصير مواطنيه، المسلمين في روسيا. إلا أنه قد أدرك، وهو يتنبأ

بانقلاب موازين القوى بين الروس والمسلمين لصالح الطرف الأخير الذى سيبادر إلى بسط سيطرته على الطرف الأول، أن هذه التجربة لم تكن سوى يوتوبيا من نسج الخيال، طالما أن الثورة الاشتراكية لم تمتد لتشمل العالم الإسلامى برمته، بل وحتى العالم الثالث قاطبة. إذ كان يتعين أن يتساوى المسلمون مع الروس، بل وحتى أن يتفوقوا عليهم، من الناحية العددية، وهو ما يقتضى ضمناً اعتناق المسلمين الأجانب للشيوعية: من أتراك، وإيرانيين، وأفغان، وعرب. ولعل فى ذلك تفسيراً للاهتمام الكبير الذى أولاه سلطان غالييف ورفاقه لامتداد الشيوعية إلى الشرق الإسلامى.

وكانت المرحلة الأولى للأمية الاستعمارية هى إنشاء دولة وطنية تركية كبرى فى روسيا، وهى «جمهورية توران». ويشير المؤرخون السوفيات، فى معرض تحليلهم لبرنامج سلطان غالييف، إلى أن الإصلاحيين التتر، وعلى رأسهم عبد الرشيد إبراهيموف، قد تصدوا للدفاع عن هذه الفكرة. فى حين يقارن البعض الآخر بينها وبين مشروع امبراطورية الوسط الرامى إلى إحياء دولة جنكيزخان التى كان يحلم بها البارون فوق أولنجرن سترنبرج عام ١٩٢٠-١٩٢١، وهى الفترة التى كان فيها حاكم منغوليا. إلا أن الكتاب السوفيات قد اختلفوا حول حجم الدولة التورانية. إذ يرى البعض أنها قد اشتملت على الجمهوريات المستقلة الإسلامية فى القولجا - الأورال، وتترستان، وشكيريا، إلى جانب الجمهوريات الخمس فى آسيا الوسطى؛ وهى كازاخستان، وكيرجيزيا، وأوزبكستان، وتركمنستان، وطاجيكستان. بينما يضيف البعض الآخر إلى ذلك جمهورية التشوفاش - وهى تركية وإن كانت غير إسلامية - وأذربيجان. ويتجاوز عدد السكان فى هذه الدولة الشاسعة ٣٠ مليون نسمة، منهم زهاء ٧٥٪ من المسلمين من أصل تركى. وكان سلطان غالييف يرى أن توران، وهى دولة مستقلة وذات سيادة فى مواجهة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية والقوى الرأسمالية، ينبغى أن تكون جمهورية فيدرالية ديمقراطية شعبية واشتراكية تقوم على أساس رأسمالية الدولة.

هذا ويقدم لنا برنامج حزب Erk معلومات تكميلية حول دولة توران أو النسخة المصغرة منها، أى جمهورية تركستان. وكانت هذه الدولة، كما تخيلها مؤسسوها، دولة ذات سيادة، تتمتع باستقلال اقتصادى وسياسى تام. كانت جمهورية ديمقراطية اشتراكية، متحررة لا من «نير الامبرياليين الأجانب وحدهم، بل والإقطاعيين الأهلين ورجال الدين المحليين كذلك»، وملك جهازاً للدولة وقوات مسلحة خاصة. وهى أخيراً دولة موحدة حول ثقافة تركية أو

تركستانية جامعة واحدة، تتحدث بلغة إدارية فريدة ولها تشريع موحد. وتحقيقاً لتمامها، فإنه يجب إيقاف الهجرة الروسية إليها. وعلى الجانب المقابل، فإنه حتى يمكن تعزيز الطابع الإسلامي لهذه الدولة الجديدة، تُشجّع هجرة السكان «المجاورين للتركستانيين» إليها، من تتر، وإيرانيين، وأفغان، وهنود مسلمين. كما أنه لكي يتسنى تحرير دولة تركستان المستقلة مستقبلاً من احتكار الأسواق الروسية، يتم إعادة توجيه اقتصادها نحو البلدان الآسيوية المجاورة، لا سيما الهند وإيران والصين. وأخيراً فإنه تعريضاً للتخلف الفكري والعملية لطبقة النخبة في الدولة الجديدة، عقد قادة حزب Erk العزم على «تعريف التركستانيين بثقافة أوروبا الحقيقية، التي تفوق في تقدمها ثقافة الروس».

وقد عُهد بالإدارة السياسية لتوران إلى حزب واحد، متكامل، استبدادي ومركزي، تحول عن الحزب الشيوعي الإسلامي القديم بزعامة سلطان غالييف الذي تم حله عام ١٩١٨، ويطلق عليه الكتاب السوفيات اسم «الحزب الاشتراكي للعمال والفلاحين (Eshche-Krestien Sotsialistlar Partiaze) وهذا الحزب من الأحزاب الجماهيرية، حيث تشمل قاعدته الاجتماعية الواسعة الفلاحين، والبروليتاريا الحضرية الأهلية (باستثناء العمال الروس)، بالإضافة إلى البورجوازية الوطنية الصغيرة والمتوسطة. وتتألف مجموعة القيادة من الاشتراكيين الأهلين، من أصل عمالي على النحو الأمثل وإن لم يكن ذلك أمراً حتمياً، حيث انضمت إليها الإنتلجننتسيا الإسلامية الشابة. وكان من شأن هذه المجموعة أن تفرض الديكتاتورية الطبقية على طبقات السكان الأخرى، أي الإقطاع من ذوي الأملاك، والبورجوازية الكبيرة ورجال الدين الإسلامي، وبالأحرى على الروس المقيمين على أرض الدولة التورانية.

ولم يكن الاختلاف الكبير بين سلطان غالييف وذلك العدد الذي لا يُحصى من المعارضين لستالين، سواء كانوا «يمينيين» أو «يساريين»، تروتسكويين، أو بخاريين، زينوفيفيين أو مجرد «قوميين بورجوازيين»، يُعزى إلى تفوق آرائه، رغم كونها أكثر واقعية من أفكار الخصوم الآخرين لذلك الجيورجي وما تنطوى عليه من قدرة على التنبؤ في كثير من الأحيان. بل كان هذا الاختلاف يكمن في أن سلطان غالييف، الذي يميل إلى الواقعية بدرجة أكبر، بما يجعله يحجم عن عرض نظريات مجردة، كان يسعى إلى التمهيد لقيام الدولة التورانية والأهمية الاستعمارية من خلال إنشاء تنظيم سري، يعد نواة للحزب الاشتراكي في الشرق. وفي ذلك كتب صفا برهان، أحد خصوم سلطان غالييف، يقول:

«حتى يمكن تصفية ديكتاتورية البروليتاريا (أى السلطة الروسية)، فإنهم (أنصار سلطان غاليف) كانوا يعملون فى اتجاهين. إذ قاموا، من جانب، بتجميع المتطرفين القوميين فى تنظيم سرى مضاد للثورة، واستغلوا، من جانب آخر، المتعاطفين معهم، أى الشيوعيين اليمينيين الذين ظلوا أعضاء فى الحزب الشيوعى، حيث قاموا، دون الاشتراك فى الأمر على نحو مباشر، بتسهيل المكائد المضادة للثورة من جانب هذا التنظيم السرى، كل ذلك بغرض هدم الحزب من الداخل وتخريب أعماله.»

هذا وقد ظل التنظيم الخاص بالحركة الغاليفية تنظيماً سرياً، حتى بعد إلقاء القبض على سلطان غاليف للمرة الثانية، كما أن المعلومات المتصلة به ضئيلة إلى درجة حدث برفاقه القدامى، خلال الدعوى المقامة ضده عام ١٩٢٩، إلى محاولة التقليل إلى الحد الأدنى من أهمية وقوة التنظيم عن طريق «تصوير سلطان غاليف بأنه قائد بلا جيش». والواقع أن هذا التنظيم كان واسع الانتشار على ما يبدو، حيث استغل التنظيم القائم بالفعل لمجالس السوفيات. كما يُعتبر هيكله نسخة حرفية من الحزب الشيوعى، إذ كانت له لجنة مركزية وخلايا فى جميع الأقاليم التى يقطنها المسلمون. وكانت اللجنة المركزية السرية، التى يرأسها سلطان غاليف بنفسه، تتألف بصفة رئيسية من الشيوعيين التتر ونذكر من بينهم: كشاف مختاروف، وقاسم منصوروف، وإبنايف، ورؤوف صابروف، ووالى إسحاقوف، ومحمود بودىلى، وميكداد بوروندوكوف. كما كان لها مقر فى موسكو («مركز موسكو»)، ومقر آخر فى قازان، حيث كانت تُعقد مؤتمرات إقليمية دورية فى كريميه وموسكو وقازان. وكانت تعتمز، عام ١٩٢٩، عقد مؤتمر عام سرى، إلا أن اعتقال سلطان غاليف قد حال دون ذلك. ومن المحتمل كذلك أن الفريق القيادى السرى لهذا التنظيم السرى قد ضم بعض الشيوعيين المسلمين. كما يمكن القول بأنه كان من بين هؤلاء كازاخستانيون، وهم القادة القدامى لحزب آلاش - أوردا، أحمد بايطورسون، وعلى خان بوكيخانوف، ومير يعقوب دولاتوف، إلى جانب تيرار ريسكولوف، وإسماعيل صادفوكاسوف، ومنديشيف، وخودجانوف، وسيف اللين، وسلطان بيكوف، وكذلك عدد كبير من الأوزبكستانيين من بينهم فيظ الله خوجاييف، وأكمل إكراموف، وأخيراً التتر فى كريميه، والى إبراهيموف وفيرديف. إلا أنهم تعرضوا جميعاً للتصفية الجسدية على يد ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام.

ورغم تعدد التنظيمات الإقليمية الخاصة بالحركة الغاليفية وقوتها فى تترستان

وبشكيريا على وجه الخصوص، إلا أنها وُجِدت كذلك في أذربيجان، وفي آسيا الوسطى وشمال القوقاز. إذ يشير المؤرخون السوفيات، في الواقع، إلى أنه فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٨، «شارك قسم هام من الشيوعيين المسلمين في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية على نحو فعال بدرجة أو بأخرى في الحركة الغالييفية». فضلاً عن ذلك، فقد كان هناك ارتباط مباشر بين العديد من التنظيمات أو الجماعات السرية الإسلامية وبين المركز الخاص بالحركة الغالييفية في موسكو، حيث كانت تتلقى توجيهات منه. وكان أهم اثنين من هذه التنظيمات أو الجماعات، تلك الجماعة المؤلفة من الأعضاء القدامى في حزب ألش - أوردا في كازاخستان، والتي انتهجت سياسة «كازاخستان للكازاخستانيين»، وحزب ملى فرقة في كريمه. وقد وصف بوتشاجوف، مؤرخ ذلك الحزب الأخير، العلاقات بين التنظيمين بقوله:

«إن حزب ملى فرقة ليس تنظيماً منعزلاً، وإنما هو جماعة قوية ومؤثرة، بل يمكن القول بأنه أفضل الحركات الانفصالية الإقليمية التي قامت بها الحركة الغالييفية».

«(. . .) ولا يُعزى التطابق المطلق في الفرضيات وبرامج العمل (بين حزب ملى فرقة والحركة الغالييفية) إلى تشابه هياكلهما الاجتماعية فحسب، بل وبصفة خاصة كذلك إلى الدور القيادي الذي كان مركز الحركة الغالييفية في موسكو يمارسه بصفة مستمرة على حزب ملى فرقة. كما كان هذا الحزب ممثلاً كذلك لدى مركز موسكو بواسطة العديد من قاداته، وإلى إبراهيموف، ونوجاييف، وفيرديف...»

أما في أذربيجان، فقد قام بعض المجاهدين القدامى من حزب الهمة، وكانوا قد انضموا بالجملة إلى الحزب الشيوعي فيما بين عامي ١٩١٨ - ١٩٢٠، بتكوين حزب «وطني - شيوعي» تحت رعاية خان بوداجوف، عضو اللجنة المركزية للحزب الجمهوري، حيث طالب، على غرار أتباع الحركة الغالييفية في ترستان، بإعادة المستوطنين والعمال الروس المقيمين فيما وراء القوقاز. إلا أن خان بوجادوف تعرض للتصفية الجسدية في حملات التطهير التي جرت عام ١٩٣٠ وما بعده.

وفي أوزبكستان، قام بعض «البخاريين الشبان»، الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي، بإنشاء جمعية سرية تركية جامعة حوالي عام ١٩٢٣، وهي الاتحاد الوطني (Milli Ittihad)، ترتبط بالمركز الخاص بالحركة الغالييفية في موسكو. وكان القائد الرئيسي لهذا الاتحاد هو فيظ الله خوجاييف، إمام الشيوعية في تركستان، الذي تم اعدامه رمياً بالرصاص عام ١٩٣٧.

وأخيراً، فإن الكتاب السوفيات يشددون على العلاقات الوثيقة التي أقامها التنظيم السرى الخاص بالحركة الغالييفية مع الجماعات «المضادة للثورة» علناً، سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية، وهم البسماتشيون فى تركستان، والقوميون الجيورجيون، والمعارضة العمالية، بل وحتى التروتسكويين. كما يشير بعضهم كذلك إلى الصلات التي كانت قائمة مع المسلمين المهاجرين إلى تركيا وألمانيا، بل وحتى مع أجهزة الأمن الوطنى البولونية والانجليزية والألمانية واليابانية. فقد ورد فى أحد الأعمال المغفلة من التوقيع -Desiatiletie Sovetskogo Tatar-stana" (قازان، ١٩٣٠، ص ٥٠):

«كانت لأنصار سلطان غالييف اتصالات بالمارشال بيلسودسكى بواسطة حزب ملى فرقة، كما كانوا يتبعون أركان الحرب الانجليزية الكبرى من خلال البسماتشين والمهاجر الأبيض إسحاقى من برلين. وعلى ذلك، فإن تنظيم الحركة الغالييفية لم يكن إلا تعبيراً عن وحدة الجيش الامبريالى الأعظم المناهض للسوفيات، حيث كان مقر قيادة أركان حربه فى لندن.»

إلا أننا لا نزال نجهل الكثير عن نشاط تنظيم الحركة الغالييفية. وغاية ما نعرفه هو أنه قام بشن دعاية مكثفة مناهضة للروس «بهدف إحداث انشقاق بين الجمهوريات الوطنية وموسكو». إذ عمد أنصار الحركة الغالييفية لبعض الوقت إلى نشر صحيفة سرية، يتم طبعها فى إحدى القرى الواقعة فى ضواحي طشقند وتوزع على نطاق واسع فى جميع الجمهوريات الإسلامية، بل وحتى فى موسكو. كما لجأوا كذلك إلى ترويج مؤلفات «تخريبية» فى صورة منشورات، ونداءات وبيانات. ويستشهد الكاتب السوفياتى ك. قاسموف، على سبيل المثال، بأحد المنشورات التى قام أنصار الحركة الغالييفية فى تترستان بتوزيعها فى ربيع عام ١٩٢٩ بين طلبة المدارس العليا فى قازان، بهدف حثهم على الانفصال عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية:

«إن الشعب البلجيكي ضئيل العدد، والذي لا يتجاوز تعداد السكان فيه مليوناً ونصف نسمة، له دولته المستقلة الخاصة. كما أن البولونيين، والليتوانيين، والإستونيين، والفنلنديين، الذين كانوا منذ أحد عشر عاماً مضت خاضعين لنير الروس، قد أصبحوا سادة بلادهم فى الوقت الحالى، بل إنهم أرسوا دعائم نظم يمكن أن تكون نماذج تُحتذى فى العالم قاطبة. فلتأخذوهم مثلاً لكم. إن فى الاتحاد قوتنا. فلا تنخدعوا بتلك الكلمات المعسولة «البروليتاريا» أو «الصراع الطبقي». فهى لا تخدم سوى مصالح البلاشفة الروس وحدهم.»

وقد أولى سلطان غالييف أهمية فائقة للجيش، على غرار البلاشفة الروس الذين حاكى تنظيمهم. إلا أنه ذهب إلى أبعد من ذلك عندما جعل من الوحدات العسكرية الإسلامية، التي كانت تخضع لقيادة ضباط مسلمين، طليعة تنظيمه السرى ورأس حربه بدلاً من البروليتاريا. وكان يسعى، كما فعل الصينيون في وقت لاحق، إلى جعل الجيش مدرسة لتأهيل الكوادر الوطنية سياسياً حتى تحل محل النقابات العمالية التي لم يكن لها وجود. إذ تشير التقديرات إلى أنه في نهاية الحرب الأهلية، كان عدد الجنود المسلمين تحت قيادة ضباط مسلمين في الجيش الأحمر يتراوح بين ٢٢٥.٠٠٠ و ٢٧٠.٠٠٠ جندي. وكان هؤلاء من المحاربين القدامى الذين اكتسبوا صلابة من جراء أربعة أعوام من المعارك التي تكاد لا تنقطع، حيث كان سلطان غالييف ورفاقه يعولون عليهم كأساس لأية ثورة مسلحة محتملة. ويورد لنا قاسموف في هذا الصدد نص أحد استقصاءات الرأي التي أجراها أنصار الحركة الغالييفية بين سكان المناطق الريفية في تترستان حيث برزت، إلى جانب غيرها، أسئلة تُعتبر موضع اهتمام مباشر للتنظيم شبه العسكري.

«هل يوجد في قريبتكم جنود مسرّحون اشتركوا في الحرب الكبرى والحرب الأهلية؟ وكم يبلغ عدد من خدموا في الجيش الأحمر؟ وهل من بينهم صف ضباط وضباط؟ وما هي الحالة المعنوية للسكان؟ هل هم راضون عن النظام؟ وما مدى النفوذ الذي يتمتع به الدعاة والمعلمون؟»

غير أننا لا نعلم عن التنظيم السرى الذي أنشأه سلطان غالييف إلا معلومات سطحية للغاية ونادرة من خلال ما يقدمه لنا أعداؤه. فقد ظل هذا التنظيم سرياً، على ما يبدو، بعيداً عن التحريات التي كانت تجربها إدارة الجي بي يو حتى عام ١٩٢٩، أي بعد الاعتقال الثاني لسلطان غالييف. ولم يكن السبب وراء سقوطه نهائياً هو الكشف عما كان يحيكه من «مؤامرات»، وإنما بالأحرى النشاط العلني الذي كان يمارسه رفاقه ممن شكلوا الجناح اليميني للحزب الشيوعي في تترستان عام ١٩٢٨، وهو العام الذي شهد بدء الحملات الجماعية واستحداث «الصراع الطبقي» داخل المجتمع التتري. وقد اقتصر نشاط «اليمينيين» التتري حتى عام ١٩٢٨ على انتهاج الطريق المرسوم قبل عام ١٩٢٣. وتمثل ذلك في معارضتهم للصراع الطبقي واستحداث الأبجدية اللاتينية، والتصدي، في جميع المناسبات، للدفاع عن مبدأ «إضفاء الطابع التتري» على الجهاز الحكومي، وأخيراً النضال من أجل رد الاعتبار إلى

سلطان غالييف، ذلك الموجه الذي كانوا يعتبرونه «زعيم البروليتاريا التتارية».

وفى مارس ١٩٢٤، خلال المؤتمر الإقليمي الاستثنائي الثامن الذى عقده تنظيم تترستان المنبثق عن الحزب الشيوعى (ب)، تعين عليهم تفويض القيادة لحزب اليسار، الذى كان يرأسه سعيد غالييف، وهو ستالينى، وكان يضم نسبة أكبر من الروس. وقد شكل اليمين، الذى يحظى بتأييد الرأى العام، حزباً قوياً بحيث أمكنه، فى أبريل عام ١٩٢٤، تقديم التماس إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (ب) الروسى موقع من ٣٩ قائداً، يطالب برد اعتبار سلطان غالييف، مع تحذير قادة الكرملين من انتهاج سياسة تتمثل نتائجها الحتمية فى «حل الحزب الشيوعى فى تترستان، وعودة التزمّت الوطنى بين الشيوعيين الروس والأهالى، وأخيراً فقد الثقة نهائياً فى السياسة الوطنية للحزب الشيوعى من وجهة نظر القوميات المقهورة».

وفى مايو ١٩٢٤، اندلع الصراع من جديد بين «اليمينيين» و «اليساريين» خلال المؤتمر الإقليمى التاسع للتنظيم التترى المنبثق عن الحزب الشيوعى (ب). وكانت هذه هى المرة الأولى التى تعرض فيها «اليمينيون» للهجوم المباشر من قبل الشيوعيين الروس الذين أعلنوا أن خطر «التطرف الوطنى الروسى الأعظم»، وهو الحجة الأثيرة لدى أنصار سلطان غالييف، لم يكن سوى «أسطورة ملفقة تماماً اخترعها القوميون البورجوازيون المحليون لتغطية أعمالهم التخريبية». وكما ورد فى تصريح أدلى به موروزوف، أحد المندوبين الروس، فإن «الاتجاهات الوطنية المتطرفة من صنع «اليمينيين» التترى؛ ومن ثم فإنه ليس لها وجود بين الشيوعيين الروس». كما أكد كوربوت، وهو من القادة الروس للحزب الشيوعى فى تترستان، أن المشاكل الهامشية التى لا تهم سوى الجالية التتارية لا ينبغى أن تصبح عقبة فى طريق المسيرة الاشتراكية. «إنه لمن الأجدر ألا نخلط بين أهداف الثورة العالمية والتطلعات الوطنية للتتر. ورغم أننى لا أنكر أهمية استنفار القوميات المقهورة، إلا أنه علينا ألا ننسى أن مستقبل الثورة إنما يتوقف على الغرب والغرب وحده». وتكررت الأزمة ذاتها فى العام التالى، عام ١٩٢٥، فى التنظيم التترى داخل تنظيم الشبيبة الشيوعية، وإن اتخذت شكلاً أعنف وأكثر خطورة، إذ انقسم الشبان الشيوعيون لا إلى «يمينيين» و «يساريين» على نحو ما كان عليه الحال من قبل، وإنما إلى تتر وروس.

ويعترف المؤرخون السوفيات فى الوقت الحالى بأن السياسة التى انتهجها «اليساريون» التتر فيما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٨، قد افتقرت إلى الحكمة وكانت نذيراً بالشؤم، فضلاً عن

تشجيعها بصورة غير مباشرة لظهور موجة جديدة وعنيفة من النزعة القومية الإسلامية داخل الحزب الشيوعي التتري وتنظيم الشبيبة الشيوعية التتري كذلك. وبعد أبريل ١٩٢٦، انضم الشيوعيون التتر الذين كانوا ينقسمون فيما مضى إلى شقين متنافسين، يسار ويمين، في جبهة قومية واحدة، ضد رفاقهم الروس. وفيما بين عامي ١٩٢٦-١٩٢٧، أعيد أنصار سلطان غاليف الرئيسيون من التتر، م. بوروندوكوف، مفوض الشعب لشؤون التعليم الوطني، وف. إسحقوف، الرئيس المساعد للجوسبلان Gosplan، وعالموف، وأ. مقصودوف، وغيرهم، ممن جرى إبعادهم عن السلطة عام ١٩٢٤، إلى مناصبهم في مكتب التنظيم الإقليمي للحزب الشيوعي (ب). وعلى ذلك فقد ووجه الروس منذ ذلك الحين بتكتل تتري صلب وموحد، أعرب عن معارضته بقوة وفي مناسبات عديدة، وهي معارضة قومية على نحو نموذجي، داخل خط الحزب، لا سيما في المؤتمر المخصص لتنمية الثقافة الوطنية في تترستان والذي انعقد في ربيع عام ١٩٢٧. ولم يلبث عشرة من مفوضي الشعب أن أعلنوا حالة الإضراب - وهو حدث فريد في تاريخ الحزب الشيوعي - ، تعبيراً عن الاحتجاج، حيث تخلوا عن مناصبهم وتوجهوا إلى موسكو لتقديم شكوى إلى اللجنة المركزية ضد الشيوعيين الروس في تترستان، متهمين إياهم بانتهاج «سياسة وطنية متطرفة وامبريالية، ضد المصالح الوطنية لتترستان». ولا ريب أن هذا الإجراء الذي أعقب تجمع القادة الشيوعيين التتر في جبهة قومية ترتبط مباشرة بالمركز التابع لأنصار سلطان غاليف في موسكو، كان السبب الرئيسي في اعتقال سلطان غاليف للمرة الثانية في نوفمبر عام ١٩٢٨.

الفصل السابع
اعتقال سلطان غالييف للمرة
الثانية
وتصفية «الحركة الغالييفية»

الفصل السابع

اعتقال سلطان غالييف للمرة الثانية

وتصفية «الحركة الغالييفية»

فى نوفمبر عام ١٩٢٨، تم إلقاء القبض على سلطان غالييف حيث قُدم إلى المحاكمة عام ١٩٢٩. إلا أنه لم يحق له فى هذه المرة التمتع بأى اعتبار، حيث وُجّهت له تهمة الخيانة ومعاداة الثورة والعمالة للامبريالية. غير أنه أفلت من عقوبة الإعدام. وبعد الحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشرة أعوام، تم ترحيله إلى المعسكر الخاص بدير آل سولوفكى على البحر الأبيض. وعند هذه النقطة فقدنا كل أثر له. إذ تختلف الدلائل فيما يتعلق بمصيره. وتشير إحدى الروايات المحتملة إلى أن سلطان غالييف قد أطلق سراحه عام ١٩٣٩ بعد تقيّضه لفترة العقوبة، مع حظر إقامته فى قازان وموسكو وغيرها من عواصم الجمهوريات داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ومنعه من ممارسة عمله الصحفى. كما حُدّت إقامته فى كويبيشيف، على نهر الفولجا. ووفقاً لرواية أخرى، محتملة كذلك، فإنه تم إلقاء القبض عليه للمرة الثالثة عام ١٩٤١ أو ١٩٤٢، حيث جرى إعدامه داخل السجن بعد ذلك مباشرة.

وقد جاءت إدانة سلطان غالييف لتصنع نهاية مأساوية لفترة عشرة أعوام من التعايش بين الحزب الشيوعى وجناح المسلمين الذين اعتقدوا أنهم وجدوا فى الشيوعية وسيلة لإرضاء تطلعاتهم الثورية والوطنية.

وقد أفاض المؤرخون فى وصف الأسباب غير المباشرة والمباشرة وراء فشل سلطان غالييف، إلا أنه من المتعذر الجزم، بل ولا حتى القول على قدر علمنا، بأن عجز سلطان غالييف عن إحراز النجاح المطلوب إنما يُعزى إلى محاولته الجمع بين متناقضين يتعذر التوفيق بينهما، النزعة القومية التركية الجامعة من جانب، والماركسية على الطراز الروسى من جانب آخر. إذ استعصى على فهمه فى ذلك الوقت، أى عام ١٩٢٨، أن الشيوعية وقد أصبحت روسية كانت فى الواقع شيوعية إحدى القوى الامبريالية الكبرى، مثقلة بتراث ممتد عبر خمسة قرون من العداء للإسلام، كما عجز عن إدراك أنه لا يمكن لعشرة أعوام من الدولانية البروليتارية المجردة أن تمحو الماضى المتراكم عبر الأجيال من الأحقاد العرقية والدينية.

هذا ويُعتبر الاعتقال الثانى لسلطان غالييف نقطة تحول رئيسية فى تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والأمية الشيوعية. فقد حقق ستالين انتصاراً حاسماً على منافسيه، ونجح مذهب المتمثل فى «الاشتراكية فى بلد واحد» فى إقامة تعايش مطرد بين روسيا السوفياتية، الامبراطورية التى خلفت امبراطورية القيصرية و «موطن الاشتراكية». كما لم تعد الأمية الشيوعية مؤسسة مستقلة. بل أصبحت فى حقيقة الأمر مجرد فرع من فروع مفوضية الشعب للشؤون الخارجية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وأداة خاضعة للحزب الشيوعى الروسى. وواجهت الاستراتيجية السوفياتية فى أنحاء آسيا هزائم متتالية ألقى ستالين مسؤوليتها على عاتق قادة الأمية الشيوعية. أما فى تركيا وإيران، فقد اتجهت الحكومتان القوميتان بزعامة كمال أتاتورك ورضا شاه، والتى سعت موسكو إلى إقامة علاقات حسن جوار معهما، إلى التقرب للغرب الرأسمالى وانتهاج موقف عدائى سافر تجاه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من خلال تعقب الشيوعيين. إلا أن الأحزاب الشيوعية فى تركيا وإيران جرى استبعادها من الساحة السياسية قرابة عام ١٩٢٨. وفى الوقت ذاته، انهار الحزب الشيوعى المصرى، أقدم أحزاب العالم العربى وأفضلها من الناحية التنظيمية، على يد حزب الوفد القومى. وسبق انهيار النفوذ الروسى والشيوعى فى الشرق الأوسط كارثة أعظم فى الصين. فقد انتهت المحاولتان اللتان قام بهما الحزب الشيوعى الصينى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ للاستيلاء على السلطة فى شنغهاى وكانتون بفشل دموى ذريع.

«وقد اعترف ستالين فى المؤتمر السادس الذى عقدته الأمية الشيوعية فى موسكو عام ١٩٢٨ بالدروس المأساوية المستفادة من تركيا وإيران ومصر والصين. كما شهدت آسيا نهاية الاستراتيجية التى وضعتها الأمية الشيوعية لمساندة الحركات «القومية البورجوازية» التقدمية الديمقراطية، بزعامة كمال، ورضا شاه، والوفد، والكومنتانج، على أمل استغلالهم كحلفاء ضد العدو المشترك - الامبريالية البريطانية أو الفرنسية - بما اقتضاه ذلك ضمناً من تعاون تكتيكى بين الشيوعيين المحليين والحركات القومية. وحلت محلها استراتيجية معارضة تماماً لما عُرف باسم «المواجهة الطبقيّة» وتقضى بأن تقوم البروليتاريا وطبقة الفلاحين بمهاجمة البورجوازية، التقدمية منها أو الرجعية على حد سواء. وعلى ذلك، فإن الأحزاب الشيوعية فى العالم الإسلامى، التى أوهن القمع قواها بشدة، أو بالأحرى البقية الباقية من هذه الأحزاب، كانت مطالبة بالدخول فى معركة متزامنة على جبهتين، إحداهما فى مواجهة الامبريالية،

والأخرى على الصعيد الداخلى ضد الأعداء الطبقيين، من إقطاعيين، ورجال دين وبورجوازيين. غير أن مثل هذه الاستراتيجية المغامرة كانت تفتقر إلى الواقعية تماماً. فقد بالغت بصورة خطيرة فى تقدير الإمكانيات الثورية لجموع الفلاحين والعمال فى البلدان الإسلامية، فى حين هونت من شأن ديناميكية الحركات القومية - البورجوازية. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى العزلة التامة للشيوعية فى بلدان آسيا، واختفاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى العالم الثالث قاطبة. إذ لم يكن لدى السوفيات، فى واقع الأمر، ما يقدمونه إلى البلاد المستعمرة أو التى كانت مستعمرة من قبل، فى مجال المساعدات الاقتصادية أو العسكرية، ولا حتى أى نموذج للأيدولوجية السياسية. وعلى ذلك فقد انفصل العديد من قادة الشيوعية الآسيوية الأكثر أهمية عن الأهمية الشيوعية، ومن أبرزهم الهندى موبندرا - نات روى، والإندونيسى تان ملكة.

وبدت فرص قيام ثورة فى الشرق معدومة حتى عام ١٩٤١. إذ لم يعد بالإمكان، على نحو ما كان سلطان غالييف يأمل، استخدام الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز كقاعدة انطلاق للغزو الثورى لآسيا. وبدءاً من عام ١٩٢٨، أسدل ستار حديدى منيع يعزل الشرق الأوسط عن الأقاليم الإسلامية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وانقطعت جميع الصلات التى كانت تربط بين المسلمين السوفيات وإخوتهم فى الدين المقيمين فى الخارج. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح الروس أو العملاء الأوروبيون فى الأهمية الشيوعية يمثلون وحدهم موطن الاشتراكية فى العالم الإسلامى، باستثناء واحد على قدر علمنا، وهو حكيموف، ذلك التترى من قازان، حيث قاد بعثة سوفياتية فى ذلك الوقت ببلاط الإمام يحيى باليمن. وبدأ حلم سلطان غالييف فى أن يجعل من مواطنيه التتر وسطاء بين الشيوعية والشرق فى الانهيار، بل والتداعى التام.

أما فى داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فقد شهد هذا العام ذاته، أى عام ١٩٢٨، بداية عصر الخطط الخمسية. فقد أدى توطيد دعائم النظام الاستالينى، إلى جانب تشديد نظام العمل، وضرورة تعويض التخلف الاقتصادى والتقنى الضخم، ونشوب الصراع الطبقي دون هوادة فى المناطق الريفية أو ما يسمى "de'Koulakisation"،والذى أودى بحياة ملايين البشر، وأخيراً البرنامج الذى بدأ منذ عام ١٩٣٢ بهدف التصفية الجماعية لجميع المعارضين، كل ذلك قد جعل هذه الخطط تفوق فى أهميتها حتميات السياسة الخاصة

بالقوميات. وفي ظل المناخ الجنوني الذي ساد عام ١٩٣٠ وما بعده، لم يعد لعقائد سلطان غاليف مكان. غير أن أفكاره، التي أصبحت مرادفاً «للمرجعية القومية»، ظلت تتمتع بجاذبية قوية بالنسبة للإنتلجنسيا والشبان الشيوعيين في تترستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية، حيث كان نفوذها عميقاً ومتواصلاً. وكان على موسكو، في مواجهة «التحولات» المختلفة عن «الحركة الغاليفية» بدرجة أو بأخرى، أن تشن حملة طويلة، بدأت في تترستان وكريميه، وامتدت إلى بشكيريا، وأذربيجان، وكازاخستان، وآسيا الوسطى، حيث صحبتها حملات تطهير جماعية ودموية لسائر الأحزاب الشيوعية الجمهورية.

غير أن تصفية الشيوعيين المسلمين بدأت في تترستان. فقد أدانت اللجنة العليا الحاكمة للحزب الشيوعي (ب) في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية رفاقه التتر الرئيسيين، بعد زهاء شهر من اعتقال سلطان غاليف، حيث قضت اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي في تترستان بطردهم واعتقالهم.

والمعلومات المتعلقة بهذه الأزمة، والتي كانت أولى الأزمات التي لحقت بالرجعيين الوطنيين في أحد الأحزاب الشيوعية، متوفرة لدينا بفضل الوثائق الرسمية العديدة المتاحة عن ذلك العهد. وكان أول ضحايا تلك الأزمة هم الشيوعيون «اليمنيون» كشف مختاروف، رئيس اللجنة المركزية التنفيذية في تترستان، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٨؛ وقاسم منصوروف، رئيس شعبة الدعاية في السى سى إى، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٧؛ إلى جانب رؤوف صابروف، السكرتير الأول للجنة المنطقة في الحزب الشيوعي (ب)، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٨؛ والكريمى فيروف، عضو الحزب منذ عام ١٩١٧؛ وإنبايف، عضو الحزب منذ عام ١٩١٩، بالإضافة إلى تترى آخر من كريميه، وهو دران إيرلى، عضو الحزب الشيوعي منذ عام ١٩١٨. ولم يلبث قادة شيوعيون آخرون من التتر أن انضموا إلى تلك القائمة الأولى وهم: آياز مقصودوف، ووالى إسحاقوف، وجانيف، ومكداد بوروندوكوف، ومحمود بوديلى. وقد وُجهت إليهم تهمة الاشتراك، تحت قيادة سلطان غاليف، في تأسيس حزب غير مشروع «مضاد للثورة، ومناهض للسوفيات والشيوعية والروس، يتمثل هدفه في الإطاحة بديكتاتورية البروليتاريا وإقامة نظام بورجوازي ورأسمالى». وأخيراً فقد وُجه إليهم اللوم لارتباطهم بعلاقات مع المناوئين للثورة من أعضاء ملى فرقة، والبسماتشين في تركستان، إلى جانب المهاجرين البيض والامبرياليين الإنجليز. ولم يلبث أن تم إعدامهم جميعاً، باستثناء دران إيرلى

على ما يبدو، والذي كان «نصف أمي» طبقاً لقرار الاتهام.

وأعقب إدانة قادة الحزب الشيوعي التتري هجوم منظم ضد الحركة الغالييفية التي كانت لا تزال راسخة، على نحو ما ورد في القرار الصادر عن لجنة المنطقة في تترستان بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٢٩:

«إن الانهيار الأيديولوجي والتنظيمي للحركة الغالييفية لا يعنى ضرورة وقف التصدي للنزعة القومية. ومن ثم فإن الجلسة تدعو أعضاء الحزب جميعاً إلى ملاحقة هذه الحركة، وإلى تشديد الكفاح ضد المتعصبين القوميين في الجموع المتخلفة، وكشف أنصار الحركة الذين لا يزال وجودهم قائماً في أجهزتنا بأعداد كبيرة.»

ونظراً لتعاظم نفوذ الحركة الغالييفية بين أوساط المثقفين على وجه الخصوص، فإن جهود الحزب اتجهت أولاً إلى الأوساط الجامعية والأدبية التترية. ففي خريف عام ١٩٢٩، تم حل جمعية التترية، (Obshchestvo Tatarovedeniya) أحد المراكز النشطة للنزعة القومية الإسلامية، واستبدالها بالرابطة الدراسية لتترستان (Obshchestvo Izoutcheniya Tatarstana)، وهي أكثر ميلاً إلى البروليتارية وتخضع لسيطرة الروس. ولم يلبث معظم قادتها أن جرى اعتقالهم وإعدامهم. وفي ربيع عام ١٩٣٠، أُنشئ الدور على معهد الدراسات التربوية الشرقية في قازان، حيث قام «أنصار الحركة الغالييفية»، مقصودوف وعبد الرشيدوف وصيفي، في إطاره بإنشاء «مجموعة قومية» ذات هدف ثلاثي، كما ينص قرار الاتهام:

(١) إنشاء تنظيم جامعي يتألف من الشيوعيين التتر وحدهم؛

(٢) حماية الطلبة التتر المنتمين إلى الطبقات المعدمة؛

(٣) إنشاء نواة للمنشآت الدراسية التترية من «أنصار الحركة الغالييفية».

وفي خريف عام ١٩٣٠، قامت السلطات بكشف وتصفية أحد التنظيمات الأخرى «التابعة للحركة الغالييفية»، والتي تأسست عام ١٩٢٧ في قازان، وهي الشعبة الأدبية السرية المعروفة باسم Djidigan، وكانت لها فروع في بشكيريا وتضم خيرة الكتاب التتر في ذلك العصر، ومن بينهم ناجي إسامبات، وفتحي برناش، وس. سنشاليف، وشنيكي، وج. منسكي، وجاد الشا كوتوي، وأ. شاموف، وش. مانور، وفتيح كريمي، وس. كوداش، وغيرهم، حيث أُدينوا بوصفهم «ممثلين للحركة الغالييفية في الأدب التتري» ووجهت إليهم رسمياً تهمة «انتهاج سياسة بورجوازية تحت ستار السلطة السوفياتية، والتقليل من شأن الحقيقة السوفياتية والحزب

البشفي، (. . . .) فضلاً عن تمجيد الأصالة الثقافية والروحية للشعب التتري، والدفاع عن مبدأ وحدة جميع الشعوب الإسلامية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية التي كان مقدراً لها، من وجهة نظرهم، إقامة امبراطورية إسلامية كبرى واحدة». وتشير المصادر السوفياتية لعام ١٩٣٠ والأعوام التي تلتها إلى أنه قد تم اعتقال العديد من هؤلاء الكتاب منذ عام ١٩٣٠ مثل شنيكي وسانشالي. بل إن الشاعر فتحي برناش، أحد الرفاق المتحمسين لسلطان غالييف، والذي وصفته الموسوعة الأدبية Literaturnaya Entsiklopediia السوفياتية الصادرة عام ١٩٢٩ بأنه «شاعر متميز يتمتع بشعبية غير عادية بين التتر»، قد توقف عن الكتابة عام ١٩٣٥، واختفى اسمه من الطبعة الثانية للموسوعة السوفياتية الكبرى (الجزء السادس، ١٩٥١)، والأرجح أنه قد جرى إعدامه. أما الروائي جاد الشا كوتوي، وكان مجرد «رفيق طريق» ممن تم اعتقالهم عام ١٩٣٠، فقد تنكر للزعمة القومية، حيث أطلق سراحه، بل وانضم كذلك إلى الحزب عام ١٩٤٣، كما ذاع صيت فتحي كرمي مرة أخرى وقت إعلان الحرب، وهو أحد رواد الأدب السوفياتي التتري، حيث كان مغضوباً عليه، بل وربما تم احتجازه بالسجن فيما بين عامي ١٩٣١ و ١٩٤٠.

وفي مايو ١٩٣١، إتجه هجوم السلطات ضد أنصار سلطان غالييف، وكانوا لا يزالون في تنظيم الحزب الشيوعي في بشكيريا بأعداد كبيرة، يطالبون بإعادة توحيد جمهوريتهم مع تترستان.

وفي عام ١٩٣٢، تصدى الحزب للهجوم على اثنين آخرين من «أوكار أنصار سلطان غالييف»: اتحاد الكتاب البروليتاريين التتر، حيث جرى حله في ٢٣ أبريل، والمطبوعات الحكومية في تترستان (Tatgosizdat)، التي تم تطهيرها من العناصر القومية، ثم، في نهاية ذلك العام ذاته، مجموعة المنشآت التعليمية في الجمهورية، إذ تم إبعاد جميع الطلبة ذوي الأصول البورجوازية منها.

وفي عام ١٩٣٣، انتهت الحركة الغالييفية المنظمة من الوجود، وإن ظلت أيديولوجيتها قائمة في الأوساط العلمية والأدبية في الجمهورية، لاسيما الشباب. وحتى استئصالها نهائياً، استمرت حملات تطهير الإنتلجنسيا التترية والبشكيرية حتى عام ١٩٣٩، دون تفرقة بين أنصار سلطان غالييف وأعدائه القدامى. وهكذا استهدفت تلك الحملات جميع أولئك الذين تصدوا، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، للدفاع عن مبدأ الاستقلال السياسي أو الثقافي

للمسلمين، مثل علماء اللغة المعارضين لاستحداث الأبجدية اللاتينية، بدعوى أنه من شأن ذلك أن يشجع على ترويس اللغة التترية، وكذلك الكتاب الذين كانت أعمالهم تعكس، ولو بصورة مبهمة، الأفكار القومية السابقة للثورة. ومن بين هؤلاء الروائي غالمجان إبراهيموف، أشهر ممثلي الإنتلجنسيا الإصلاحية التي اعتنقت النظام الجديد وأكثرهم تمسكاً بها.

وأخيراً، فإن حملات التطهير امتدت حتى إلى الاتحاد التتري للمجاهدين الملحدين - «المعقل الأخير للحركة الغالييفية» -، حيث أدين رئيسه، برهان منصوروف، أحد الأصدقاء القدامى لسلطان غالييف، عام ١٩٣٧، وما لبث أن تم إعدامه بتهمة «خلق نواة لتنظيمه من القوميين، والبخاريين، والتروتسكويين، وتحويل مجلة Sugushchan Allahsyz (المجاهد الملحد) إلى «منبر للعناصر المناوئة للسياسة السوفياتية».

وعندما هدأت حدة الحملة الأيديولوجية الموجهة ضد النزعة القومية عشية الحرب، لم تعد هذه النزعة تمثل، في صورتها الموالية للحركة الغالييفية، قوة معارضة خطيرة. فقد اختفى الجيل السابق على الثورة من المثقفين ذوى الأصول البورجوازية الذين شهدوا، فيما بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٧، فورة الحركة الإصلاحية، والذين لم يكن اعتناقهم الشيوعية إلا بشروط، تاركين موقعهم للجيل الجديد من المثقفين من أصل عمالي أو ريفي ذوى النشأة السوفياتية، الذين كانت الحركة الإصلاحية بأحدث مظاهرها، أى الحركة الغالييفية، تراثاً من الماضى من وجهة نظرهم.

وقد استمرت حملة التطهير للقوميين المسلمين الذين تسلموا إلى الأحزاب الشيوعية المحلية، وهى الحملة التى بدأت فى تترستان وبشكيريا، فى الجمهوريات الإسلامية داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وكانت البداية فى كريميه، حيث وُجّهت الضربة الأولى إلى حزب ملى فرقة القديم. إذ تم إلقاء القبض على والى إبراهيموف، رئيس مجلس مفوضى الشعب بجمهورية تتر كريميه والزعيم القديم لحزب ملى فرقة، وأدين باعتباره «مناهضاً للثورة وجاسوساً لحساب الامبريالية»، ثم أعدم رمياً بالرصاص فى يناير ١٩٢٨. وقد أثار إعدامه حملة تطهير للإنتلجنسيا الكريمة استمرت حتى عام ١٩٣٧ وأبيدت خلالها النخبة التترية بأكملها تقريباً، ومن بينهم خيرة كتابها، حسن صبرى آيفازوف وعثمان أكشوكراكلى.

وفى أذربيجان، جاءت أولى حملات التطهير، عام ١٩٢٩-١٩٣٠، لتصيب أنصار خانبوداجوف، وهم من الأعضاء القدامى بحزب الهمة الذين انضموا إلى الحزب وإن ظلوا

قوميين أكثر منهم شيوعيين. وأعقب ذلك موجة ثانية من التصفية الجسدية للشيوعيين - القوميين عام ١٩٣٣، بعد وفاة ناريمان ناريمانوف - الزعيم القديم لحزب الهمة، والذي أصبح سكرتيراً أول للحزب الشيوعي ورئيس مجلس مفوضي الشعب في أذربيجان. وقد حظى ناريمانوف بميزة نادرة وهي وفاته على فراش المرض، إلا أنه أدين بعد وفاته بتهمة أنه «خائن، وشخص محرض، ورجعي، وقومي بورجوازي». كما هلك معظم رفاقه، وهم من الأعضاء القدامى في حزب الهمة، في حملات التطهير التي استمرت حتى عام ١٩٣٨. ونسجل من بين الضحايا بعض الأسماء مثل سلطان مجيد أفندييف، وكان رئيس اللجنة المركزية التنفيذية في أذربيجان ومفوض الشعب لشؤون الزراعة، وداداش بونيات زاد، رئيس مجلس مفوضي الشعب في أذربيجان عام ١٩٣٠ ومفوض الشعب لشؤون التعليم الوطني، وحامد سلطانوف، مفوض الشعب للشؤون الداخلية، وغيرهم كثيرون....

أما في كازاخستان، حيث هيمن أنصار سلطان غالييف على الساحة السياسية، فقد تفجرت الأزمة عام ١٩٢٨. وتزامن ذلك مع بدء برنامج التحضير الجبري الصارم للقبائل البدوية بهدف نقلها من حالة الترحل إلى حالة الإقامة، وهو البرنامج الذي راح ضحيته أكثر من مليون كازاخستاني. وقد استمرت الحملة المناهضة للقومية على مدى عشرة أعوام، حيث هاجمت بنفس الشراسة القادة القدامى لحزب آلاش أوردا - مثل علي خان بوكيخانوف، ومير يعقوب دولاتوف، وأحمد باي طورسون، وكانت أفكارهم قريبة من آراء الرفاق التتر لسلطان غالييف - والقادة الشيوعيين الذين كانوا أعداء لحزب آلاش أوردا - مثل تورار ريسكولوف، أو إسماعيل صادفوكاسوف، أو منديشيف، أو سيف الدين -، وأخيراً جميع أولئك الذين تصدوا، باسم حق الشعب الكازاخستاني في البقاء، لمعارضة الإبادة الجماعية للبدو. إلا أنهم اختفوا جميعاً خلال حملات التطهير الدموية.

وفي تركستان في نهاية الأمر، بدأ تدمير النخبة الأهلية القديمة في وقت متأخر نسبياً بالقياس للأقاليم الإسلامية الأخرى، وربما بسبب استمرار حركة البسماتشين في المقاومة داخل بلاد تركمانستان وفي أوزبكستان الجنوبية حتى منتصف عام ١٩٣٠ وما بعده. وقد استهدفت حملة الإبادة، وقت انطلاقها، المثقفين الإصلاحيين الذين ظلوا على ولائهم للمثل الخاصة بالجامعة التركية، وكان لسان حالهم الكتاب منيفر قارى، وعبد الرؤوف فطرة، وشولبان؛ و«الشبيبة البخارية» القديمة و«الشبيبة الكيفية»، الذين انضموا إلى النظام السوفياتي على

مضض فى كثير من الأحيان؛ كما أصابت الحملة على السواء القادة المحنكين للأحزاب الشيوعية الجمهورية فى آسيا الوسطى، ومن بينهم فيظ الله خوجاييف، رئيس مجلس مفوضى الشعب، وأكمل إكراموف، السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى أوزبكستان، الذين حُكم عليهم بالإعدام وتم تنفيذ الحكم بالدعوى المقامة فى موسكو عام ١٩٣٨.

وهكذا لم يعد ثمة وجود، عشية الحرب العالمية الثانية، للحركة القومية الإسلامية كتنظيم داخل الحزب الشيوعى الروسى، وهى الحركة التى كان مذهب سلطان غالييف هو مثالها وغرذجها المحتدى.

الفصل الثامن

النبي

الفصل الثامن

النبى

ماذا بقى لنا حالياً من حلم سلطان غالييف فى تكييف الماركسية وفقاً للظروف الخاصة بالعالم الإسلامى؟ هو سؤال صعب ولا شك، إلا أنه علينا أن نحاول الإجابة عليه، طالما أنه ربما أصبح بالإمكان أخيراً، بالرجوع إلى الوراء لأكثر من نصف قرن، التكهن بحقيقة سلطان غالييف: أهو نبى لم يُعرف قدره، أم مبشر وجدت نظرياته برهانها أخيراً بظهور العالم الثالث، أم هو ساحر بما سببه من أحداث عجز عن إيقافها، أم هو حالم رومانسى يفتقر إلى الواقعية، أم مجرد مثير للشغب مثل كثيرين ممن عايشوا أعوام الثورة والحرب الأهلية؟ الأجدر بنا بدايةً أن نشير إلى حقيقة هامة. إن سلطان غالييف، على عكس معظم الضحايا المسلمين الآخرين لستالين، لم يتم رد اعتباره إليه حتى يومنا هذا، وربما لن يتحقق ذلك فى المستقبل المنظور. بل إن مؤلفاته هو ورفاقه يتعذر الحصول عليها حتى بالنسبة للباحثين السوفيات أنفسهم. كما لا يمكن الرجوع إلى مجموعات مجلة 'Fizn Natsional' nostey، حيث توجد معظم مقالاته، فى مكاتب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وينطبق نفس الشيء على الأعمال والدوريات التتيرية التى تتناول أعوام الثورة والحرب الأهلية. إذ كانت هذه الأعمال مكتوبة بالحروف العربية، ومن ثم فقد تعذرت قراءتها إلا لقلّة نادرة من الباحثين. أما فيما يتعلق بالأعمال التى أعيد طبعها مؤخراً من مؤلفات رفاق سلطان غالييف الذين استردوا اعتبارهم، مثل تيارار ريسكولوف أو فيظ الله خوجاييف، فقد تمت تنقيتها تماماً من أية إشارة إلى نظريات سلطان غالييف. وعلى ذلك فإن أى مثقف مسلم شاب فى عصرنا الحالى قد يجد صعوبة فى إعادة اكتشاف سلطان غالييف، تفوق ما يمكن أن يواجهه أى منشق روسى يحاول التعرف عن كذب على برديف أو تروتسكى. إلا أن الأدب السياسى السوفياتى المعاصر لا يغفل سلطان غالييف تماماً. بل إنه يحتل موقعاً متميزاً فيه بين الأشرار، أو «الشياطين»، وإن كانت صورته ذات طابع أسطورى أكثر منه واقعى. فقد أصبح نوعاً من التروتسكويين المسلمين، رمزاً للعدو الذى لا يمكن إسقاطه، أو «القومى البورجوازى» المؤيد للرأسمالية الكبرى ولرجال الدين الرجعيين التتير والذى نجح، بأية حيلة لا ندرى، فى التسلل إلى الحزب الشيوعى الروسى بل والاضطلاع بدور معين فيه، مشؤوم بلا شك، قبل كشفه وإنزال أقصى العقوبات عليه. كان

نصير البسماتشين وعميلاً للامبريالية الأجنبية، إذا ما سلمنا بصدق الكتابات السياسية التي قدمتها إدارة التحريض والدعاية Agitprop. وفضلاً عن ذلك، فإنه يخلع قناعاً ليضع آخر مكانه: فقد كان ألمانياً ويابانياً قبل الحرب، ثم أصبح المجلدنياً وتركياً فيما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٧٠، وهو اليوم أمريكي، ومن المنتظر أن يتحول إلى صيني...

ويمكننا أن نطرح السؤال: «لم كل هذا التعصب ضد أحد مؤسسي النظريات رغم وفاته منذ نصف قرن؟» ألا نرى في ذلك مؤشراً على أن أفكاره لم تدخل تماماً في طي النسيان، وأنها لا تزال على قيد الحياة بعد موت صاحبها، كما يحدث كثيراً في حالة المبشرين السابقين على عصرهم؟

غير أن الأوضاع السياسية والإدارية والثقافية للأقاليم الإسلامية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تختلف اختلافاً كبيراً في الوقت الحالي عما كانت عليه عام ١٩٢٠ والأعوام التي تلتها. فعلى الصعيد الإداري، لم يتحقق أي من الأهداف التي سعى إليها سلطان غالييف. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ مشروع إقامة جمهورية إسلامية تترية بشكيرية على القولجا الوسطى، وبالأحرى إنشاء دولة تورانية مستقلة تضاف على تتر القولجا مكانة متميزة في العالم الاشتراكي، حلماً بعيد المنال، لا بسبب المعارضة الرسمية للحزب فحسب، بل وكذلك نتيجة لتطور الشعوب الإسلامية ذاته الذي أخذ شكل التميز.

وهكذا انهار حلم سلطان غالييف في الوحدة السياسية التركية والإسلامية، وأصبحت الشعوب الإسلامية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تنقسم حالياً إلى بضعة عشرات من الجمهوريات، اتحادية أو مستقلة، ومن الأقاليم المستقلة. كما صارت الوحدة التركية الجامعة حول لغة أدبية، كاللغة التترية في قازان أو الشاجانية، والتي كان من الصعوبة بمكان تحقيقها إبان الثورة، وهماً من نسج الخيال اليوم أكثر من أي وقت مضى. إلا أن التقدم الذي تحقق منذ الثورة أسفر عن نهضة ثقافية سريعة لشعوب لم تكن تملك، قبل عام ١٩١٧، سوى مجموعة ضئيلة من المثقفين ذوي النشأة التقليدية. وأصبحت للشعوب الإسلامية جميعها في الوقت الراهن، لا سيما التركستانيين والقوقازيين، كوادرها العلمية الجامعية، والإدارية، والسياسية الخاصة. وقامت هذه الكوادر بسد فجوة التخلف التي كانت تفصلهم عن التتر، ومن ثم لم تعد بهم بحاجة، مثل أسلافهم في مستهل هذا القرن، إلى الاستعانة بخدمات المثقفين في قازان. وهكذا فقد التتر في القولجا مكانتهم المتميزة بوصفهم Kulturträger مكلفين بنقل

الثقافة والمدنية الحديثة إلى أشقائهم وإخوتهم في الدين الذين أصابوا حظاً أقل من التطور. إذ لم يعد بوسع التتر، بعد أن ظلوا على مدى أعوام مصدراً يستلهم منه المسلمون روح المقاومة للمركزية الروسية، أن يزعموا بحقهم في الزعامة الأيديولوجية، ولا السياسية بالأحرى، للجانبايات الإسلامية والتركية في الاتحاد السوفياتي. وأصبحوا لا يشكلون سوى أمة إسلامية، هامة ولا ريب وإن كانت أكثر قابلية للهجوم، وأشد عرضة للتهديد بخطر الترويس من غيرها. بل إن التشتت، الذي كان مصدراً لقوة التتر فيما مضى، قد تحول إلى عامل من عوامل الضعف في الوقت الراهن.

وأصبح التعبير عن الاستقلال السياسي منذ ذلك الحين فصاعداً يتم في إطار النظام الفيدرالي السوفياتي، أما الاستقلال الثقافي - أحد الأسس الأخرى للحركة الغالييفية - فقد عرّفته النظرية الاستالينية بأنه الثقافة «الوطنية شكلاً، وإن كانت بروليتارية واشتراكية من حيث المضمون»، وهو الكفيل وحده، من وجهة نظر السلطات، بتحقيق التطلعات الوطنية للشعوب المختلفة دون مساس بترابط العالم السوفياتي. فهل تشعر الإنتلجننتسيا الأهلية الجديدة بالرضا عن ذلك الكادر؟ من الصعوبة بمكان إصدار حكم عام على مسلك المتشيمين إليه. إذ يمكن الاعتقاد بأن بعضهم فخور بالنجاح الذي حققه النظام، ويشعر بالعرفان تجاه الحزب على إتاحة الفرصة لهم، وإن كان ذلك قد تم بأساليب قسرية، لاجتياز الفاصل بين مجتمع تقليدي الطراز شبه إقطاعي ومجتمع حديث على مدى جيل واحد. إلا أن البعض الآخر، وهم الأغلبية على الأرجح، قد أظهروا تشبهاً بالشعور الوطني مثل أسلافهم خلال الأعوام الأولى للشورة، وهو الشعور الذي اتخذ شكل معارضة لخط الحزب دون إغفال لبعض الأفكار التي اعتنقها سلطان غالييف فيما مضى. وما سهل من هذه المعارضة ظاهرة لم يتنبأ بها سلطان غالييف ورفاقه، وهي التحول الذي طرأ على الاتجاهات الديموغرافية في الاتحاد السوفياتي.

ففي عام ١٩٢٦، كان المسلمون، البالغ عددهم ١٧ مليون نسمة، يمثلون ١١.٥٪ من مجموع السكان في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، حيث كانوا يتزايدون، حتى نشوب الحرب، بمعدل أبطأ من الروس (بلغ ٤.١٪ في مقابل ٤.٧٪ فيما بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٩). وعلى ذلك، فإن خطر هيمنة الروس على المسلمين كان خطراً حقيقياً. إلا أن الوضع تغير تغيراً ملحوظاً غداة الحرب. فقد كشف التعداد السوفياتي للسكان الذي تم إجراؤه عام ١٩٥٩ عن أنه، في حين شهدت المجموعات السلافية الثلاث - الروسية، والأوكرانية،

والبيلوروسية - وهى المجموعات التى تحملت كل أعباء الحرب وعانت خسائر جسيمة، انخفاضاً كبيراً فى معدلات الخصوبة لديها، فإن نفس المعدل قد تفجر لدى المسلمين الذين كانوا يتمتعون بحماية نسبية. إذ أصبحوا يمثلون، عام ١٩٧٠، نسبة قدرها ١٤.٥٪ من إجمالى السكان، حيث بلغ عددهم ٣٥ مليون نسمة، وارتفعت هذه النسبة إلى ١٦.٨٪ عام ١٩٧٩، بتعداد قدره ٤٤ مليون نسمة. وفى عام ١٩٨٥، تجاوز عددهم ٥٠ مليون نسمة على الأرجح، أى بنسبة تتعدى ١٨٪ من المجموع الإجمالى للسكان فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. بل إن بعض الديموغرافيين السوفيات يتوقعون أن يتجاوز عدد المسلمين ٨٠ مليون نسمة، أى ربع عدد السكان فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بحلول عام ٢٠٠٠. وإذا ما تحققت هذه التوقعات، فإنه من بين كل أربعة مواطنين سوفيات سوف يكون هناك واحد مسلم، وآخر تركى من بين كل خمسة. إلا أن الديموغرافيين الأمريكيين، لا سيما أفضلهم وهو موراي فشبك، ينتهجون نهجاً أكثر اعتدالاً وعقلانية من وجهة نظرنا على ما يبدو. فهم يقدرّون عدد المسلمين عام ٢٠٠٠ بما يتراوح بين ٦٣ إلى ٧٠ مليون نسمة، أى بمعدل مواطن واحد من بين كل خمسة.

هذا ويحتل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى الوقت الراهن المرتبة الخامسة بين القوى الإسلامية فى العالم بعد إندونيسيا، والهند، وباكستان، وبنجلاديش. كما أن عدد المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يتجاوز نفس العدد فى مصر أو فى إيران، بل إنه يضم من الأتراك ما يفوق مثيله فى تركيا ذاتها. وليس ثمة شك فى أن التزايد المطرد فى عدد السكان المسلمين، مضافاً إلى الانخفاض الحاد فى معدل الخصوبة لدى السكان السلافيين، يمثل أخطر المشاكل التى ستواجه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية على مدى العشرين عاماً المقبلة. إذ يدرك جميع المختصين فى مجال الاقتصاد السوفياتى أن الأقاليم الروسية والأوكرانية سوف تشهد فى المستقبل القريب نقصاً فى اليد العاملة الصناعية، فى حين أنه سيكون لدى آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية فائض فى الأيدي العاملة الريفية التى تحجم عن الهجرة، فى الوقت الحالى على الأقل. ومن ثم، فإن المجادلات التى تبث فى أفضل السبل لحل هذه المشكلة تجرى على قدم وساق فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. ما هو الحل إذن؟ هل نتقل الفائض من اليد العاملة فى آسيا الوسطى إلى المناطق الصناعية الجديدة فى غرب سيبيريا وروسيا؟ أم نحول العمالة الإسلامية الريفية

من كولكوز وسوفكوز بالكامل إلى الأقاليم الريفية الروسية، بهدف إعفاء الكولكوزيين الروس من هذه الأعمال وتحويلهم إلى عمال صناعيين؟ إن هذه التجربة موضع اختبار في الوقت الحالي، وإن كان ذلك على نطاق ضيق. أم هل يتعين علينا نقل الصناعة إلى اليد العاملة، من روسيا إلى آسيا الوسطى؟ كلها حلول تتطوى على مخاطر محققة. فالتنقل الجماعي للسكان، على نحو ما أمكن تحقيقه في عهد ستالين، لم يعد ممكناً في وقتنا الحالي، بل إنه يهدد بإثارة المقاومة بصورة غير مأمونة العواقب. أما تحويل آسيا الوسطى، ذلك الإقليم الذي يتحرك سريعاً في اتجاه «المحلية»، إلى منطقة صناعية كبرى على حدود الصين، إنما يعنى إعطاء دفعة جديدة للاتجاهات الطاردة المركزية الكامنة للصفوة المحلية، وهي الاتجاهات المستلزمة من أفكار سلطان غاليف بدرجة أو بأخرى.

وأياً كان الأمر، فإن خطر هيمنة الروس «بيولوجياً» على المسلمين يبدو مستبعداً بصورة قاطعة. ومن جهة أخرى، فإننا نشهد، منذ عام ١٩٧٠، ظاهرة جديدة في الجمهوريات الإسلامية يمكن أن نطلق عليها «إضفاء الطابع القومي» على الحزام الجنوبي للاتحاد السوفياتي بأكمله. فقد توقفت هجرة الروس وغيرهم من «الأوروبيين» إلى آسيا الوسطى والقوقاز في الوقت الحالي؛ بل إننا بدأنا نشهد في بعض الأقاليم، لا سيما في القوقاز، نزوح الروس لأسباب سياسية مثل كره أهل البلاد، أكثر منها اقتصادية. وفي المقابل، فإننا نرى تزايداً مطرداً في هجرة الأتراك المسلمين من الفولجا الوسطى إلى آسيا الوسطى. ففي عام ١٩٧٩، كان هناك أكثر من مليون تترى، أى ما يعادل سدس عدد السكان التتر، يعيشون في آسيا الوسطى، إلى جانب ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠ بشكيرى. وسرعان ما أصبحت جميع الأقاليم الجنوبية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المتاخمة لتركيا وإيران وأفغانستان يسكنها عدد أكبر من السكان الأصليين ومن المسلمين. بل إنه من المقدر، بحلول نهاية هذا القرن، أن يبلغ عدد السكان في آسيا الوسطى ما يتراوح بين ٦٠ إلى ٦٥ مليون نسمة في مقابل ٤٠ مليون نسمة حالياً، حيث يُقدر أن يتجاوز عدد المسلمين فيهم ٥٠ مليون نسمة.

وعلى صعيد آخر، فإن وضع المسلمين في مواجهة الروس يُعد أقوى كثيراً مما كان عليه في عهد سلطان غاليف. فرغم ضخامة جهاز الدعاية الموجهة ضدهم، إلا أن هيمنة الروس عليهم لغوياً أو ثقافياً أو من الناحية المادية، أو حتى خلق تجانس سوفياتي *homo sovieticus*، ذلك المفهوم الخيالي إلى حد كبير، كل ذلك لم يتجاوز حد الكلام ولم يحقق أدنى نتيجة ملموسة.

فقد ظل الروسى روسياً، ولا يزال المسلم، كما كان قبل الثورة، تركياً ومسلماً.

هذا ولم يعد المسلمون فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى موقف دفاعى حالياً كما كانوا فى عهد سلطان غاليف. إذ لم تعد مشكلتهم الرئيسية هى السعى إلى البقاء، بل انتزاع أقصى قدر من التنازلات من سادتهم الروس بأفضل الشروط، والانضمام إلى صفوف المسلمين بهدف تكوين جبهة صلبة فى مواجهة الروس. ومن المؤكد أنه ثمة عملية للتقارب (Sblijenie) بل وحتى الاندماج المادى (Sliyanie) تجرى بين شعوب آسيا الوسطى أو القوقاز، إلا أن هذه العملية لا تعنى سوى المسلمين ولا تخص الروس فى شىء. وليس ثمة شك فى أن المثقفين المسلمين المعاصرين يناضلون خطوة خطوة، كما فعل سلطان غاليف، من أجل المشاركة بنصيب أكبر فى السلطة السياسية والاقتصادية، ورد الاعتبار إلى ثقافتهم الوطنية التقليدية على نحو متكامل، إلا أن كفاحهم لم يعد يتسم بطابع القنوط الذى كان يميز نضال سلطان غاليف بعد عام ١٩٢٠. فهم متفائلون بشأن المستقبل الذى ينتظرهم. كما أنهم قد تحاشوا عملية الهيمنة، ويدركون أنهم أقوى من الروس مادياً وأن الزمن يعمل لصالحهم.

وعلى ذلك، فإنه لم يعد للمهدفين الرئيسيين اللذين سعى سلطان غاليف إلى تحقيقها، وهما إنشاء جمهورية توران وتصدير الشيوعية إلى بلدان الشرق الأوسط الإسلامية - إيران وأفغانستان وتركيا - نفس المدلول كما فى الوقت الحالى، إذ أنه من شأن التضخم الديموغرافى للسكان فى هذه البلدان أن يتيح للصفوة الإسلامية أن تتطلع إلى التحرر ذات يوم من السيطرة الروسية من خلال ما تتمتع به من ثقل عدى، دون حاجة إلى جلب أعداد من المسلمين الأجانب. فضلاً عن ذلك، فإن الأمل فى الوحدة السياسية والإدارية للشعوب الإسلامية، والذي جاء نتيجة لإنشاء جمهورية توران، قد تراجع حالياً إلى المرتبة الثانية بين اهتمامات الصفوة من سكان البلاد الأصليين، بعد الوحدة الثقافية والنفسية التى تحققت بالفعل.

والاختلاف جد كبير بين الصفوة الإسلامية المعاصرة وتلك التى كانت قائمة عام ١٩٢٠ وما تلاه من أعوام، والتى تعرضت للإبادة خلال حملات التطهير الاستالينية. فهى تفوقها عدداً إلى حد كبير، فضلاً عن انتمائها إلى طبقات إجتماعية مختلفة. فالصفوة فى عهد سلطان غاليف كانت من أصل بوجوازي وأرستقراطى، إلى جانب التنوع البالغ فى نشأتها الثقافية. أما النخبة فى عصرنا الحالى فهى تنتسب، فى غالبيتها، إلى أصول ريفية، كما أنها نشأت فى المدرسة السوفياتية ذاتها، أى تشكلت بنفس القالب. وقد أصبحت اللغة الروسية هى اللغة

الثانية لهذه الكوادر الجديدة، وهم أكثر شباباً بوجه عام من رفاقهم الروس. ورغم كونهم أقل رقياً ولا ريب من أسلافهم، إلا أنهم أقل عداءً للتقاليد كذلك وأكثر احتراماً للماضى ولعادات أجدادهم وتقاليدهم. كما كانوا لا يكونون أى عداء ازدرائى تجاه الإسلام على وجه الخصوص، على نحو ما كان يستشعره المثقفون السابقون على الثورة تجاه ديانة اعتبروها رجعية. إذ يرى المسلمون الشبان فى آسيا الوسطى أو القوقاز حالياً، على الرغم من (أو بسبب) نصف قرن من الاضطهادات، أن الإسلام جزء لا يتجزأ من هويتهم الوطنية اليوم أكثر من أى وقت مضى فالجميع يعرفون أنفسهم بأنهم «مسلمون»، بما فى ذلك الملحدون الرسميون، وأعضاء الحزب، ومحركو الفتن المناهضون للدين.

كما تتفق جميع المصادر السوفياتية كذلك على الاعتراف بأن جيل الشباب من الصفوة الإسلامية يضارع، إن لم يكن يفوق، فى نزعة القومية جيل رفاق سلطان غالييف، بل ويفوقهم أحياناً من حيث كراهة الأجانب ربما لكونهم أكثر عدوانية وتشدداً فى المطالب. غير أنه سوف يكون من غير المجدى البحث عن صلة مباشرة تربط المثقفين المسلمين رفاق سلطان غالييف بخلفائهم المعاصرين. فالفرق الأول قوميون أتوا إلى الشيوعية من كل حذب وصوب، لا اعتقادهم بأن الماركسية اللينينية هى القادرة وحدها على تحريرهم من ربقة الروس. إلا أنهم ظلوا ماركسيين من الظاهر فقط. أما الفريق الثانى فهم شيوعيون عن قناعة بوجه عام، وإن كانت النزعة القومية ليست، من وجهة نظرهم، أحد مخلفات «العقلية الرأسمالية» أو التقاليد «البورجوازية» السابقة على الثورة، وإنما هى تعبير عن إحدى الخصائص السياسية والثقافية الجوهرية التى تميزهم عن رفاقهم الروس، بل وتضعهم فى موقف المواجهة معهم إذا ما اقتضت الضرورة ذلك.

وعلى ذلك، فإن «قوميتهم» تختلف إذن، من حيث الأصل، عن الحركة الغالييفية، رغم أن موقف الجيل الجديد تجاه المشاكل الأساسية لشعوبهم، وعلى رأسها العلاقات التى تربطهم بالشعب الروسى، لا يختلف كثيراً عن موقف سلطان غالييف قبل انفصاله عن الحزب. فهم يرتبطون، مثل سلطان غالييف بل وربما أكثر منه، ارتباطاً وثيقاً بثقافتهم الوطنية لا من حيث الشكل فقط بل والمضمون كذلك. كما أنهم يولون الاهتمام لتدبر شؤون الدين الإسلامى والتراث التقليدى، حتى وإن كان هذا التراث لا يتفق والثقافة «البروليتارية» السوفياتية الجديدة. وهم يمثلون الماضى الوطنى لشعبهم، حتى إذا ما كان يتعلق بالنضال ضد الروس على وجه

الخصوص. وأخيراً - وهو ما يوضح التأثير المباشر لأيدولوجية الحركة الغالييفية - ، فإنهم كانوا يودون لشيوعيتهم أسلافاً غير البلاشفة الروس ، وهو ما ينطوى بصورة غير مباشرة على اعتراف ضمنى بأصالة الشيوعية الشرقية.

غير أن الاختلاف الجوهرى بين الحركة الغالييفية فى العشرينات من هذا القرن وبين النزعة القومية للشبان المسلمين المعاصرين ، هو موقفهم حيال الدين. ويُعزى ذلك إلى ظاهرة تاريخية عجز سلطان غالييف عن التنبؤ بها ؛ وهى عودة الإسلام بصورته الأصولية أو المتطرفة إلى الظهور فى العالم الإسلامى قاطبة فى قالب سياسى. وتتضح هذه الظاهرة المتمثلة فى العودة إلى التقليدية الإسلامية فى جميع أنحاء دار الإسلام ، من المغرب إلى الفلبين ، إلا أنها تبرز كأوضح ما يكون فى البلدان المتاخمة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، فى إيران وأفغانستان وتركيا. بل إن آسيا الوسطى والقوقاز اللذين كانا ، منذ العصر الوسيط الأكبر ، من أكثر مواطن الحضارة الإسلامية تميزاً ، لم يكن أمامها سوى مساهمة الاتجاه العام. وتقدم لنا المصادر السوفياتية ، التى لم تعد تشير إلى «بقاء» الإسلام فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، وإنما إلى «عودة ظهوره» ، أمثلة لا حصر لها حول هذه الظاهرة. إذ يرجع أصل هذه النهضة إلى خيبة الأمل فى الغرب. فبعد السعى على مدى قرن كامل إلى محاكاة جميع المذاهب الاجتماعية السياسية الواردة من أوروبا ومن روسيا - من ليبرالية ، واشتراكية معتدلة ، وشيوعية ، وشعبية ، وفاشية - ، عاد المسلمون اليوم إلى الجذور العميقة لمجتمعهم ، محاولين الكشف فى التقاليد الإسلامية عن أقرب النظريات السياسية إلى وضعهم الحالى.

أما فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، فقد اتخذت العودة إلى الأصول شكلاً مزدوجاً ، يتمثل جانب منه فى التيار الثقافى الليبرالى الذى خلف الحركة الإصلاحية فى القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين ، أما الجانب الآخر ، وهو الأقوى والأكثر ديناميكية ، فيتمثل فى الأصولية المحافظة ، التمامية(*) ، المناهضة للروسية وللشيوعية ، والتى تستشهد بالجهاد المقدس للشيخ منصور ، والإمام شامل ، وأذن حاج فى ١٩٢٠-١٩٢١ ، وتستند إلى ثورة البسماتشين. ويمكن مقارنة هذا التيار الأخير ، مع الحفاظ على التناسب الضرورى ، بالأصولية الإيرانية والأفغانية ، أى الحزب الإسلامى والجامعة الإسلامية ، وبحركة النورجويين (Nurcular) و«الإخوة المسلمين» المصريين والسوريين.

(*) تمامية (مذهب يحاول الاحتفاظ بتمام نظام (كالدين مثلاً) (الترجمة)

غير أن المذهب المحافظ الإسلامى الجديد فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يستند، خلافاً للحركات الأصولية الأخرى، إلى أساس تنظيمى استثنائى، وهو الأساس الذى تقدمه الطرق الصوفية، تلك التنظيمات السرية ذات الهياكل القومية والمتدرجة، التى يحكمها نظام حديدى وطاعة مطلقة من قبل المشايخين تجاه الملات.

وفى ذلك كتب لوسيان كليموفيتش، وهو من خيرة علماء الإسلام السوفيات، يقول: «ثمة تياران متعارضان فى الإسلام: التيار الرسمى «داخل المسجد»، والذى يمثل رجال الإفتاء، وشيخ الإسلام، ومثلو المذاهب الروحية الإسلامية الأربعة... والتيار غير الرسمى، «خارج نطاق المسجد»، أى التيار الصوفى الذى يمثل الإشانيون، والبيريون، والمشايخ، وأسائذ الطرق الدينية. إلا أن رجال الدين المنتمين إلى التيار غير الرسمى يفوقون من ينتمون منهم إلى التيار الرسمى من الناحية العددية بدرجة كبيرة فى كافة الأنحاء. ففى بعض الأقاليم، مثل شمال القوقاز على سبيل المثال، نجد أن القائمين على خدمة الشعائر الدينية ينتمى جميعهم تقريباً إلى إحدى الطرق الصوفية.» (Voprosy Nauchnogo Ateizma, موسكو - ثانيا - ١٩٦٦، ص ٦٦-٦٧).

هذا وتتمتع الصوفية، ذلك المذهب الغامض الذى ينتمى إلى العصور الوسطى وإن كان لا يزال يتسم بالفتوة والديناميكية، بنفوذ متزايد فى الوقت الحالى على الجيل الجديد من الإنتلجنسيا المسلمة على حساب الماركسية اللينينية، تلك الأيديولوجية الهرمة التى لم يعد لديها، لا سيما فى صورتها الروسية، ما تقدمه من وسائل للجذب على المستوى الفلسفى بسبب ما تتسم به من فظاظة تدعو إلى القنوط، أو على الصعيد السياسى طالما أنها لم تنجح فى تحرير المسلمين من خضوعهم للروس؛ ولا بوصفها أحد المذاهب الاقتصادية على وجه الخصوص، مادام المسلمون فى آسيا الوسطى قد تميزوا بمستوى معيشى يفوق مستوى الروس الذين يعيشون فى روسيا، رغم كونهم أكثر قرباً من العاصمة العالمية للشيوعية. كما أن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى الشيوعية العلمية، بل إلى الاقتصاد الموازى بطابعه الرأسمالى إلى حد كبير - غير المشروع وإن كانت السلطات المحلية تبيحه بدرجة أو بأخرى. إلا أن حلم التعايش بين الماركسية - اللينينية، وتجريد الإسلام من الجوانب الروحية مع الحفاظ على جميع قيمه الاجتماعية والثقافية على نحو ما أراد سلطان غالييف، قد يبدو جذاباً فى بعض البلدان الإسلامية الأجنبية التى لم تعرف الاشتراكية المحلية، ولا الاحتلال الروسى بصفة خاصة. ولكنه

يبدو حالياً، في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وبعد مضي خمسين عاماً، كحلم جميل لم يقدر له أن يتحقق على نحو يرثى له.

هذا وقد نجح اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، منذ الحرب العالمية الثانية، في تصدير الثورة الشيوعية إلى العالم الثالث في كل من آسيا وأفريقيا، في الصين، ومنغوليا، وفي كوريا الشمالية، وفيتنام، وفي لاوس، وكمبوديا، وفي أفغانستان - وإن كان ذلك على الصعيد الرسمي في الواقع -، وإثيوبيا، وفي اليمن الجنوبية، وأنجولا، وفي موزمبيق، ونيكاراجوا، وكوبا... وهذه البلدان جميعها تشكل جانباً من العالم السوفياتي وتحكمها أحزاب شيوعية. كما حققت ثورة المستعمرات انتصاراً بوجه عام في العديد من البلدان الأخرى، من خلال حركات تتزعمها قيادات بورجوازية، وهكذا اقتربت الاستراتيجية الثورية، التي أثبتت جدارتها بالنسبة للعالم الثالث من الآن فصاعداً، من الفرضيات التي تبناها سلطان غالييف عام ١٩١٨. كما بدأت موسكو في الإعلان عن وجود طرق عديدة يمكن أن تؤدي إلى الاشتراكية، وهو ما يمثل اعترافاً بشيء من الاستقلال للحركة الثورية في المستعمرات بل وحتى، في ظروف معينة، بإمكانية عدم التقيد الحرفي بالنموذج الروسي.

وخلافاً للقرارات المتخذة في مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في باكو في سبتمبر ١٩٢٠، فقد أصبح هناك تسليم في الوقت الحالي بضرورة تحالف جميع طبقات المجتمعات المستعمرة في مواجهة «الامبريالية»، مع المبالغة، كما فعل سلطان غالييف، في مدح التكتيك الخاص بالجهات الوطنية التي تتزعمها قيادات بورجوازية وليست بروليتارية أوروبية بالضرورة. وهكذا أصبحت الثورة الوطنية تحظى بالأولوية على الثورة الاجتماعية، وهو ما أدى إلى استبعاد الصراع الطبقي لفترة غير محددة، مع افتراض وجود تحالف تكتيكي دائم بين الحركات الشيوعية والقومية. وأخيراً فإن زعماء الكرملين، وقد سلموا طبقاً للأمر الواقع بأن بلدان الغرب الصناعية ليست هي البيئة المواتية لانتشار الشيوعية بالمقارنة بآسيا ما قبل الرأسمالية، قد اعترفوا ضمناً بأن سلطان غالييف كان على حق عندما أكد، في معرض الجدل مع رفاقه الروس، أن مستقبل الشيوعية في آسيا.

غير أن الثورة قد انتقلت إلى الشرق، خلافاً لما كان يرجوه سلطان غالييف، على يد الروس وحدهم وليس المسلمين السوفيات. فعدد المسلمين الذين عملوا في الحقل الدبلوماسي، أو كمستشارين اقتصاديين وعسكريين في البلدان الإسلامية منذ نهاية الحرب، لا يتجاوز عدد

أصابع اليد الواحدة. ورغم «الانفراج»، النسبي من جهة أخرى، الذى نشأ بين ستالين والزعماء الدينيين الإسلاميين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية أثناء الحرب، إلا أن الحكومة السوفياتية لا تزال تنظر بعين الريبة إلى المسلمين بنفس القدر من عدم الثقة الذى تعكسه أعوام العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. وعلى ذلك فإن مسؤولية نشر الثورة فى العالم الإسلامى بكل من آسيا وأفريقيا قد عُهد بها إلى عناية الروس وحدهم. وكان على المسلمين السوفيات أن يعملوا، فى أفضل الأحوال، كمعاونين فنيين، أو مترجمين فوريين أو تحريريين، طالما أنه ليس من حقهم العمل فى الكوادر السياسية.

ويُعد المشروع السوفياتى فى أفغانستان أوضح مثال على هذه الريبة وعدم الثقة. فالمعروف أن وحدات الجيش السوفياتى التى قامت بغزو أفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩، كانت تضم نسبة هامة نسبياً (تصل إلى ٤٠٪) من الجنود المسلمين الذين ينتمون إلى آسيا الوسطى، فى حين كان الضباط من الروس أو غيرهم من السلافيين. وكانت هذه هى المرة الأولى، منذ ثورة عام ١٩١٧، التى تولد فيها لدى المسلمين السوفيات الانطباع بأنهم يعاونون «شقيقهم الروسى الأكبر» فى بناء الشيوعية بأحد البلدان الإسلامية الأجنبية. فهل يقدر أخيراً لحلم سلطان غالييف والشيوعيين المسلمين خلال العشرينات من هذا القرن أن يرى طريقه إلى النور؟ لا ندرى على وجه اليقين كيف استقبلت الصفوة الإسلامية فى آسيا الوسطى المأساة الأفغانية. إلا أنه يمكننا افتراض أن البعض قد نظر إلى هذه المغامرة بعين الرضا. إذ تصور البعض أنهم سوف يحررون أشقاءهم الأوزبكستانيين والطاجيكستانيين من نير «الإقطاعيين المحليين» والامبرياليين الأمريكيين أو الصينيين؛ فى حين اعتقد البعض الآخر أن العون الذى قدموه إلى الروس فى أفغانستان يمكن أن يكفل لهم وضعاً تجارياً أفضل فى مواجهة موسكو؛ وأخيراً فإن البعض كان يأمل فى تحويل أفغانستان إلى جمهورية اشتراكية سوفياتية سادسة، وهو ما كان من شأنه أن يضيف قرابة ١٥ مليون من المسلمين الجدد إلى العدد الذى يضمه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بالفعل والبالغ ٤٥ أو ٥٠ مليوناً. وعلى ذلك فإنه كان يمكن للمسلمين أن يشكلوا تكتلاً يتراوح قوامه بين ٦٠ إلى ٦٥ مليوناً فى مواجهة ١٣٧ مليوناً من الروس...

وفى المقابل، فإنه من الصعوبة بمكان إدراك الأسباب التى دعت القادة السوفيات إلى استغلال مسلميهم فى أفغانستان على هذا النحو السافر. أهو الجهل «بوضع» مسلميهم بل

وحتى مشاعرهم الحقيقية؟ أم هي مجرد الحاجة إلى فنيين ومترجمين على دراية باللغات المحلية؟ أم لعلها الرغبة في إضفاء صبغة إسلامية مشتركة على العملية الأفغانية؟ أم يكون السعى إلى إظهار التضامن الذي يعكسه تلاحم الشعوب السوفياتية جمعاء في مواجهة أى خطر خارجي، أمام العالم الخارجي - الإسلامي والغربي على حد سواء؟ أياً كانت الأسباب، فإنه لا يبدو أن الوحدات السوفياتية التي ضمت نسبة كبيرة من الجنود المسلمين كانت مخصصة لمحاربة المجاهدين الأفغان. إلا أنه عندما اقتضى الأمر إشراك هذه الوحدات في العمليات القمعية، أظهرت عدم فعاليتها على نحو لا يمكن معه التعويل عليها. فالمساعدة في تحرير الأشقاء الأوزبكستانيين أو الطاجيكستانيين من الامبريالية الصينية أو الإسرائيلية أو الأمريكية شئ، أما إطلاق النار على هؤلاء الأشقاء أنفسهم أو، وهو الأسوأ، معاونة الروس على إعدامهم بالرصاص، فشئ آخر لا يمكن لهم قبوله.

وعلى ذلك، فقد اختفى الجنود الذين كانت أصولهم تمتد إلى آسيا الوسطى بشكل يكاد يكون تاماً من أفغانستان في منتصف فبراير ١٩٨٠، حيث تم استبدالهم بوحدات تتألف من الروس وغيرهم من «الأوروبيين» وحدهم. وفي الوقت ذاته، جرى سحب المستشارين الفنيين القلائل الذين ينتسبون إلى آسيا الوسطى من الإدارة الأفغانية، حيث أخلوا مواقعهم للروس. فماذا حدث إذن في غضون تلك الأسابيع الستة؟ لن يقدر لنا أن نعلم ذلك على وجه اليقين، غير أنه يبدو أنه ثمة اتصالات قد جرت بين الأفغان والتركستانيين السوفيات، وهي الاتصالات التي عجز الروس عن فرض رقابتهم عليها نظراً لجهلهم باللغات المحلية. فقد كانت هناك حالات، لها مدلولاتها رغم قلة عددها، شهدت انتقال بعض الجنود المسلمين السوفيات إلى صفوف المجاهدين؛ بل وربما نشأت لدى بعض المسلمين السوفيات كذلك صحوة في الشعور بتضامن ديني، أكثر منه عرقي، مع الأفغان المناضلين ضد الغزاة «الكفرة». وعلى أية حال، فإن العملية الجادة الوحيدة التي استوجبت استغلال المسلمين السوفيات في أحد البلدان الإسلامية الأجنبية، والتي كان من شأنها أن تحظى بموافقة سلطان غالييف، سرعان ما انتهت بفشل ذريع. وثمة نتيجة طبيعية يستتبعها استبعاد المسلمين من الغزو الأيديولوجي أو العسكري لآسيا وأفريقيا. إذ لا يزال النموذج الماركسي - اللينيني الروسي بالنسبة لسادة الكرملين، اليوم كما كان منذ نصف قرن مضى، هو النموذج الفريد للشيوعية على وجه القطع. أما التسويات الأيديولوجية، والتحالفات مع رفاق الطريق القوميين، فلا يمكن إلا أن تكون تكتيكية ووقتية.

غير أن أفكار سلطان غالييف قد تغلغلت، رغم إرادة القادة السوفيات في الاحتفاظ للروس باحتكار الثورة، إلى عالم المستعمرات في حياته، ولا تزال تواصل انتشارها فيه إلى يومنا هذا عبر قنوات شتى. فقد كانت موسكو سوقاً حقيقية للثورة بالنسبة لجميع الثوار في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، من كافة الأجناس والاتجاهات السياسية، حتى في حياة سلطان غالييف. ومنذ بداية العشرينات من هذا القرن، قدمت موسكو إلى هؤلاء الراديكاليين الشباب في عالم المستعمرات رؤية لن يقدر لها استعادتها من جديد، حيث لعب التشدد المذهبي دوراً أقل أهمية من الحماس والتصور الثوري، فضلاً عن كونها ملتقى لتجمع المسلمين في روسيا جنباً إلى جنب مع إخوانهم في الدين القادمين من الخارج حيث يتبادلون أكثر النظريات هرطقة في حرية تامة. وكان مركز هذه الثورة الثقافية هو جامعة عمال الشرق الشيوعية الشهيرة التي افتتحت في سبتمبر ١٩٢٠ وأصبحت منبراً بارزاً للكوادر الثورية من جميع أنحاء عالم المستعمرات حتى عام ١٩٢٤. وقد جرى تطهير هيئة التدريس بها للمرة الأولى، وتكرر ذلك عام ١٩٢٧، ثم مرة أخرى عام ١٩٣٠، عندما أصبحت الهرطقة لا تلقى قبولا لدى قادة الكرملين كما كانت من قبل. ومن بين الأساتذة الدائمين بها نذكر جميع زعماء الشيوعية الوطنية الإسلامية تقريباً، وضحايا ستالين في المستقبل، وعلى رأسهم سلطان غالييف.

كما نجد ضمن الثوريين الأجانب الذين قاموا بالتدريس في جامعة KuTva الهندي مويندرا - ناث روى، والهولندي سنيفلييت، والإيراني سلطان زاد. وقد تبني أول اثنين منهم فرضيات قريبة من دعاوى سلطان غالييف حول الدور الرئيسي الذي تلعبه الثورة في الشرق، وذلك خلال المؤتمر الثاني الذي عقدته الأمانة الشيوعية في موسكو في ربيع عام ١٩٢٠. وأخيراً فإننا نجد بين الطلاب الذين تعاقبوا على جامعة KuTva معظم أولئك الذين صاروا فيما بعد قادة الحركة الشيوعية في المستعمرات. كما أصبح عدد من هؤلاء الأساتذة والطلبة «ملحدين» في وقت لاحق. وتعكس نظرياتهم بوضوح تأثير الدراسة المستقلة التي تلقوها في هذه الجامعة. ومثال ذلك تان ملكة، أو حتى مويندرا - ناث روى ذاته. أما الأول، وهو أحد المجاهدين القدامى في الحزب القومي سارية الإسلام، فقد درس في جامعة KuTva عام ١٩٢٢ وأدرك، مثل سلطان غالييف، الضرورة الملحة لتحقيق التحالف بين الإسلام والقومية والماركسية. ومن ثم فقد أعلن، في المؤتمر الثالث الذي عقدته الأمانة الشيوعية في موسكو عام ١٩٢١، أنه «كان للروح العدائية تجاه الإسلام والجامعة الإسلامية، والتي ظهرت بوضوح في المؤتمر الثاني الذي

عقدته الأهمية الشيوعية في العام الماضي، نتائجها المدمرة على انتشار الشيوعية في إندونيسيا». وفي عام ١٩٢٣، اختير تان ملكة رئيساً للحزب الشيوعي الإندونيسي P.K.I. (Partai Komunis Indonesia)، إلا أن السلطات الهولندية قامت بنفيه في ذلك العام ذاته، حيث ظل حتى عام ١٩٢٧ يشغل منصب المسؤول الرسمي الأول في الأهمية الشيوعية لعموم جنوب شرقى آسيا. غير أنه انشق على ستالين خلال المؤتمر السادس للأهمية الشيوعية، حيث اتهمه بالسعى إلى حمل الحزب الشيوعي الإندونيسي على انتهاج سياسة انتحارية مضادة للإسلام في بلد تضرب فيه جذور الإسلام بعمق مثل إندونيسيا. وقد أسس تان ملكة، الذى تم إقصاؤه من الحزب الشيوعي الإندونيسي بعد توجيه تهمة «التحول عن سياسة الحزب» و «التروتسكية» (*) إليه، حزباً شيوعياً خاصاً يقع مقره العام في بانكوك. سعى هذا الحزب الجديد إلى التوفيق بين الماركسية والقومية الآسيوية الجامعة، وسرعان ما أصبح هو المنافس الأقوى نفوذاً للحزب الشيوعي الإندونيسي، الذى ظل من جانبه يمثل دون قيد أو شرط لتوجيهات موسكو، حتى أقلها نزوعاً إلى الواقعية. وكان تان ملكة قد اعتنق، منذ بدء الأعمال الحربية، اتجاهاً موالياً لليابان. ثم عاد إلى إندونيسيا عام ١٩٤٢، حيث تعاون مع قوات الاحتلال اليابانية، وأصبح من جديد أحد الشخصيات البارزة في اليسار الإندونيسي عام ١٩٤٥. وكانت أفكاره في ذلك الوقت تجسداً لمزيج من الأفكار «المؤيدة تماماً للحركة الغالييفية»، يجمع بين الماركسية والإسلام والقومية. كما قام تان ملكة، بعد الزج به في السجن عام ١٩٤٦، بإنشاء حزب ثورى جديد أطلق عليه اسم Murba (البروليتاريا)، وبدأ حرب العصابات. إلا أنه ألقى القبض عليه حيث جرى إعدامه في ١٦ أبريل ١٩٤٩. أما مويندرا - ناث روى، ذلك الثورى الهنـدى من البنجال وعضو اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٨، فقد سارت حياته في خط موازٍ. إذ اشتبك، مثل تان ملكة، في صراع مع ستالين إبان انعقاد المؤتمر السادس، حيث جرى إبعاده من الأهمية الشيوعية عام ١٩٤٩. وكان قد قام، بعد وصوله إلى الهند عام ١٩٣١، بتأسيس الحزب الراديكالى الديمقراطى الذى يتبنى اتجاهاً موالياً لليابان عام ١٩٤٠.

هذا ويُعتبر خوزيه كارلوس مارياتيـجى تجسداً واضحاً للصلة الغربية بين نظريات سلطان غالييف والحركات الثورية فى العالم الثالث. فقد وُلد مارياتيـجى فى بيرو عام ١٨٨٤، وأصبح

(*) تروتسكى (نصير أفكار تروتسكى والأهمية الرابعة) (المترجمة).

من أوائل الذين بادروا إلى اعتناق الماركسية من أبناء أمريكا اللاتينية، كما عاش في أوروبا منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٣، حيث أبدى اهتماماً بالغاً بانتشار الشيوعية في كل من تركيا والصين. وكان قد تابع المناقشات التي جرت في مؤتمر باكو بصفة خاصة. وبعد عودته إلى بيرو عام ١ٹ٢٣، كرس جهده لوضع مذهب ثوري يتواءم مع ظروف أمريكا اللاتينية، أو «الشيوعية على طريقة بيرو»، حيث نجد أوجهاً واضحة للشبه مع أفكار سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين المسلمين. فكما اعتقد سلطان غالييف أن أصول «نظريته في الشيوعية الثورانية» إنما تكمن في تقاليد امبراطورية جنكيز خان المنغولية، استشهد مارياتيجي بنموذج امبراطورية أنكا، حيث رأى فيها «النموذج الأمثل للشيوعية البدائية»، و«أحد التنظيمات الجماعية(*) والاشتراكية المثالية». وكان يسعى بذلك إلى الكشف في الماضي التقليدي لأبناء بيرو عن الجذور الحية أبدأ للاشتراكية «الطبيعية». فقد رفض مارياتيجي، مثله في ذلك مثل سلطان غالييف والشيوعيين الصينيين فيما بعد، تطبيق وصفات الماركسية الأوروبية على أمريكا اللاتينية بطريقة آلية. «إن نظريتنا في الاشتراكية، إن لم تتلاءم مع ظروفنا الوطنية، لن تمت إلى بيرو ولا حتى إلى الاشتراكية بصلة». كما أعلن، على غرار الشيوعيين التتر والكازاخستانيين، أنه يمكن للهنود في أمريكا الجنوبية أن يصبحوا شيوعيين على نحو أفضل من الأوروبيين. وفي ذلك يقول: «إذا ما قام الهندي بوضع نظريته الخاصة في الاشتراكية، فإنه سوف يكرس نفسه لهذه القضية، متحلياً بروح النظام والإصرار والعزيمة، وهي صفات قلما يمكن أن تتحقق لغيره من الشعوب البروليتارية».

غير أنه انتشرت في أنحاء العالم الثالث، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ونظريات تدفع بأنه يمكن لثورة المستعمرات أن تحقق انتصاراً في المجتمعات غير الصناعية، دون معارضة أو سيطرة من جانب الروس. وهذه النظريات جميعها تستعيد أفكار سلطان غالييف بدرجة أو بأخرى، إلا أنه لا يمكن الجزم بوجود ارتباط مباشر بين الاثنين. ورغم ذلك، فإن البعض منها، لا سيما في شمال أفريقيا، يستند صراحة إلى ذلك التترى التنظيري.

وكان الشيوعيون الصينيون، وعلى رأسهم ماوتسي تونج ذاته، هم أكثر المروجين لأفكار سلطان غالييف حول التعارض بين المدينة، التي تخضع لسيطرة الامبرياليين، من جهة، وبين الريف الثوري من جهة أخرى. ففي عام ١٩٦٥، أعاد لين بياو النظرية التي وضعها سلطان

(*) جماعية (مبدأ اشتراكي قائل بسيطرة الدولة أو الشعب على جميع وسائل الإنتاج والنشاطات الاقتصادية)
(الترجمة)

غالييف عام ١٩٢٠ بصورة تكاد تكون حرفية:

«إن الثورة العالمية تمثل فى عصرنا الحالى صورة دائرة من المدن يحيط بها الريف من كل جانب. وفى التحليل الأخير، فإن الثورة العالمية بأكملها تتوقف على الكفاح الثورى لشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى تمثل الأغلبية الساحقة لسكان العالم. وإذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى عالمنا فى مجموعته، فإنه يمكننا أن نطلق على أمريكا الشمالية وأوروبا الوسطى اسم «المدن العالمية»، فى حين تشكل آسيا وأفريقيا وأمريكا «الريف العالمى». (فليحيى انتصار النضال الشعبى»، كتابات ماوتسى تونج ولين بياو فى فترة ما بعد الثورة، نيويورك، ١٩٧٢، ص ٣٩٦).

هذا وقد حرص لين بياو على تصنيف اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ضمن «المدن العالمية» حيث ستكتسح الشعوب الثورية فى تيارها الهادر سادتها، «الامبرياليين (الروس)، والرجعيين والمراجعين (*) الخروتشيفيين (. . .) لتلقى بهم فى سلة مهملات التاريخ». كما حذا بنج تشين، أحد الزعماء الصينيين، حذو سلطان غالييف عندما أعلن فى عام ١٩٦٥ أن «مسؤولية الثورة العالمية قد انتقلت من الحركات العمالية فى بلدان الغرب الصناعية إلى حركات التحرر الوطنى فى بلدان العالم الثالث المتخلفة». إلا أنه من المتعذر القول بما إذا كان الصينيون قد تأثروا تأثراً مباشراً بكتابات سلطان غالييف، أم أن الأمر لا يتعلق سوى باتجاهين مستقلين وإن كانا يسيران فى خط متوازٍ.

غير أنه يمكن توضيح الارتباط بين سلطان غالييف وبعض واضعى نظريات الثورة الجزائرية على نحو محدد. ففي عام ١٩٥٤، أتيحت الفرصة لبن بيللا، زعيم حركة التحرر الوطنى الجزائرى، بعد أن اختطفه الفرنسيون وسجنوه، للتعرف على كتابات سلطان غالييف خلال فترة الأسر. وبعد أن أصبح بن بيللا رئيساً للجمهورية الجزائرية، كان يقتبس منه مراراً وتكراراً، لا سيما فى موضوع «الأمية الاستعمارية». فقد صرح فى حديث صحفى له مع مجلة نيوزويك (١٣ يناير ١٩٦٤، ص ٢٨) بأنه «قد تأثر بشدة بأفكار سلطان غالييف». وعلى ذلك فإن بن بيللا كان بمثابة مكبر للصوت ينقل الأصداء البعيدة لمذهب سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين المسلمين السوفيات، وهو المذهب الذى حمل لواءه من بعده منافسه وخلفه هوارى بومدين، والعقيد معمر القذافى على وجه الخصوص، فيما وضعاه من نظريات حول

(*) مراجعة (نزعة تدعو إلى إعادة النظر فى أسس نظرية أو دستور) (المترجمة).

التعارض بين الشمال الصناعى الجائر من جهة، والجنوب الزراعى المظلوم من جهة أخرى. وكما فعل سلطان غالييف، فإن معمر القذافى يحرص على إدراج اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بين بلدان الشمال الامبريالية.

ورغم التسليم بالماركسية، أو بالأحرى بعض مسلماتها، باعتبارها من العناصر ذات الأهمية النسبية فى أيديولوجية تحرر العالم الثالث، إلا أن هذه الماركسية لا تشترك مع الماركسية الأرثوذكسية سوى فى نقاط قليلة، كما هو الحال بالنسبة للماركسية اللينينية الروسية. كما أن المسألة لا تتعلق إطلاقاً بنوع من الماركسية الموازية. بل لا يعدو الأمر فى الواقع أن بعض عناصر النظريات القومية شديدة التباين قد غُلّفت برداء الماركسية. وهذا هو ما أطلق عليه مكسيم رودنسون (الماركسية والعالم الإسلامى، باريس، ١٩٧٢، ص ٣٨٧) اسم «القومية المتمركسة»، تعبيراً عن هذه النظريات التى تتضمن عناصر تحاكي محاكاة دقيقة بدرجة أو بأخرى أفكار الشيوعيين المسلمين السوفيات فى العشرينات من هذا القرن. غير أنه ثمة رفض مطلق فى أنحاء العالم الثالث، باستثناء البلدان الخاضعة مباشرة لسيطرة الجيش السوفياتى أو أجهزة المخابرات السوفياتية بطبيعة الحال، مثل أفغانستان وأثيوبيا واليمن الجنوبية، لفكرة أن تكون قيادة ثورة المستعمرات من نصيب الروس.

وخلافاً لحقبة العشرينات، فإن الماركسية لم تعد هى البلمس السحري الكفيل بتحقيق السعادة والتحرر للعالم الثالث، بل ولا حتى أكثر هذه الحلول فاعلية. كما أن الضعف الاقتصادى الذى يحاول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، موطن الاشتراكية، التخلص منه منذ نصف قرن، ليس بالأمر المستغرب فيه. وعلى ذلك فإن الحركات الثورية أو الإصلاحية داخل العالم الإسلامى فى آسيا أو أفريقيا أصبحت تتجه إلى الإسلام على نحو متزايد، فى محاولة منها للكشف فيه عن صفات سياسية توافق ظروفها بصورة أفضل من الماركسية. والمحاولة لا تزال مستمرة للتوفيق بين الماركسية والإسلام، ليس عن طريق «مركسة الإسلام» على نحو ما أراد سلطان غالييف ورفاقه، وإنما بالأحرى من خلال «أسلمة الماركسية». وهذه النظريات «الماركسية - الإسلامية»، ذلك التراث الممتد لمذهب سلطان غالييف، تعاود الظهور اليوم فى الاتحاد السوفياتى، لتفتح بذلك فصلاً جديداً على نحو غير متوقع فى العلاقات بين الإسلام السوفياتى والعالم الإسلامى الخارجى.

وحتى يتسنى لنا فهم أفضل لهذه العودة غير المألوفة إلى الوراء، علينا أن نتذكر أن

الاستقرار والنزعة المحافظة اللذين كانا السمة المميزة للشرق الأوسط منذ القرن التاسع عشر، لم يقدموا شيئاً للإسلام الروسى فيما يتعلق بالنماذج السياسية. كما ينطبق نفس الشيء على الامبراطورية العثمانية فى القرن التاسع عشر، والحكومة الملكية البهلوية بعد عام ١٩٢٥. وفى المقابل، فإن حالة عدم الاستقرار والغليان الثورى التى سادت الشرق الأوسط، إبان الثورة التركية الناهضة أو الحركة الدستورية الإيرانية عام ١٩٠٨، على سبيل المثال، بدت مصدراً غنياً للإلهام بالراديكالية، أو نموذجاً من شأنه أن يقدم للمسلمين فى روسيا أمثلة للعمل. وقد اجتاحت القلاقل الشرق الأوسط من جديد فى عصرنا الحالى، حيث تهزه بعنف حركات ثورية ذات عواقب لا يمكن التكهن بها. فهل سيقدر لنا أن نشهد «عودة إلى الوراء» لتلك الأحداث التى شهدتها دار الإسلام إلى الإسلام السوفياتى بما يترتب على ذلك، كنتيجة نهائية، من فقدان ذلك الأخير لدعائم الاستقرار؟ لا شيء مستحيل، منذ التدخل السوفياتى فى أفغانستان، ومنذ ظهور أشرطة الكاسيت التى أصبحت بعد استخدامها من قبل الخومينى من أكثر وسائل الدعاية فعالية، حيث كان من آثارها الثانوية غير المتوقعة إزاحة الستار الحديدى الفاصل بين آسيا الوسطى وسائر العالم الإسلامى. ومن ثم فإن الأفراد، والمعلومات التى تفلت من الرقابة بكافة أنواعها، والأفكار التخريبية بدرجة أو بأخرى، كل ذلك يمكن أن يعاود انتشاره من جديد.

وقبل محاولة الإجابة على هذا السؤال، ينبغى الإشارة إلى أنه إذا كان العالم الإسلامى يجهل كقاعدة عامة كل ما يدور فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فإن المثقفين المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز من جانبهم يتابعون عن كثب بقدر الإمكان ما يجرى من تطورات فى الشرق الأوسط. ويمكن إدراك النفوذ المحتمل لهذا الجزء من العالم على الإسلام السوفياتى بأساليب مختلفة:

(١) إذا ما قدر للمقاومة الأفغانية المسلحة الاستمرار، وهو أمر محتمل إلى حد كبير، فإن الدرس المستفاد بالنسبة للإسلام السوفياتى يتمثل فيما يلى:

* إثبات أن الحركات الأصولية الإسلامية يمكن أن تكون أفضل تنظيماً وأكثر فعالية من الحزبين الشيوعيين الأفغانيين، اللذين لم يكن ليقدر لهما البقاء دون وجود جيش سوفياتى، وبعبارة أخرى، أن الإسلام أكثر فتوة وأشد قدرة على التعبئة من الماركسية الهرمة المتداعية.

* أنها تجسيد لنموذج بطولى من نماذج المقاومة الكفيلة بإحياء الذكريات التى لا يمكن أن تنمحي تماماً من الذاكرة حول البسماتشين فى آسيا الوسطى وشامل فى القوقاز. فهذه المقاومة من شأنها، حتى إذا ما منيت بالهزيمة، أن تضطلع بدور شبيد بالدور الذى لعبته مقاومة أبناء المناطق الجبلية فى القوقاز فى إحياء الحركات القومية فى قلب الامبراطورية القيصرية فى القرن التاسع عشر. وإذا ما قُدر لها البقاء، فإنها سوف تمثل فى نظر المسلمين السوفيات الدليل القاطع على أن «الشقيق الأكبر» يمكن قهره.

* أن المقاومة الأفغانية الممتدة يمكن أن تثير لدى الإنتلجنسيا المسلمة السوفياتية شعوراً بالتضامن الدينى والعرقى مع «أبناء العمومة» الأفغان الذين يتعرضون للقتل على يد «الشقيق الأكبر» الروسى. وكنتيجة لذلك، فإنه يمكن توقع عودة أيديولوجيات الجامعة الإسلامية والجامعة التركية إلى الظهور من جديد بعد غفوتها، وإن لم تتلاش تماماً. وهكذا فإنه من قبيل التناقضات الغريبة، طالما أن الحركة الغالييفية قد أصبحت، فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، مرادفاً للجامعة التركية والجامعة الإسلامية، أن يبدو سلطان غالييف بعد وفاته رمزا للمقاومة الإسلامية هناك.

(٢) أن تأثير الثورة الإسلامية الإيرانية أكثر تنوعاً، وإن كان يتسم بنفس القدر من الخطورة.

* أن الثورة الإسلامية قد برهنت، من وجهة نظر المسلمين، على أن المؤسسات الدينية التقليدية يمكنها أن تكتسب فعالية ثورية كان البعض ينكرها عليها من قبل، وأن تصبح قوى سياسية أفضل تنظيماً، وأكثر نزوعاً إلى التطرف الراديكالى، بل وأشد قدرة على التعبئة من الحزب الشيوعى.

٥١.و. أن الدعوة «المناهضة للامبريالية» التى أطلقتها الثورة الإسلامية والتى وجهت، فى إيران، الإهانة للامبريالية الأمريكية، اعتُبرت تحريضاً على محاربة الوجه الآخر للامبريالية، أى الامبريالية السوفياتية، فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

٥١.و. أن تمجيد القيم الثقافية والسياسية للإسلام التى تمتدح الشعور الفطرى بالعظمة والتفوق لدى الأتراك السوفيات والقوقازيين يجعل تقاربهم مع «الشقيق الأكبر» أمراً مشكوكاً فيه أكثر من أى وقت مضى كما يبرر، من وجهة نظرهم، البحث عن «طريق إسلامى» نحو اشتراكية لا يتبقى فيها من الماركسية - اللينينية الروسية سوى الشكل الخارجى.

٥١ و. وأخيراً، فإنه يمكن اعتبار الدعوة الشعبية للحركة الخومينية بمثابة دعوة إلى استبدال التنظيم الهرم للحزب الشيوعي، أى الأرستقراطية الوظيفية، بجيل جديد من الكوادر غير الشيوعية الشابة ذات يوم.

(٣) من المشكوك فيه إمكانية أن يكون للدول العربية المحافظة تأثير من أى نوع على بقاء الإسلام السوفيياتى. وفى المقابل، فإن تزايد الصلات مع العرب الثوريين - سواء كانوا سوريين، أم لبنانيين، أم جزائريين، أم فلسطينيين - الذين يزعمون جميعاً إقامة صرح «اشتراكية إسلامية» تجمع عناصر من الماركسية والإسلام، وإن كان الإسلام يمثل الجانب الرئيسى فيها، من شأنه أن ييسر عودة النظريات والأفكار القريبة من تلك التى اعتنقها الشيوعيون المسلمون فى العشرينات من هذا القرن. ولا زالت لهذه النظريات القدرة على إثارة الثورة الكفيلة ببث الحماس فى الجموع، لا سيما إذا ما قورنت بالنموذج الروسى للاشتراكية البيروقراطية التى تفتقر إلى الفعالية.

(٤) وأخيراً ظهور تأثير الصين، التى شهدت تحولاً كبيراً فى سياستها الإسلامية، والتى تبدو اليوم من وجهة نظر المسلمين السوفييات القوة الشيوعية الوحيدة التى استطاعت، مع احتفاظها بالولاء للماركسية، بالشعارات على الأقل، التخلّى عن الإلحاد المتشدد، وتشجيع الانطلاقة الدينية فى سنكيانج، بل والأكثر من ذلك العمل باستمرار على فضح الطابع الامبريالى و «الغريب» للاستعمارية السوفيياتية، وتمجيد تضامن الجامعة الآسيوية. وثمة تشابه كبير إلى حد يدعو للدهشة بين الدعاية الصينية الموجهة إلى آسيا الوسطى من جهة، وبين فرضيات سلطان غالييف حول «الأممية الاستعمارية» وتأثر المتهورين من الطغاة من جهة أخرى.

كما تجدر الإشارة كذلك إلى أنه بعد عجز الستار الحديدي عن حماية الجمهوريات الإسلامية من العدوى الخارجية (بل إن أجهزة المخابرات السوفيياتية ذاتها لا يمكنها وقف انتشار أشربة الكاسيت. . .)، لم يعد لدى الصفوة المسلمة السوفيياتية، التى خضعت على مدى نصف قرن لتأثير الماركسية الروسية المتحجر، ما تقدمه للمسلمين الأجانب فيما يتعلق بالفكر السياسى. بل إنهم، على العكس من ذلك، يبحثون فى الخارج عن مصدر للإلهام السياسى. ولا يزال الإسلام السوفيياتى حتى وقتنا هذا تجسيدا للخواء الأيديولوجى الذى يمكنه استقبال كافة الآراء والبرامج السياسية، من التحفظ الدينى فى أكثر صورته نزوعاً إلى

التقليدية وحتى الراديكالية بأشد أشكالها ثورية، واستيعابها فى نهاية الأمر. وعلى ذلك، فإن هذه الراديكالية الأخيرة ليست فى كثير من الأحيان سوى الصيغة الجديدة للنظريات التى وضعها المسلمون السوفيات أنفسهم منذ ما يربو على ستين عاماً.

فما هو المفهوم السائد حول فكر سلطان غالييف فى عصرنا الحالى؟ سؤال صعب ولا شك، إذ لم يتسع وقت ذلك الثورى التترى لعرض ذلك الفكر بوضوح. وهو يبدو اليوم تراثاً خصباً شديد التنوع، وإن كان يغلب عليه اللبس والتناقض إلى حد كبير. ومن ثم فإن بعض نظرياته التى أصبحت لا تتفق مع حقائق العصر قد توارت تماماً فى حيز النسيان، فى حين اتخذ بعضها الآخر شكلاً جديداً، ولا يزال البعض منها يحتفظ بحيويته وجاذبيته فى صورته الأصلية. وقد لقي هذا التراث استقبلاً مختلفاً من جانب المسلمين الأجانب من ناحية، والمسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من ناحية أخرى.

ففى دار الإسلام كانت نظريات سلطان غالييف، بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون الإسلام الأصولى كأساس وحيد لمجتمعهم ويعتقدون، رغم تناقص عددهم يوماً بعد الآخر، أن الاشتراكية الاستبدادية قادرة، خلال جيل واحد، على تمكين شعوبها من تعويض تأخرها على الغرب، تبشر بإمكانية تحقيق الثورة المضادة للامبريالية وبناء الاشتراكية دونما حاجة إلى الروس، أى إمكانية «تطبيع» الشيوعية. وهكذا كان سلطان غالييف تجسيداً لصورة بطل العالم الثالث، أو ذلك الحر المستقل الذى يحارب على جبهتين فى آن واحد، ضد الامبريالية الغربية من جهة والامبريالية السوفياتية من جهة أخرى، أو البشير الفذ للخومينى و«الإخوان المسلمين». وبقدر القناعة التى ارتسمت على صورة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى العالم الإسلامى، والوجه القبيح الذى سرعان ما اكتسبه الروس بجدارة فأصبحوا أسوأ من الأوربيين أو الأمريكيين، بقدر ما تعاظمت هيبة سلطان غالييف ونفوذه.

فقد اكتسبت صورة سلطان غالييف فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية أبعاداً أسطورية تماماً، إذ فقدت شكلها الماركسى ولم يتبق منها سوى الجانب القومى والإسلامى. بل إن هذه النظريات قد اكتسبت، مع تعرضها المستمر للهجمات متزايدة الشراسة من جانب إدارة التحريض والدعاية، إغراء الشجرة المحرمة، على النحو الذى جعل منه هو ذاته نموذجاً للمسلم المنشق الذى تناسى الجميع مذهبه ولم يعد أحد يذكر إلا معارضته لستالين. غير أنه إذا ما حكمنا عليه على ضوء موضوعات الدعاية السوفياتية المناوئة للتيارات القومية الحالية فى

الجمهوريات الإسلامية، لوجدنا أن سلطان غاليف لا يصلح هو أو رفاقه الشيوعيون القوميون مرجعاً أو نموذجاً يُحتذى من جانب أولئك الذين يسعون من المثقفين المسلمين الشبان إلى التحرر من سلطة المذهب الرسمي، وإنما هم بالأحرى أولئك المحافظون المتشددون، «المتعصبون»، الذين نبذوا دون تردد، بدءاً من شامل وانتهاءً بالبسماتشين، مروراً بأذن حاج وأتباعه من مناضلي الجهاد القوقازي عام ١٩٢٠-١٩٢١، أى تفكير فى التورط مع الروس والشيوعيين.

وهكذا أصبح سلطان غاليف، فى نظر العديد من المثقفين المسلمين، لا سيما أولئك الذين استطاعوا الوقوف على نظرياته الحقيقية، رمزاً للنصير الأمثل للجامعة التركية، ولوحدة العالم التركى والإسلامى السوفياتى التى تأبى «الانقسام» إلى قوميات صغيرة على نحو يعرضها للاستيعاب. وأخيراً، فإنه ثمة جانب ثالث فى مذهبه يجتذب الجيل الصاعد من المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لا سيما أولئك الذين يرغبون الحفاظ على تكامل النظام السوفياتى بدرجة أو بأخرى، لأنهم لا يعرفون غيره. فقد كان سلطان غاليف من وجهة نظرهم جميعاً أول من بادر إلى البحث فى الماضى التركى - المنغولى والإسلامى عن الجذور البعيدة للشيوعية التى يعتنقونها، ومحاولة إيجاد نوع من التعايش بين تيمور ولينين، ولكن مع إخضاع الأخير للأول. إلا أن الجزء المحورى فى مذهبه، وهو محاولة خلق اتحاد وثيق بين الماركسية والإسلام، لم يعد يغرى المثقفين فى الجمهوريات الشرقية داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. أو لعلهم «رجال سوفيات»، وشيوعيون مؤمنون، مُروَّسون تماماً بدرجة أو بأخرى ومن ثم فإنه لم يكن بوسعهم سوى أن يجعلوا من الإسلام، أو أن يتجهوا إلى الإسلام بعد نفورهم من الماركسية على الطريقة الروسية، ديناً، وتراثاً تاريخياً، وثقافة وغطاً للحياة، مما يجعل اتحادهم مع الماركسية تشويهاً لذلك التراث الجليل الذى ورثوه عن أسلافهم البواسل.

تذیل

تذييل

يحظى سلطان غالييف، الذى لم يكن معروفاً فى الاتحاد السوفياتى بدرجة كبيرة فى حياته خارج نطاق رفاقه المسلمين ومجموعة من معاونين المقربين لستالين فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى حين كان مجهولاً تماماً خارج حدود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، بشهرة لا تضارى فى عصرنا الحالى. فقد تناول العديد من زعماء الدول الإسلامية، ومن بينهم بن بيللا وهوارى بومدين، نظرياته بشأن العالم الثالث، بل إن الكاتب الجزائرى المعروف حبيب تنغور قد خصص له مؤخراً رواية بعنوان (سلطان غالييف). غير أن سلطان غالييف لا يزال بالفعل «مجهولاً فى ذاكرة التاريخ»، والشواهد مؤكدة على أنه سيظل كذلك لعدة أعوام قادمة. وواقع الأمر أن الشهرة التى حظى بها بعد وفاته لم تسهم إلا فى إلقاء مزيد من الظل على شخصيته الحقيقية وجعلها أكثر غموضاً. ومن ثم فقد أصبح سلطان غالييف أسطورة، وكما يحدث كثيراً فى مثل هذه الحالة، فإن صورته الأسطورية لا الحقيقية هى التى تمثل رمزاً للتطلعات الأكثر تبايناً، بل والبعيدة تماماً عن أفكاره الأصلية فى كثير من الأحيان. وعلى ذلك فإن سلطان غالييف، على نحو ما جرت به الأسطورة، هو أول ثائر يهب لمواجهة الامبرياليين جميعاً، بما فى ذلك الامبريالية الروسية - السوفياتية بصفة جوهرية، وهو الرائد الذى وجد فيه الفلسطينيون والمجاهدون الأفغان والعقيد القذافى أنفسهم، كما أنه ذلك المفكر الذى أتاحت نظرياته «العقلانية»، وهى ليست بشيوعية ولا رأسمالية، للشعوب المقهورة فى عالم المستعمرات التحرر بوسائلها الخاصة ودون مساعدة أى من القوى الأجنبية، وهو كذلك رائد جميع القوى «غير المنحازة» فى الماضى والحاضر.

ويفضل البعض فى الوقت الراهن تجاهل أفكاره المضطربة والمضطربة فى آن واحد حول انتزاع الجوانب الروحية من الإسلام، وإمكانية التعايش بين الماركسية والدين الإسلامى. إلا أن هذا الرجل الذى كان ملحداً على الأرجح قد أصبح، فى تطور مثير للدهشة، نموذجاً لتصير الإسلام المدافع عنه فى مواجهة المادية المناهضة للدين والمستوردة من الخارج. ولكن هل ثمة تناقض حقيقى فى ذلك؟ إن سلطان غالييف لم يبادر إطلاقاً - حتى إبان فترة اعتناقه للماركسية - إلى الجهر بالإعلان عن ارتداده، أو رغبته فى الخروج من زمرة المؤمنين. بل إنه كان طوال حياته وظل، بعد وفاته بخمسين عاماً، فرداً من أفراد الأمة فى الواقع.

غير أن سيرة حياته قد طواها النسيان حالياً، في الاتحاد السوفياتي كما في سائر العالم الإسلامي، ولا زالت كلماته التي كتبها ذات يوم عام ١٩١٧ تتردد أصداؤها: «أتيت إلى البلشفية مدفوعاً بحب جارف يخفق به قلبي تجاه شعبي».

تحليل نقدي للمصادر

تحليل نقدي للمصادر

أولاً: كتابات سلطان غالييف:

كان مير سيد سلطان غالييف في المقام الأول رجلاً يفيض بالنشاط، ومسؤولاً تنظيمياً يتمتع بموهبة فريدة وطاقة لا تنضب - أو هو ما نطلق عليه بلغة العصر اسم "aparachik"، ولكنه كان فوق ذلك من المثقفين ذوي الإنتاج الغزير. إلا أنه من بين كتاباته المنشورة قبل إقالته في عام ١٩٢٣، لا نجد إلا قلة منها للأسف متاحة للباحثين في وقتنا الحالى؛ وتتضمن الصحف الراديكالية الصادرة في قازان العديد من كتاباته في فترة ما قبل الثورة، ومن بينها Qoyash («الشمس»)، و Ang («الضمير»)، وغيرها، إلا أنه لم يتبق منها شيء. يل إن المطبوعات الدورية التي صدرت في أعوام الثورة والحرب الأهلية غير متوفرة للقراء (حيث تتضمن، على سبيل المثال - ويا للعجب، مقالات موقعة باسم تروتسكى). أما فيما يتعلق بالمكتبات الغربية، فإن أيّاً منها لا يضم مجموعات الصحف المنشورة في قازان باللغة الروسية أو التترية، والتي اشترك فيها سلطان غالييف كما هو معروف. هذا وتُعتبر المجموعة الخاصة بجهاز مفوضية الشعب لشؤون القوميات، المعروفة باسم Fizm 'Natsional' nostey والتي كانت تصدر في موسكو، ويشغل سلطان غالييف منصب نائب رئيس تحريرها، هي المجموعة الوحيدة التي تم الاحتفاظ بها في الغرب. وهكذا فإن كل ما تبقى لنا من كتاباته عشرة مقالات، يتناول معظمها أحداث الساعة ولا تلقى الضوء على أفكاره السياسية بالقدر الكافي، باستثناء تلك الدراسة المهمة التي تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، بعنوان (الثورة الاجتماعية والشرق)، والتي لم يقدر للجزء الختامي منها أن يجد طريقه إلى النشر، حيث صادرت الرقابة للأسف، ربما على يد ستالين نفسه. وهذه المقالات بيانها كالتالى:

- "Batum i Armeniia" (باتوم وأرمينيا)، العدد ١٨ (٧٠)، ١٩٢٠/٦/٩.
- "Vosem 'desiat vliiatelnykh printsev, sultanov i potentatov" (أربعة وعشرون من الأمراء والسلاطين والسادة ذوي النفوذ)، العدد ٣٩، ١٩٢٠/١٢/٨.
- "Kob'javleniiu Azerbaidjanskoï Sovetskoï Respubliki" (في مناسبة إعلان جمهورية أذربيجان السوفياتية)، العدد ١٨ (٧٠)، ١٩٢٠/٦/٩.
- "Metody antireligioznoï propagandy sredi musulman" (أساليب الدعاية

المضادة للدين بين المسلمين)، العدد ٢٩ (١٢٧)، ١٤/١٢/١٩٢١ و ٣٠ (١٢٨)،
١٩٢١/١٢/٢٣. صدرت في صورة كتيب بموسكو عام ١٩٢٢.
- "Mustafa Subhi i ego rabota" (مصطفى صبحى وأعماله)، العدد ١٤ (١١٢)،
١٩٢١/٧/٦.

- "Otnositel'no periodicheskoi literatury na turetskikh narechiiakh" (حول
أدب الدوريات باللغات التركية)، العدد ٢٣ (١٢١)، ٢٥/١٠/١٩٢١.
- "Polojenie Turtsii v poslednee vremia" (الوضع في تركيا في الوقت الراهن)،
العدد ١٤ (٧١)، ١٦/٥/١٩٢٠ و ١٥ (٧٢)، ٢٣/٥/١٩٢٠.
- "Sotsial'naia revoliutsiia i Vostok" (الثورة الاجتماعية والشرق)، العدد ٣٨ (٤٦)،
١٩١٩/١٠/٥، ٣٩ (٤٧)، ١٢/١٠/١٩١٩ و ٤٢ (٥٠)، ٢/١١/١٩١٩.
- "Tatarskaia Avtonomnaia Respublika" (الجمهورية التتارية المستقلة)، العدد ١،
يناير ١٩٢٣، ص ٢٥-٣٩.
- "Tatary i Oktiabr'skaia Revoliutsiia" (التتار وثورة أكتوبر)، العدد ٢١ (١٢٢)،
١٩٢١/١١/٥.

وقد كتب سلطان غالييف مؤلفات عديدة بعد عام ١٩٢٣ على ما يبدو، وذلك خلال
الأعوام التي كان فيها شبه مقال وحتى اعتقاله للمرة الثانية عام ١٩٢٨. والواقع أن لدينا
العديد من المراجع حول (البرنامج) الذي وضعه والذي انتشر بين أنصاره بالتأكيد، سواء
بصورته المخطوطة أو المنسوخة. ورغم أننا لم ننجح في العثور على هذا النص المهم، إلا أن
أفكاره الأساسية وردت في (برنامج حزب Erk)، الذي أمكننا اكتشاف نسخة مخطوطة منه
بمحض المصادفة.

ويجدر بنا أن نضيف إلى تلك المعطيات المباشرة كتابات رفاق سلطان غالييف من التتار،
على قلة عددهم، التي صدرت قبل إقالته. وبعض هذه الكتابات محفوظة لحسن الحظ في
المجموعات الغربية، العامة منها والخاصة على حد سواء، لا سيما في مكتبات تركيا. وهي
تقدم معلومات تكميلية تتيح التعرف عن كثب على أفكار زعيمهم القائد. ونذكر من أهمهم:
- فتحي برناش، "Sharg Gülleri" («أزاهير الشرق»)، قازان، ١٩١٨، (باللغة التتارية)،
مجموعة قصائد تعبر عن بعض الأفكار الثورية المؤيدة للجامعة الإسلامية والقريبة

من أفكار سلطان غالييف.

- إنباييف "Natsional'naiia Politika RKP(b)" (السياسة الوطنية للحزب الشيوعي (ب) الروسي)، Izvestiia Tatarskogo Tsentral'nogo Iсполnitel'nogo Komiteta, قازان، العدد ١٤٣، الصادر في ٢٥ يونيو ١٩٢٢.
- إسحاق كازاكوف، قازان - Tsentral'no-Kamskoï Oblasti، «قازان - مركز إقليم الفولجا - كاما»، قازان، ١٩٢٣.
- كشاف مختاروف (رئيس اللجنة المركزية التنفيذية للجمهورية التتارية)، "Izvestiia Tatarskogo Tsentral'nogo Iсполnitel'nogo Komiteta" («مذكرات»)، قازان، ٢٥ يونيو ١٩٢٢.

ثانياً: الوثائق الرسمية المتعلقة باعتقال سلطان غالييف مرتين:

تناول العديد من الوثائق الرسمية المنشورة في كل من موسكو وقازان المرتين اللتين جرى فيهما اعتقال سلطان غالييف عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٩ باستفاضة شديدة. وتُعد هذه الوثائق من أكثر المصادر السوفياتية المتعلقة بالنشاط «الثوري المضاد» لسلطان غالييف ورفاقه إثارة للاهتمام.

والوثيقة الرئيسية في هذا الصدد هي خطاب ستالين المخصص لسلطان غالييف على وجه الخصوص، والذي ألقاه أمام المؤتمر الرابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي (ب) الروسي مع القيادات العمالية للجمهوريات والأقاليم الوطنية، الذي انعقد في موسكو في الفترة من ٥ إلى ١٢ يونيو ١٩٢٣، بعد اعتقال سلطان غالييف للمرة الأولى مباشرة. ويرد النص الروسي لهذا الخطاب في الجزء الخامس من (الأعمال الكاملة لستالين)، موسكو، ١٩٥٢، ص ٣٠١-٣١٢. أما الترجمة الفرنسية فقد قمنا بنشرها، في (الحركات الوطنية بين المسلمين في روسيا؛ الجزء الأول: (الحركة الغالييفية في تترستان، باريس - لاهاي، موتون وشركاه، ١٩٦٠، ص ٢٣٩-٢٤٥).

ورغم أنه لم يقدر للتقارير الموجزة عن مناقشات المؤتمر المعقود في يونيو ١٩٢٣ أن تجد طريقها إلى النشر، إلا أن «القرار المتخذ بشأن الحركة الغالييفية» من جانب المؤتمر قد ظهر بعد ذلك بعشرة أعوام في مجلة Revolutsiia i Natsional'nosti الصادرة في موسكو، العدد

١١، ١٩٣٣، ص ١٠٧-١٠٨، (الترجمة الفرنسية في (الحركات الوطنية...))، المرجع نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٨).

هذا وقد تعرضت جميع الاجتماعات تقريباً التي عقدتها الحكومة والحزب الشيوعي للجمهورية التترية فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٨ لمناقشة اعتقال سلطان غالييف للمرة الأولى. ولدينا العديد من النصوص الرسمية المتعلقة بهذه الاجتماعات والتي تم نشرها في قازان على النحو التالي:

Biulleten' IV-go S'ezda sovetov Tatarskoï Sotsialistitcheskoï Sovetskoï – Respubliki, 17-24 dekabriia 1923 goda-Stenografitcheskii otch-et (نشرة المؤتمر الرابع لمجالس السوفيات في الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية، ١٧-٢٤ ديسمبر ١٩٢٣، التقرير الموجز)، قازان، ١٩٢٣.

Otchet o deiatelnosti Ts.I.K.i S.N.K. Tatarskoï Organizatsii. R.K.P.(b) – (التقرير الموجز للمؤتمر الإقليمي التاسع للتنظيم التتري للحزب الشيوعي (ب) الروسي، قازان، ١٩٢٤).

Stenogra fitcheskii Otchet Zasedanii XII-oi Oblastnoï Partiinoï Konfe- – rentsii (التقرير الموجز لجلسات المؤتمر الإقليمي الثاني عشر للحزب، قازان، ١٩٢٧).
Sedmoï Sêzd Sovetov A.T.S.S.R. - 15-21 marta 1927 goda – (المؤتمر السابع لمجالس السوفيات في الجمهورية الاشتراكية السوفياتية المستقلة التترية – ١٥-٢١ مارس ١٩٢٧)، قازان، ١٩٢٧، التقرير الموجز.

Vtoraia Sessiia Ts.I.K. 5-go sozyva Priourothennaia k 5-- letnemou iubileiu T.S.S.R., 25 Iunia 1925 goda-Stenogra fitcheskii Otchet (الجلسة العاشرة للجنة المركزية التنفيذية بمناسبة الدورة الخامسة لانعقادها التي توافق الذكرى السنوية الخامسة لإنشاء الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية، ٢٥ يونيو ١٩٢٥، التقرير الموجز)، قازان، ١٩٢٥.

وقد قدم م. رازوموف؛ السكرتير الأول للجنة المنطقة التترية، تفسيراً رسمياً لإدانة سلطان غالييف للمرة الثانية عام ١٩٢٩، وذلك في تقرير رسمي قدمه في قازان يوم ١٢ أكتوبر ١٩٢٩ أمام ممثل الحزب الشيوعي عن دائرة قازان، ثم طرحه مرة ثانية أمام المؤتمر

الإقليمي الخامس عشر للحزب الشيوعي. وتم نشر هذين التقريرين باللغة التترية:

– الأول في مجموعة المقالات التي تشهر بسلطان غاليف ورفاقه:

Kontr-Rivolütsion Soltang äliefchelekkä qarshy

(في مواجهة الحركة الغاليفية الثورية المضادة)، قازان، ١٩٢٩، ص ٣-١١.

والأول في صورة كتيب يحمل عنوان

V.K.P. (b)-nyng XV-ndje Tatarstan ölkä Konfirinsiäse Otchoty

(تقرير المؤتمر الإقليمي الخامس عشر للحزب الشيوعي (ب) الروسي في تترستان)،

قازان، ١٩٣٠.

وقد أتاحت حملة تطهير رفاق سلطان غاليف، بدورها، الفرصة لظهور العديد من الوثائق الرسمية التي بحوزتنا. ومن أهمها قرار اللجنة المركزية الحاكمة للحزب الشيوعي (ب) الروسي، غير المؤرخ (في أكتوبر ١٩٢٩ على الأرجح) بشأن «أنصار الحركة الغاليفية» مختاروف، ومنصوروف، وإنبايف، وصابروف، ودران-إيرلي، وفيرديف، والذي ورد نصه التتري في المجموعة المعنونة، المرجع نفسه، ص ٨٧؛ وكذلك قرار مكتب اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي في تترستان بشأن «الحركة الغاليفية»، أكتوبر ١٩٢٩. ويرد نص هذا القرار في المجموعة ذاتها، Kontr-Rivolütsion.... ص ٨٨-٩١.

هذا وقد جرى نشر نصين هامين آخرين في الكتيب وهما:

Ölke Komitetinining III Plinunda Milli Mäsälä

(المسألة الوطنية أمام الجلسة الثالثة العامة للجنة الإقليمية)، قازان، ١٩٣٠، التقرير

الموجز.

Leninskaia natsionalnaia politika v rekonstrouktivnyi period

(السياسة الوطنية اللينينية خلال فترة إعادة البناء)، قازان، ١٩٣٣. نص التقرير المقدم

إلى الجلسة العامة للجنة الإقليمية للحزب الشيوعي في تترستان المعقودة في فبراير ١٩٣٣.

ثالثا: الأدب المناهض «للمحركة الغاليفية»:

إن هذا الأدب الذي ظهر بغزارة فيما بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٩، والزاهر بما يقدمه من معلومات، يسد إلى حد ما فجواتنا المعرفية فيما يتعلق بتأثير أفكار سلطان غاليف على

الحركة الشيوعية في الجمهوريات الإسلامية داخل الاتحاد السوفياتي.
فقد بدأت الهجمات الأولى ضد هذه الحركة منذ اعتقال ذلك القائد التتري للمرة الثانية عام ١٩٢٩، واستمرت الحملة المعادية لنظرياته السياسية حتى وقتنا الحالي، وعلى مدى أكثر من نصف قرن، مما يبرهن على مدى أهمية «الحركة الغالييفية» بالنسبة لتربط الاتحاد السوفياتي واستقراره. إذ لم يسبق أن تعرض أي من «المنشقين» الآخرين، ولا حتى تروتسكي ذاته، لمثل هذا الهجوم الشرس والمتواصل من قبل إدارة التحريض والدعاية. ولا تتضمن قائمة المؤلفات المناهضة للحركة الغالييفية والتي نورد هنا فيما يلي سوى أهم أعمال ذلك الأدب المثير للجدل، المكرسة بصفة خاصة لسلطان غالييف شخصياً أو لرفاقه. كما يجدر بنا أن نضيف إلى هذه المؤلفات تلك الإشارات التي لا حصر لها، والتي تمثل أهمية بالغة في بعض الأحيان، على نحو ما ورد في فصول كاملة تتناول سلطان غالييف وحركته، وذلك في المؤلفات التي تتعرض بصفة عامة لتاريخ الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي:

- أ. أجيتشيف: Journal Sugushchan Allasyzlar (مجلة الملحدين
المجاهدين)، Revoliutsiia i Natsional'nost, العدد ٨ لعام ١٩٣٥. نقد لإحدى
المجلات التترية المناهضة للدين، والمتهمة بتهمة «القومية البورجوازية» و«الغالييفية».
– Arjanov: "Bourjuaznyi Natsionalizm, Oroudie podgotovki antisovets-
kikh interventor" (القومية البورجوازية كأداة لإعداد التدخلين^(*)) المعارضين
للسوفيات)، Revoliutsia i Natsional 'nosti, العدد ٨ لعام ١٩٣٤، ص ص
٢٢-٣٢، حول تطهير «أنصار الحركة الغالييفية» في تترستان.
– أ. أرشاروني: "Antireligioznaia Propaganda na Sovetskom Vostoke"
Vostoke" (الدعاية المناهضة للدين في الشرق السوفياتي) موسكو، العدد ١،
١٩٣٠-٣١.

- عيد: "Ideologiiia Sultangalievshchiny" (أيديولوجية الحركة الغالييفية)،
Antireligioznik، موسكو، ١٩٣٠-٣٥.
– أ. بيلين: "Byt 'bditel'nyim i zorkim" (البقطة وحدة الذهن)، - Revoliustiia i Nat-
sional 'nosti، ١٩٣٠-٣٩، حول مقاومة «الحركة الغالييفية» في تترستان بعد عام

(*) تدخلية (سياسة التدخل في القطاعات الخاصة ضمن الدولة، أو التدخل في تنازع الدول الأخرى) (المترجمة).

١٩٢٨.

- أ.ك. بوتشاغوف: 'Milli Firka, Simferopol', ١٩٣٠؛ حول ملى فرقة، الحزب السياسى فى كريميه، وثيق الصلة «بالحركة الغالييفية».

- ج. دافلتشان: "Klassovaia bor'ba v Bachkirskoï Khoudojestvennoï Literatüre" (الصراع الطبقي فى الأدب البشكيرى)، Literatura i Iskoustro، موسكو، العدد ٢-٣، ١٩٣١، ص ص ١٣٦-١٥١. حول القضاء على المجموعة الأدبية المعروفة باسم Djidigan، المستوحاة من «الحركة الغالييفية».

- س. دافيدوف، أ. دين محمدوف، س. محمودوف، ن. فتحوف: "Ozdorovit' Tatarskouïou Literatourou" (تطهير الأدب التترى)، Revoliutsiia i Natsional'nostï، موسكو، العدد ٥، ١٩٣١، ص ص ١٠١-١٠٦؛ حول مقاومة التحول القومى و«الغالييفى» فى الأدب التترى.

- ف. إلاغان: "Natsionalisticheskie illiuzii Krymskikh Tatar v revoliutsionnye gody" (الأوهام القومية للتتر فى كريميه خلال أعوام الثورة)، Novyi Vostok، موسكو، العدد ٥، ص ص ١٩٠-٢١٦ والعدد ٦، ١٩٢٤، ص ص ٢٠٥-٢٢٥؛ حول التحولات القومية للقادة الكریميين لحزب ملى فرقة، من رفاق سلطان غالييف وأصدقائه.

- جيمرانوف: Yapazitsiege qarshy - Faktlar häm Sanlar (حقائق وأرقام فى مواجهة المعارضة)، قازان، ١٩٢٧ (باللغة التترية)؛ حول مقاومة المعارضة اليمينية («الغالييفية») واليسارية فى تترستان.

- ن. خيروف: "Pobednyi put' latinizatsii v Tatarii" (المسيرة المظفرة لإضفاء الطابع اللاتينى على تترستان)، Revoliutsiia i Natsional'nostï، العدد ٧، ١٩٣٣، ص ص ٦٦-٧٠؛ حول تخليص القوميين «الغالييفيين» المشايعين من سيطرة الأبجدية العربية.

- م.أ. حسنوف: "Koul 'tournoie stroitel'stvo v Tatarii za 15 let" (البنيان الثقافى فى تترستان خلال الأعوام الخمسة عشر الأخيرة)، Revoliutsiia i Natsional'nostï، ١٩٣٥-٣٦، ص ص ٣٧-٤٢.

- Otcherki po izoutcheniou mestnogo kraia (نظرة إجمالية لدراسة الإقليم الوطنى)، قازان، ١٩٣٠. مجموعة مقالات يتناول العديد منها الحياة السياسية فى تترستان فى فترة تصفية أنصار سلطان غاليف.
- محمد بارزان: Yash Lenintchiler (اللينينيون الشبان)، قازان، ١٩٤٢. دراسة لتنظيم الشبيبة الشيوعية التترى والتيارات القومية المحركة له.
- Protiv Sultangalievshchiny i Samoderjaviia (فى مواجهة الحركة الغاليفية وامبريالية القوة العظمى)، قازان، ١٩٢٩. مجموعة من المقالات.
- ل. روبنشتاين: V bor 'be za leninskouiu (تنازع السياسة الوطنية اللينينية)، قازان، ١٩٣٠. تحليل دقيق وتفصيلى «للمحركة الغاليفية». أحد المصادر بالغة القيمة.
- أ. تاراسوف: "Kontrevolutsionnaia avantura Tatarskoï bourjouazii v 1918" (المغامرة الثورية المضادة للبورجوازية التترية عام ١٩١٨)، Istorik Mark-sist، موسكو، ١٩٤٠-٤٧، ص ص ٩٣-١٠٠.
- عيد: Razgrom kontrevolutsionnoï avantury tatarskoï bourjouazii v nachale 1918 goda (هزيمة المغامرة الثورية المضادة للبورجوازية التترية فى بداية عام ١٩١٨)، قازان، ١٩٤٠.
- عيد: "Oustanovlenie sovetskoï vlasti v kazani" (إقرار السلطة السوفياتية فى قازان)، Istoritcheskii Journal، موسكو، ١٩٤٠-١١.
- Tatarskaia Sotsialisticheskaia Sovetskaia Respoublika za piat'let-1925-1920 (الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، ١٩٢٠-١٩٢٥)، قازان، ١٩٢٥.
- ش. تيبيف: K istorii natsional 'nogo dvijeniia v Sovetskoï Bachkirii (فى معرض الحركة الوطنية فى بشكيريا السوفياتية)، أفا، ١٩٢٩؛ حول «الحركة الغاليفية» فى بشكيريا.
- عيد: Millät, Milli kultura (الأمة والثقافة الوطنية)، موسكو، ١٩٢٩ (باللغة التترية).

- أ. أوخانوف: Sotsialisticheskoe nastoupnenie i religiia (الهجوم الاشتراكي والدين)، قازان، ١٩٣٢. حول «الحركة الغالييفية» والإسلام.
- ولا تزال الانتقادات الموجهة إلى «الحركة الغالييفية»، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت فصاعداً مرادفاً لكراهية الأجانب المضادة للروس وللقومية بجميع أشكالها، أحد الموضوعات الدائمة للأدب السياسي التتري. وتُعد الدراسات العديدة التي كُتبت مؤخراً لسلطان غالييف، في قازان وموسكو على حد سواء، خير شاهد على ذلك. ولكثرة هذه المطبوعات، فإنه يتعذر حصرها في قائمة واحدة. ومن أهمها ما يلي:
- م. عبد اللين وياتيف: "Soltangäliefcheläk häm any bourjuaz yaklauchylar" («الحركة الغالييفية» وأنصارها البورجوازيون)، Tatarstan Kommunisty، قازان؛ أولاً - ١٩٧٥، ص ص ٦٧-٧٥. وقد وردت أسماؤنا على رأس هؤلاء «الأنصار البورجوازيين». كما ظهرت نسخة روسية موسعة من هذا المقال تحت نفس العنوان: "Sultangalievshchina i ee bourjouaznye zashchitniki" في عمل لنفس المؤلفين: Tatarskaia A.S.S.R. Real'nost' i bourjouazne mify (الجمهورية التترية الاشتراكية السوفياتية المستقلة. الحقائق والخرافات البورجوازية)، قازان، ١٩٧٧، ص ص ١٢٣-١٣٨.
- م. عبد اللين: -Tatarstanda Oktiabr ' Rivolütsiäse häm any falsifikatsii (ثورة أكتوبر في تترستان والمزيفون)، في قازان، aläüichelär , Sovet Mäktäbe حادي عشر - ١٩٧٥، ص ص ٥٣-٥٨ (باللغة التترية). وقد وردت أسماؤنا للمرة الثانية في مكان بارز بين هؤلاء «المزيفين».
- م.ر. بولاتوف: -Bor'ba troudiashchikhsia Tatarii za pobedou Sotsialistitches- koï Revolutsii (كفاح تتريا من أجل انتصار الثورة الاشتراكية، قازان، ١٩٥٧).
- أ.ج. جيزاتوللين: -Zashchishchaia zavoevaniia Oktiabria. Tsentral 'naia Mu- sul'manskaia Voennaia Kollegiia (دفاعاً عن فتوحات أكتوبر. المجمع المركزي العسكري الإسلامي)، موسكو، ١٩٧٩، ص ص ٢٦-٣٠، حول دور سلطان غالييف.
- ن. مانسفيتوف: "Velikaia Oktiabr'skaia Sotsialisticheskaiia Revoliutsia i sozdanie Narodnogo Kommissariata po delam natsional'nostei"

(ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى وإنشاء مفوضية الشعب لشؤون القوميات)، Voprosy Istorii، موسكو، ١٩٤٩-٨.

- س. محمديوف وم. محرياموف: "Musul'manskii Sotsialisticheski komitet", (اللجنة الاشتراكية الإسلامية) Sovetskaia Tataria. قازان، ٢، حادي عشر - ١٩٥٧.

- م. محرياموف: Iz istorii inostrannoï interventsii i grajdanskoi voiny v Tatarii (صفحات من تاريخ التدخل الأجنبي والحرب الأهلية في تتريا)، قازان، ١٩٥٤. - عيد: Oktabr 'i natsional 'nyi vopros v Tatarii Oktabr ' 1917 - Iul' 1918; (أكتوبر والمشكلة الوطنية في تتريا - أكتوبر ١٩١٧ - يولية ١٩١٨)، قازان، ١٩٥٨.

- ن. ناصروف: "Tatarstanda Sovet vlastenon urnashtyn häm nygytöochen: Köräsh tarihyndan" (صفحات من تاريخ النضال من أجل إرساء ودعم السلطة السوفياتية في تترستان)، Sovet Adäbiyaty، قازان، ١٩٥٧-١٢ (باللغة التترية).

- يو.أ. سميروف، Molodej Tatarii v bor'be za viast' Sovetov (شبان تتريا وتنازع سلطة السوفيات)، قازان، ١٩٥٨.

رابعاً: مؤلفات المهاجرين التتر:

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، قام عدد من المهاجرين التتر والبشكيريين، من أسرى الحرب القدامى في ألمانيا، بنشر مذكراتهم حول أعوام العشرينات والثلاثينات في الغرب. وتتضمن هذه المذكرات معلومات متفرقة، وإن كانت قيّمة في كثير من الأحيان، إن لم يكن عن سلطان غاليف ذاته، فعلى الأقل حول حملات التطهير التي اجتاحت بلاد التتر والبشكيريين فيما بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٩:

- ت، دولتشان: الحياة الثقافية في الجمهورية التترية، نيويورك، برنامج أبحاث حول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ١٩٥٣. - عيد: Sovetskii Tatarstan لندن، ١٩٧٤.

- ج. فيظ الدين: "Motivy razkhojdeniia Sultan Galieva s Partiei" (أسباب الخلاف بين سلطان غالييف والحزب)، Vestnik Instituta po Izucheniu Istorii i Kul'tury S.S.S.R., ١٩٤٥-٥ (١٢)، ص ص ٥٨-٦٥.
- م. كريمي: "Kreml'i Tatarskie Kommunisty", Azat Vatan, ميونيخ، ١٩٥٢-٧، ص ٦.
- ر. موساباي: «الأدب التتري المعاصر»، East Turkik Review، ميونيخ، ١٩٥٨-١، ص ص ٥٩-٦٩.
- "Pravda o Sultan Galieve"، (حقيقة سلطان غالييف)، Azat Vatan، ميونيخ، ١٩٥٢-٥، ص ص ٧-٨.

خامساً: الدراسات الأجنبية:

- أولى عدد قليل للغاية من المؤرخين الغربيين اهتمامهم لسلطان غالييف وللشيوعية الوطنية للمسلمين في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وكان الرائد في هذا المجال المؤرخ الألماني جيرار فون مند الذي يتناول سلطان غالييف باستفاضة في مؤلفه المهم بعنوان Nationale Kampf der Russlands Türken، برلين، ١٩٣٦.
- كما تصدى المؤرخ الأمريكي ويتشارد بايبس الذي يعمل بجامعة هارفارد لمشكلة سلطان غالييف، وإن كان ذلك بإيجاز، في مؤلفه المعنون (إنشاء الاتحاد السوفياتي)، كامبريدج، مطابع جامعة هارفارد، ١٩٤٥، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.
- أما في فرنسا، فقد خصص مؤلفو هذا العمل العديد من الدراسات لسلطان غالييف، ومن أبرزها:
- أ. بنجسين وش. كالكيجيه: "Der Sultangalievismus und die nationalistischen Abweichungen in der Tatarischen Autonomen Sowjetrepublik", Forschungen zur Osteuropaischen Geschichte، برلين، ١٩٥٩-٨، ص ص ٣٢٣-٣٩٦.
- أ. بنجسين وش. كالكيجيه: (الحركات الوطنية بين المسلمين في روسيا. الحركة الغالييفية

في ترستان)، باريس - لاهاي، ١٩٦٠. تمت ترجمة هذا العمل باللغة التركية Sultan
Galiyev ve Sovyet Müsülmanları، إسطنبول، Hür Yayın، ١٩٨١.
- أ. بنيجسين وس. أ. ويمبوش: (الشيوعية الوطنية الإسلامية في الاتحاد السوفياتي.
استراتيجية ثورية لعالم المستعمرات، شيكاغو - لندن، مطابع جامعة شيكاغو،
١٩٧٩.

كما تجدر الإشارة في فرنسا كذلك إلى التحليل المتعمق الذي قدمه مكسيم رودنسون
لنظريات سلطان غالييف بعنوان «الشيوعية والعالم الثالث. حول أحد الرواد المنسيين»،
العصور الحديثة، باريس، العدد ١٧٧، ديسمبر ١٩٦٠ - يناير ١٩٦١؛ بالإضافة إلى دراسة
حديثة أعدها شانتال ليمرسييه - كالكيجيه، بعنوان «الأقليات القومية الإسلامية في الثورة
والحرب الأهلية» في (القوميات السوفياتية بمنظور استراتيجي)، طبعة س. إندرز ويمبوش،
لندن، ١٩٨٥، ص ٣٦-٦١، تتضمن تحليلاً للأعمال العسكرية لسلطان غالييف بصفة
خاصة.

ونشير في النهاية، من قبيل المعرفة بالشئ، إلى إحدى الدراسات التي ظهرت في
بولونيا، والتي لم نتمكن من الرجوع إليها؛ من إعداد آدم كروسزيك، بعنوان "Sultan Galie"
Kultura, jew po 50-uv latach", العدد ٩، ١٩٧٣، ص ٧٨-٨٨.

أما أحدث الأعمال الأدبية المستوحاة من عملنا فهي:

- حبيب طنغور: سلطان غالييف، باريس، سناب، ١٩٨٥، مجموعة «المكتبة العربية».

أعمال لنفس المؤلفين

من تأليف ألكسندر بنيجسون وشانتال ليهرسييه - كاليكيجيه

- الحركات القومية لمسلمي روسيا.
- الحركات الغالييفية في تترستان، باريس - لاهاي، موتون، ١٩٦٠.
- الصحافة والحركة القومية لمسلمي روسيا قبل عام ١٩٢٠، باريس - لاهاي، موتون، ١٩٦٤.
- الإسلام في الاتحاد السوفياتي، لندن - نيويورك، بول مول وبرايجر، ١٩٦٧. ترجمة فرنسية، باريس، بايوه، ١٩٦٨، الإسلام في الاتحاد السوفياتي.
- خان «كريميد» في المحفوظات العثمانية (توب كابييه)، باريس، مدرسة الدراسات العليا، ١٩٧٨ (بالاشتراك مع ب. بوراتاف ود. ديسيف).
- مسلمون في طي النسيان. الإسلام في الاتحاد السوفياتي، باريس، ماسبيرو، ١٩٨١.

أعمال من تأليف ألكسندر بيننجسون

- الروس والصينيون قبل عام ١٩١٧، باريس، فلاماريون، ١٩٧٤.
- فارس ملكي في موسكو - الكابتن جاك مارجريه: مذكرات عن الثورة الروسية الأولى، ١٦٠٤-١٦١٤ باريس، الاكتشاف/ماسبيرو، ١٩٨٣.

أعمال من تأليف شانتال ليهرسييه - كالكيجيه

- السلام في منغوليا - عبودية التتر أم السلام المنغولي؟ باريس، فلاماريون، ١٩٧٠.

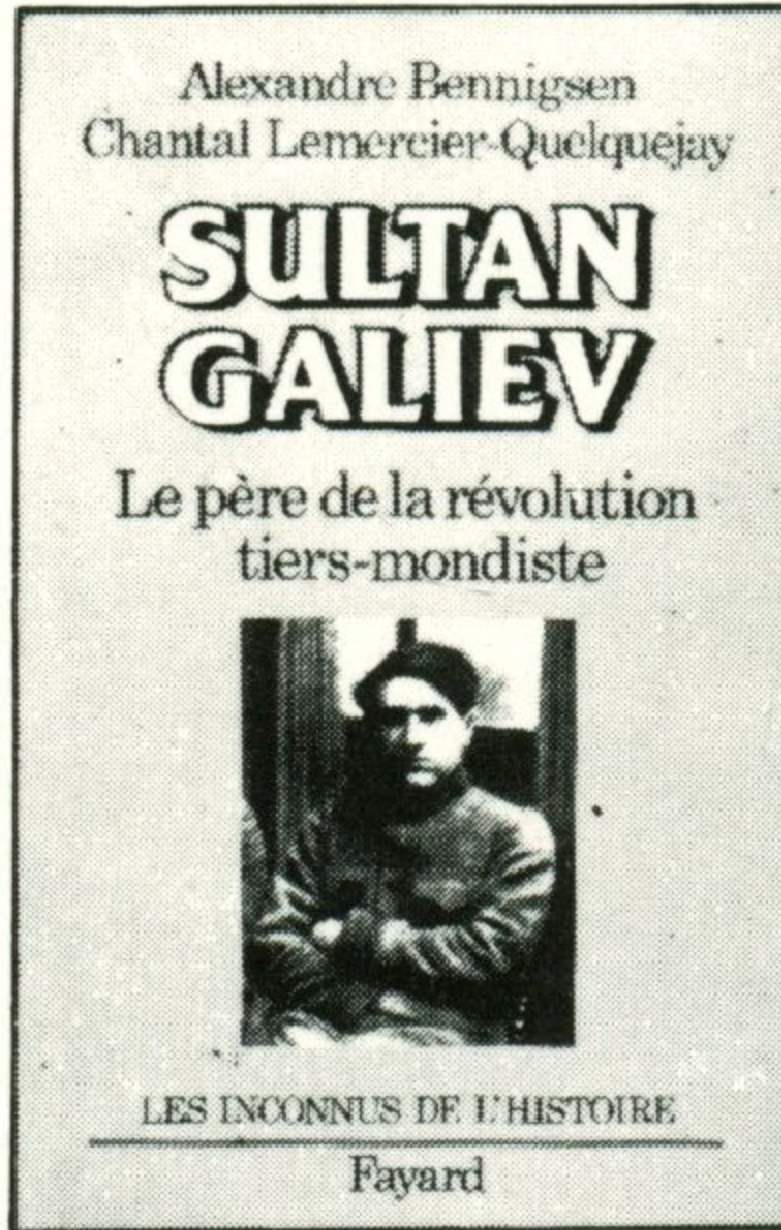
الفهرس

٥	مقدمة
	الفصل الأول
٧	* المجتمع التتري عشية الثورة
	الفصل الثانى
٤١	* الثورى القومى ١٩٠٥ - ١٩١٧
	الفصل الثالث
٧١	* رفيق ستالين نوفمبر ١٩١٧ - أغسطس ١٩١٨
	الفصل الرابع
٩٣	* مؤسس الحركة الشيوعية ١٩١٨ - ١٩٢٣
	الفصل الخامس
١٣٣	* الإلحادى
	الفصل السادس
١٤٧	* التآمرى
	الفصل السابع
١٦٩	* إعتقال سلطان غالييف للمره الثانية وتصفية «الحركة الغالييفية»
	الفصل الثامن
١٨١	* النبى
٢٠٥	تذييل
٢٠٩	تحليل نقدى للمصادر

رقم الابداع
٩٢/١٠٢٧٥

الترقيم النولى
177 - 5222 - 05 - 2

هذا الكتاب



ماذا يريد المسلمون الثوريون ؟ هذا ما يتحدث عنه الكسندر بينينجسن وشانتال لومبرسييه - كيلجى وهما متخصصان فى الدراسات الاسلامية والتركية وكانا أول من أعاد اكتشاف الدور الرئيسى الذى لعبه سلطان غاليف المعلم والصحفى التترى فى ظهور أفكار هؤلاء المسلمين الثوريين . وذلك منذ بداية ثورة أكتوبر حتى نهاية عام ١٩٢٨ عندما تخلص منه ستالين .

سلطان غاليف هو أب لثورة العالم الثالث ، فهو الذى وضع نظرية « الشيوعية الوطنية الاسلامية » ، وهى اشتراكية يقيمها الكادحون المسلمون ولا تفرضها البروليتاريا الأوروبية ، وتفترض تحرير الأرض التى احتلتها الامبراطورية القيصرية القديمة من الاستعمار .

وإن قادة العالم الثالث مثل عبد الناصر أو بن بلة أو القذافى يعتبرونه مبادرا وملهما لأفكار الثورة ضد الاستعمار الذى سيطر على أفريقيا وآسيا .

إن سلطان غاليف ، الذى هاجمه أو « تناساه » التاريخ السوفييتى باعتباره « التروتسكى المسلم » ، وهو الذى ثار ضد كل الامبرياليين . يعتبر - بدرجة ما - نبى معارك التحرر التى لازالت تخوضها قوى التحرر فى العالم الثالث .

وتطرح حياته - فى قلب هذه المعارك - مسألة أساسية :

هى التعايش بين الماركسية والاسلام .

والمؤلفان اثنان من المتخصصين فى شئون الاتحاد السوفييتى وشئون المسلمين فى آسيا . الأول هو الكسندر بينينجسن أستاذ التاريخ القديم فى جامعة شيكاغو والثانى شانتال ليمرسييه - كيلجى وهو متخصص فى الدراسات . ومن مؤلفاتهم الأساسية : الحركات القومية عند المسلمين فى روسيا ، والاسلام فى الاتحاد السوفييتى ، والمسلمون المنسيون . مجموعة « المنسيون فى التاريخ » بقيادة جان مونتالبىتى .



دار العالم الثالث

٢٢ (أ) شارع حسين حجازى ، القاهرة

تليفون ٣٥٥٥٥٠٢ / ٣٩٢٢٨٨٠ فاكس ٣٥٥٠٨٧١

تصميم الغلاف: مجبى الدين

Bibliotheca Alexandrina



0702912

كتاب العالم الثالث